إدوارد عطية

تلميذي معاوية محمد نور

ترجمة وتقديم ودراسة وتقويم
بقلم: أ. د. محمد وقيع الله

دار (كَلِي) للنشر
2024م

المحتويات

الإهداء

بين يدي هذا الكتاب

الفصل الأول: كفاح معاوية الأدبي

1- بين التبعية والأصالة

2- صدى موت معاوية

3- التعريف بإدوارد عطية

4- شهادة إدوارد عطية

5- شهادة رشيد عثمان خالد

6- ملاحظات عن الترجمة

الثاني: سيرة معاوية محمد نور

1- تلميذى معاوية محمد نور

2- في رحاب كلية غوردون

3- الشبل الواعد

4- نصر وهزيمة

الفصل الثالث: الوجه الآخر للأستاذ

1- اللسان المختلف

2- تاريخ التقرير

3- ضد التعليم الحر

4- روح جمال الدين الأفغاني

5- التوصية (ببهدلة) معاوية

6- تفسير الموقفين

7- الصّدى الذي أثاره نشر التقرير

الفصل الرابع: الدفاع اليساري عن إدوارد عطية

1- دعوى حماية عطية للمبدعين السودانيين

2- اتهام الطيب صالح

3- سر الدفاع عن الجاني

الفصل الخامس: مواصلة الظلم والتجنِّي

1- نص التقرير الأمني عن معاوية محمد نور

2- من مذكرة ناظر مدرسة كلية غردون

3- مذكرة إلى مدير مصلحة التعليم

4- مذكرة مدير الأمن العام إلى مدير التعليم

5- من خطاب أ. دي. هاملتون
6- التماس من معاوية إلى الحاكم العام
الفصل السادس: محاولات (الأدلجة) والتبنِّي
1- محاولة تاج السر عثمان
2- محاولة النور حمد
3- محاولة عبد العزيز الصاوي
4- خاتمة
الفصل السابع: ملاحق
1- النص الإنجليزي لحديث إدوارد عطية عن معاوية
2 - نماذج من السرقات في الأدب السوداني المعاصر
3- مساجلات مفيدة ومطلوبة
4- تبرير الانتحال والسطو
5- إيمان: أثر أدبي رمزي
6- ساعة مع أندريا موروا
7- رثاء عباس محمود العقاد لمعاوية
8- رثاء محمد أحمد محجوب لمعاوية
9- صور

إهداء

إلى علم الثقافة العربية الوطنية الكبير
أستاذ التاريخ الإفريقى والفولكلور السودانى
العلامة الأستاذ الدكتور عبد الله على إبراهيم

مع كامل الإعزاز
محمد

بسم الله الرحمن الرحيم

بين يدي هذا الكتاب

في صيف عام 1985م التقيت بالقاهرة بسعادة الزعيم الوطني محمود الفضلي، رحمه الله. وكان من فضائل ذلك اللقاء أن وجَّهني الأستاذ الكبير لكي أطلع على كتاب: (An Arab Tells His Story) من تأليف الأستاذ إدوارد عطية[1].

كنت قد سألت الأستاذ الفضلي عن بعض خفايا وطوايا ظروف نشأة الأحزاب السودانية، في أربعينيات القرن الماضي، وهو بتلك الظروف عليم جد عليم.

ولكنه ما زوَّدني إلا بإجابة موجزة، لم يشأ أن يستطرد فيها - ربما خشية أن اتهمه بالتحيز ضد طرف سياسي ما - ثم طلب أن أستوفي بقية الأسرار المبتغاة في إهاب ذلك الكتاب.

نسخ كتاب الأستاذ إدوارد عطية نادرة وعزيزة الوجود، إذ إنه طُبع في منتصف أربعينيات القرن الماضي، ولكنى طفقت أبحث عنه، حتى عثرت بنسخة منه ظفرت بطيِّها على ما هو أهم بكثير من بُغيتي الأولى.

فالكتاب يحتوي على فصلين نفيسين، عقدهما المؤلف للحديث عن الأديب والناقد السوداني المتفوق الأستاذ معاوية محمد نور!

وقد عرف المؤلف أديبنا النابغة، وخبره عن قرب، إذ كان المؤلف أستاذا بكلية غوردون التذكارية، يتعاطى فيها تدريس الأدب الإنجليزي. وقد تباحث وتحاور مع تلميذه معاوية مليا، وخبر نزعاته الفكرية والأدبية خبرة وافية، وأفضى إليه هذا بكثير من آماله ومواجده وشجونه، إذ وجد فيه خير من يصبح شريكا عقليا له، في بيئة السودان الثقافية المجدبة في ذلك الحين.

وبأسلوبه الأدبي العميق الشديد التركيز تولى الأستاذ إدوارد عطية إيجاز قصة معاوية في كتابه، ولكنها - مع ذلك - استغرقت فصلين كاملين من فصول الكتاب الذي كرسه أساسا للحديث عن نفسه!

---

[1] Edward Atiyah, An Arab Tells His Story, John Murry, London, 1946.

لم يجد إدوارد عطية بُدًّا من أن يسوق تجربته التعليمية والفكرية والأدبية في سياق موازٍ لتجربة تلميذه معاوية، الذي أطنب كثيرا في الثناء عليه والاعتراف بتفوقه، حتى على الأوساط الثقافية والأدبية بمصر في ذلك الأوان!

ومن غرائب المصادفات أن تلك الملاحظة نفسها قد أفضى بها، في وقت لاحق، إمام الأدب والفكر العظيم الأستاذ عباس محمود العقاد، رحمه الله، حينما قال:" لو عاش معاوية لكان نجما مفردا في عالم الفكر العربي "[2]!

ومما دفعنا لتجشم ترجمة ما كتبه عطية عن معاوية قلة معرفتنا عموما وقلة معرفة الجيل الطالع خصوصا بتاريخ هذا الأديب السوداني الباهر، وندرة المصادر التي تتحدث عن ظروف حياته القصيرة العجيبة، وتعطش الناس لمعرفة المزيد عنها، فعسى أن نكون قد قدمنا شيئا يعين في هذا السبيل[3].

وقد ضممنا إلى ما نقلنا إلى العربية من كلام عطية عن معاوية نصوصا أخرى من وثائق استخبارية سرية، بعضها من إنشاء قلم الأستاذ عطية نفسه، وبعضها من قلم و. س. وليمز، وأ. دي. هاملتون، وغيرهما من أساتذة الاستعمار.

وأنشأنا فصلا في مناقشة بعض الإيديولوجيين السودانيين المعاصرين، الذين راموا اختطاف معاوية، ونصبه في حيز قريب من خطوطهم الإيديولوجية، منطلقين في ذلك المسعى من النظر الحزبي الحسير.

ثم ألحقنا بالكتاب طوائف متنوعة من الملاحق، ضمت النص الإنجليزي لما نقلناه إلى العربية عن إدوارد عطية، لمن شاء أن ينظر إليه في لغته الأصلية، وبعض المناقشات مما نشر بالصحف عن هذا الموضوع، ونصوصا وصورا أخرى تتصل بالموضوع بشكل تكميلي.

ومن الله سبحانه وتعالى العون وبه التوفيق.

خادم العلم الشريف
محمد وقيع الله

معاوية محمد نور، الأعمال الأدبية الكاملة لمعاوية محمد نور، جمعها وأعدها للنشر:
[2]رشيد عثمان خالد، دار الخرطوم للطباعة والنشر، الخرطوم، 1994م، ص 8.

حدثني الأستاذ عادل الباز، حفظه الله، وكان حينها رئيس تحرير صحيفة (الصحافة)، التي نشرت ترجمتنا لبعض فصول هذا الكتاب، أن العدد الذي صدرت به تلك الترجمة نفدت سبع وتسعون بالمائة من نسخه بالأسواق، وهو حدث نادر في تاريخ الصحف
[3]السودانية!

الفصل الأول
كفاح معاوية الأدبي

الفصل الأول
كفاح معاوية الأدبي

بين التبعية والأصالة

بجانب الحديث المستفيض عن النبوغ الفكري والنقدي العجيب لمعاوية محمد نور، تعرض الأستاذ عطية للإبانة عن الآراء السياسية الوطنية التي تبناها هذا الفتى السوداني الخلاب.

وربما كانت هذاه هي الإفادة الفريدة في كتابة الأستاذ عن تلميذه، لأن الاهتمام العام بشخص معاوية ظل منصباعلى جوانب تبريزه الأدبى وحدها، مع اهمال ذلك الجانب المهم من جوانب حياته العامة.

ذكر الأستاذ عطية أن معاوية كان يضع قضية استقلال السودان، في إطار أكبر، حيث اتخذ من قضايا (الإمبريالية)، و(التنمية الاقتصادية)، و(الإصلاح الاجتماعي)، و(التطور الثقافي) أسسا مفهومية للتحليل.

ولم يكن يتناول قضية الاستقلال إلا على ذلك النحو الرصين، نائيا بنفسه عن استهلاك الشعارات العاطفية، وإدمان التلويح بالمطالب السياسية الحماسية، التي لهج بالهتاف بها المثقفون والسياسيون في زمانه وزمان قبله، بل لما يزالون يلهجون بها حتى الآن!

وتلك إشارة واضحة، شديدة الأهمية، تؤكد أن رأى معاوية، القائل بأن الاستقلال السياسي السوداني، سيأتي فارغ المضمون، كان ثاقبا ومصيبا حقا.

وقد كوَّن معاوية ذلك الرأي - بلا ريب - من خلال استقرائه الطويل، وتأمله المستبطن في أحوال واهتمامات النخبة الثقافية حديثة التكوين في السودان، ومن استطلاعه وتفكره في أحوال النخبة الثقافية والسياسية الأفضل تكوينا في مصر، التي احتك بها احتكاكا مباشرا وقويا فلم يجدها في عاقبة أمرها أفضل من حال الطائفة المثقفة في السودان!

ولعل ذلك هو سر إحجامه عن دخول ساحة العمل السياسي الوطني العقيم الجدوى. إذ ظن أن تلك الطائفة المرشحة لإصلاح الوطن هي في نفسها في أشد الحاجة إلى الإصلاح والتقويم!

ولعل في إدراك معاوية العميق للقضايا السياسية لوطن محتل ذلك الإدراك الذي يذكر بنفاذ تحليلات آراء المفكر الجزائري العظيم مالك بن نبى[4] شأن في تلك النهاية البئيسة المحزنة التي انحدر إليها على الصعيد الشخصي.
لقد تم تصنيف معاوية من قبل دهاقنة الاستعمار على أنه شخص ذكي ذكاءً مفرطا يتفوق به على كافة أنداده من أفراد النخبة السودانية. ورفضت إدارة المعارف، لذلك السبب، تعيينه أستاذا بكلية غوردون التذكارية. إذ من شأن تعيين أستاذ نابه مثله أن يسهم في تنبيه أذهان تلاميذه، ويهدد بتكوين جيل متعلم جديد، يدرك خفايا وخبايا الصراع الفكري في البلاد المستعمرة.
وقد انطوت التوصية السرية لمدير المعارف بشأنه على كلمة دقيقة تقول عنه إنه: "Not the type, too clever"[5] .
أي أنه أذكى كثيرا من الحد المطلوب من أفراد الصفوة السودانية.
وأنه ليس من النوع الذي يمكن خداعه وغسل دماغه وتطويعه من حيث لا يدري لكي يخدم مصالح الانجليز في السودان!
لم يكن الاستعمار البريطاني في السودان يأمن خطر الفكر التقدمي التحرري الذي امتاز به معاوية محمد نور، حيث تهدد عاقبته بانفلات البلاد عن الدوران في فلك المنظومة الاستعمارية الغربية وانفكاكه عن أحابيلها، وتوجهه نحو إنشاء وطن حر مستقل بمعنى الكلمة، بعيد عن التبعية، بكل

---

[4] في وقت لاحق قدم الفيلسوف الاجتماعي مالك بن نبى، رحمه الله، نظريته الكبرى عن (القابلية للاستعمار)، وفيها أشار إلى مجموعة الآفات النفسية والاجتماعية المتوطنة من قديم في العالم الإسلامي، والتي هيأت للاستعمار الغربي أن ينفذ إليه ويقهره ويذله ويخضعه لشروطه، ويكيف أوضاعه بما يجعله دائم الإذعان له. وهذه الآفات شبيهة بالجراثيم والأمراض العضوية التي تلم بالأجسام، وتسبب لها العطب والانثلام. وحسب تحليلات المفكر الجزائري، فإن قابلية العالم الإسلامي للاستعمار هي التي جلبت الاستعمار الغربي إليه. صحيح أن الاستعمار مسؤول عن استغلال العالم الإسلامي، وتدمير بعض امكاناته، إلا أن السبب الأول لما حل بالعالم الإسلامي من بلاء وشقاء ينجم من قابليته المستمرة حتى الآن لكي يستعمر من جديد. وهذه النظرية الكبرى عينها كان قد عبر عنها من قبل، ولكن في أسلوب مبسط، موقظ الشرق الزعيم جمال الدين الأفغاني في مقولته الذائعة:" لو لم نكن حملانا لما أكلتنا الذئاب! ". راجع تفاصيل تحليلات الأستاذ مالك بن نبي، عن القابلية للاستعمار، في كتابه التأسيسي: شروط النهضة، دار الفكر، دمشق، 1403هـ، ص 153- 159.

[5] Edward Atiyah, An Arab Tells His Story, Ibid, 1946.

معنى من معانيها الوبيلة، بل ربما أصبح السودان، بذلك، قدوة تحتذى في بقية الأوطان المستعمرة [6]!

إن الناظر في مقالات معاوية النقدية التي نشرها في صحف ومجلات مثل (الجهاد)، و(السياسة)، و(الأسبوع)، و(البلاغ)، و(مصر)، و(الرسالة) و(المقتطف) - وهى أرقى صحف و مجلات مصر في النصف الأول من القرن العشرين - يلاحظ بجلاء تام تفوق صاحبها في شؤون الفكر والأدب، حتى على عمالقة عصر النهضة الأدبية بمصر في ذلك الحين.

فقد طفق يتعامل بأستاذية مقتدرة لا تكلف فيها ولا ادعاء مع أئمة الشعر والقصة والرواية بمصر، فلم يوفر صغارهم ولا كبارهم من سهام النقد، ولم يوفر شاعرا كبيرا، مثل أحمد شوقي - وهو في قمة نضجه وفي أواخر أيام حياته - من النقد والتوجيه بشأن رواياته المسرحية الشعرية.

ولم يتردد في تقويم شعراء كبار، من طبقة علي محمود طه المهندس، والدكتور إبراهيم ناجي، والدكتور أحمد زكي أبي شادي، وتبصيرهم بأن طريقهم في الشعر خاطئ من أوله، وأنه لا يؤدي أبدا إلى إنتاج شعر إنساني عالمي مجيد [7].

---

[6] تساءل الأستاذ الطيب صالح:" لماذا لم يبعث الإنجليز معاوية إلى أكسفورد أو كمبردج؟" وردَّ على نفسه قائلا:" إنه لأمر يدعو للعجب، فهذا شاب أحب لغتهم ونبغ فيها، وكان وهو صبي دون العشرين يبزُّ الإنجليز أنفسهم في الحديث عن دكتور جونسون، وشكسبير، وبرنارد شو.. الفرنسيون كانوا حتما سوف يحتفون به، ويرسلونه إلى السوربون في باريس، كما فعلوا مع سنقور الذي أصبح من كبار شعراء اللغة الفرنسية، وكان أول شخص غير فرنسي إطلاقا ينتخب عضوا في الأكاديمية الفرنسية. أما الاستعمار البريطاني فلم تكن متطلبات العقل والوجدان ضمن أهدافه، وكان معظم حكام السودان إنجليزا في ذلك العهد من العسكريين، وهؤلاء لا يحسنون الظن بمتطلبات العقل والوجدن على أي حال. ولابد أن معاوية خلق لهم مشكلة. كانوا يريدونه أن يأخذ من لغتهم ما يفي بالغرض، لكنه أخذ الأمر مأخذ الجد، فغاص في أعماق اللغة، وتبحر في طيات وجدان المستعمِرين وعقلهم كمن يبحث عن مفتاح للغز، وحاربهم فيما بعد بسلاحهم وانهزم لأنه جاء باكرا، أبكر مما يجب، ولم يكن أمثاله كثيرين". من تقديم الطيب صالح لكتاب: السُّني بانقا، معاوية نور، مركز عبد الكريم ميرغني الثقافي، أم درمان، 2006م، ص 16 - 17.

[7] فهو يقول في خاتمة مقالين له قرع فيهما الشاعرين ناجي والمهندس:" قد كنا نظن أن أصدقاءنا من الجيل الجديد الذين يشتغلون بالشعر، يفهمون الشعر على حقيقته، وأنه ليس ألفاظا ومبالغات عن عالم الطبيعة، والزهر، والحب، وما إليه من الألفاظ والأخيلة

ولم يحذر من مقارعة ناقد فحل، مثل الأستاذ إبراهيم عبد القادر المازني، قائلا إن أسلوبه في النقد لا يرضيه، ولا يعجبه، ولا يقنعه، لأنه لا يكلف نفسه الإحاطة التامة بما ينتقد.
ولم يتردد في كشف سرقات المازني العديدة من روائع الأدب الأوربي والأمريكي، متعجبا من استساغته لإتيان ذلك الصنيع، وهو يعرف أن في البلاد من يقرأ مثله في غُرر الآداب الغربية!
إن من يطالع المقالات النقدية التي صدرت ممهورة بقلم معاوية، ليدرك حتما صدق مقولة إدوارد عطية في وصفه بالتفوق على الأوساط الثقافية المصرية التي حل بها، ويدرك أن سر تفوقه قد كمن في تملكه التام لناصية اللغة الإنجليزية: (وصفه مدير المعارف إياه بأنه يعرف الإنجليزية على مستوى يفوق مستواه هو!) [8] وفي اطلاعه الوافر على آدابها، وآداب اللغات الأوربية التي ترجمت إليها، وبصيرته النقدية الوقادة، وحالة الجذب الصوفي، التي قيَّدته بأعالي الأدب العالمي.
ومن هذه الناحية يمكن أن ينعت معاوية بتعلقه غير المحدود بمثالية الآداب الغربية، و(الروسية)، وازدرائه لقيم الأدب العربي وأصوله، ودعواته المتكررة لشعراء العالم العربي وقصاصه وروائييه ونقاده لاحتذاء وتمثُّل قيم الأدب الغربي والنسج على هداها.

التي يسهل على أي يد تحرك القلم أن تأتي بها. أصدقائي الشعراء، أقولها لكم مخلصا: إن هذا عبث قبيح بالكبار. وأقبح ما فيه أن يأتي من جيل جديد له دعوى كبيرة نسمع عنها في الصحف، وهو على هذا التخلف المعيب في فهم الفنون والحياة. ولو أننا رأينا الاتجاه صحيحا، وأن الطريق الذي تسلكونه مهما كانت النظرة زائغة والنغم غير منسجم لتساهلنا، وكانت معالجتنا للموضوع غير هذه، غير أن الطريق من أوله خاطئ، وأن الفهم من أساسه غير صحيح، وأن هذا الطريق لا يؤدي أبدا. وإن الشيء الذي نسميه شعرا هو خلاف هذا في جملته وتفصيله، فمن شاء منكم فليرجع إلى نفسه يحاسبها، وينظر من جديد، ويقرأ ما يقول خلافه من الشعراء الفحول، وخاصة المعاصرين في أوروبا، ليرى في أي طريق تسير الأقدام، وأي عوالم يكتشف الفنان المعاصر، وأي المسائل يبحث النقاد، وأي (وعي فني) يجدر بالفنان الحي الذي يعيش في عالم الأحياء الشاعرين". راجع: معاوية محمد نور، أصدقائي الشعراء .. هذا لا يؤدي، مجلة (الرسالة)، بتاريخ 1934/10/22م.

8 معاوية محمد نور، الأعمال الأدبية الكاملة لمعاوية محمد نور، مرجع سابق ، ص279.

فهو القائل:" أستطيع أن أقول إن مكانة العربي إجمالا، من الشعر العالمي كمكانة الخطابة من القصة في الأدب الحديث، فالعربي بطبعه مادي - كما أكد ذلك الباحثون - ناريُّ الأسلوب، متوهج العاطفة، سريع الغضب، سريع الرضا، يقول فكرته وعاطفته في كلام عالي الرنين، فصيح الأسلوب، ملتهب الوجدان، وليست الروح العربية بالروح الغنية، ولا هي بالتي تعبأ بالخيال، بل ربما ازدرته وأنكرته " [9].

وهذه أحكام ربما يراها القارئ المنصف أحكاما وصفية سَلبية شديدة التعميم، وهي بالقطع لم تصدر إثر دراسات استقرائية، وليست معللة بحيثيات قوية، وربما اختلفت هذه الأحكام ، واتسمت بنوع من العدل، الذي يليق بناقد مقتدر كبير، لو اطلع صاحبها اطلاعا واسعا على تراث الشعر الجاهلي، وسجلات الشعر الإسلامي في أطواره الزمنية وبيئاته المكانية المختلفة، وربما صدرت أحكامه حينئذ شبيهة بما اعتمده في هذا الشأن الباحث المتأني المستقصي الصبور الدكتور عبد الله الطيب في كتابه التأسيسي الخالد (المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها).

وعسى أن يكون اطلاع معاوية المتسع على نتاجات الآداب الغربية، وتأثيراتها العميقة على ذائقته، هو الذي دفع به إلى التلبس بهذا الضرب من التحيز غير المستلطف، واجتراح هذا التجني الفادح على تراث الأدب العربي!

ولما أحسَّ معاوية بتحيزه هذا الفاضح أراد أن يتخذ له سندا من الموضوعية، فزلَّ وأفرط في الزلل، إذ زعم أن الثقافة الانجليزية هي الثقافة العالمية التي ساهم في صنعها البشر أجمعون، وبالتالي هي ثقافتهم أجمعين.

وقد ورد منه هذا القول في سياق جدال له على أحد المناوئين للغزو الأدبي الغربي، فقال في رده عليه:" نشر أديب فاضل ... مقالا أسماه[10] (هل نعيش في الأدب على موائد الغرب الى الأبد؟) عرض فيه لإعجاب الأدباء في مصر بالأدب الغربي، ثم قال إن ذلك الأدب مبيدٌ لروح الاستقلال والخلق في مصر، وإن الإعجاب به هو إعجاب أعمى. وأثار بذلك مسألة الأخذ من الثقافة الغربية، وكيف أننا نختلف عن الغربيين في المناخ والتقاليد الى آخر الأسباب المعروفة.

معاوية محمد نور، دراسات في الأدب الحديث، جمع وإعداد الطاهر محمد علي البشير، الدار السودانية، الخرطوم، 1970م، ص 117.

9

10 كلمة (أسمى) خطأ لغوي شائع، واللفظ الصحيح هو (سمَّى).

والذي استوقفنا في ذلك المقال نغمة خطرة، وفكرة خاطئة، نود أن نصحح النظر إليها، وأن نفهم المسألة على وجهها الصحيح.

فإذا سأل سائل كما سأل الأديب الفاضل: هل نعيش على موائد الأدب الغربي إلى الأبد؟ كان جوابنا كلا! ولا يمكن أن يكون غير ذلك جوابا.

ولكننا نسأل الكاتب الفاضل الذي أزعجنا بالحديث عن الحطيئة، وأمثاله من الشعراء، هل نعيش على أدب العرب إلى الأبد؟ ذلك ما أود الجواب عليه.

وليفهم حضرة الكاتب الفاضل أن الحديث عن الأدب العربي وفضله عن كل أدب وثقافة، هو حديث سطحي لا يدل على علم ولا بصر بحقيقة الأمور.

فليست هنالك حضارة غربية محضة أولا، ثم حضارة شرقية خالصة ثانيا. وليس من السهل أن نتكلم في شؤون الفكر والفن فنقول هذا لهذا وهذا لذاك!

وإنما الثقافة تراث إنساني ليس لإنجلترا أو النمسا أو الصين أن تستأثر به وتقول للآخذ منه هذا لي وليس لك فيه أي حق.

وأقل إلمام بتاريخ الفكر وتيارات الثقافة الإنسانية يدعم ما نقول. فما نسميه الآن ثقافة غربية هو في الأصل وواقع الأمر ليس كذلك، وإنما هو ثقافة إنسانية ساهم فيها الشرق والغرب، واشتركت فيها جميع الديانات والآداب والفلسفات والفنون.

فأنت ترى من هذا أن لكل شعب مشاركة فيما يسمى ثقافة غربية وأدبا غربيا، وأنه من حقنا نحن في مصر أن نطلع على الأدب الإنجليزي أو الألماني، وننتفع به في حفز قوانا الفكرية، كما تأخذ إيطاليا أو فرنسا من الثقافة الأنجلو - سكسونية، أو من الدين الشرقي، من غير أن تشعر أي واحدة منهما أنها تستعير، أو أنها عائشة على موائد الغير!

والثقافة حق مشاع، وليس لأي شعب أن يستأثر بها. وهي حق الإنسان وحق الإنسانية وصلت إليه بعد تاريخ طويل من التضحيات وقيام مدنيات وانهيار أخرى.

فإذا فرغنا من هذا الذي نقرر وددنا أن ننتقل إلى فكرة أخرى بديهية، ولكنها في مصر تحتاج الى تقرير وإثبات!

وهي أن الآداب في أي أمة من الأمم لا تنتعش ولا تثمر إلا تحت تأثير ثقافة أجنبية تحفزها.

هذا ما حصل في العصر العباسي، وما حصل في عصر النهضة الأوروبية، وما يحصل كل يوم بين كل الشعوب. وهو ما يحصل في مصر الآن وما نود أن يحصل بصورة أتم وأجلى.

فإن الأدب الغربي هو خلاصة جهاد طويل وثقافات متعددة عمل فيها الصقلُ، وأنضجها الزمن، و زكاها التاريخ. فليس غريبا:" أن نتغذى بما فيه من ثقافة وتهذيب"، كما يقول الكاتب، ولكن الغريب كل الغريب ألا نفعل"[11]!

وبالطبع فلم يكن السؤال مرفوعا عن مشروعية الانتفاع بما صلح وساغ الانتفاع به من آداب الأمم الأخرى، فهذا أمر بدهي لا خلاف عليه، وإنما ارتفع السؤال السؤال المشروع المهم، عن ضرورة التحلي بالتميز الثقافي القومي، والحذر من الاندغام في آداب الأمم الأخرى وثقافاتها.

وهنا يظن معاوية أن:" الثقافة حق مشاع، وليس لأي شعب أن يستأثر بها ". ويحاول أن يوهمنا أن هذا حق بدهي:" وأن أقل إلمام بتاريخ الفكر وتيارات الثقافة الإنسانية يدعم ما نقول ". هذا مع أن ما يقول به هو خلاف ما تقول به نظرية علم الاجتماع، التي تؤكد على خصوصية كل مجتمع من المجتمعات من حيث الثقافة، والآداب، والتقاليد، وأنماط الحياة.

وسبب ذلك أن ثقافة أي شعب من الشعوب إنما هي نتاج الاعتقادات والقيم والقواعد التي يقبلها ويعتنقها ويمتثِل إليها طواعية أفراد ذلك الشعب بشكل جماعي.

ولأن ثقافة أي شعب من الشعوب إنما هي الذَّوق الذي يتحلى به ذلك الشعب في مجال الإنسانيات، والاجتماعيات، والفنون الجميلة، والآداب.

ومصطلح الثقافة في أحد أبرز تعريفات النظرية الاجتماعية له هو: النموذج الموحد المتكامل لسلوك مجموعة بشرية أو مجتمع ما.

والثقافة في تعريف الدكتور معن زيادة هي:" أنماط السلوك المكتسبة التي يستعملها عضو المجتمع، والتي يتوقعها الآخرون منه، كما يتوقعها من الآخرين. إنها بشكل عام كل ما يختص به المجتمع، مما يفرق الإنسان عن

---

11 معاوية محمد نور، الأعمال الأدبية الكاملة لمعاوية محمد نور، مرجع سابق ، ص 40.

الحيوان، من لغة، ودِلالات، وأدب، وفن، وديانات، وعادات شعبية ومظاهر الحياة الاجتماعية "[12].

والثقافة بتعبير المحلل الحضاري مالك بن نبي هي:" مجموعة من الصفات الخلقية والقيم الاجتماعية، التي تؤثر في الفرد منذ ولادته، وتصبح لاشعوريا العلاقة التي تربط سلوكه بأسلوب الحياة في الوسط الذي ولد فيه " [13].
والثقافة كما يفيد هذا المحلل نفسه، عبارة عن المحيط الاجتماعي الذي يتحرك فيه الإنسان، ويتكون هذا المحيط من الألوان، والأنغام، والعادات، والتقاليد، والأشكال، والأوزان، والحركات، التي تطبع على حياة الفرد اتجاها وأسلوبا خاصا، يُقوِّي تصوره، ويُلهم عبقريته، ويغذِّي طاقاته الخلاقة.
وبناءً على هذا يمكن القول إن الثقافة هي قوة، وسلطة، توجِّه سلوك المجتمع، وتحدِّد لأفراده تصوراتهم للحقيقة، أي أسلوب تمييزهم بين ما هو حقيقي مما هو غير حقيقي من الأمور، وهذا ما ينطبق على أنواع التصورات الدينية بنحو خاص.
كما توجه الثقافة أفضليات الناس وأهواءهم، من نوع الطعام الذي يأكلون، ونوع الملابس التي يرتدون، والألعاب الرياضية التي يهوون، والموسيقى التي يعشقون، وغير ذلك من الأفضليات السلوكية في الحياة.
ومن هذا كله يتضح أن كل مجتمع من المجتمعات الإنسانية له نوع معين من التراث الثقافي، يسِمُه بميسمه الخاص، ويميزه عن المجتمعات الأخرى.
وبهذا تبطل الدعوى التي تقول بعالمية الثقافة الإنسانية، كما يقول أنصار العولمة الثقافية الآن، ويبطل القول بوحدة الثقافات، وعدم خصوصيتها، وعدم ارتباطها بأمة دون أخرى.
هذه الحقائق الاجتماعية الحضارية الكبيرة غفل عنها معاوية غفلة شديدة، وهو في أوج اندماجه عقليا وعاطفيا في التراث الأدبي للأمم الغربية، بل سوَّل له ذلك أن يرمق أدب أمته العربية بعين السخر والهزء.

---

[12] معن زيادة، معالم على طريق تحديث العقل العربي، عالم المعرفة، الكويت، 1987م، ص 45.
[13] مالك بن نبي، مشكلة الثقافة، ترجمة عبد الصبور شاهين، دار الفكر، دمشق، 1420هـ، ص 74.

وبهذا نلحظ أنه بينا كان معاوية داعية من دعاة رفض التبعية للغرب على المستوى السياسي والاقتصادي، فإنه ظل في دنيا الثقافة والأدب أحد دعاة التبعية والتغريب [14].

وقد تناول الأستاذ الكبير الطيب صالح هذه الناحية من نواحي الاهتمامات الأدبية لمعاوية بتحليل طريف، وتقويم منصف، فقال:" كان يلبس ربطة العنق المسماة (بيبون) وهي ربطة قليل من يلبسها حتى هذه الأيام، وكان حين يعود إلى السودان يقيم في (هوتيل) وهو أمر شاذ في عرف السودانيين إلى اليوم، وقد كان يلعب التنس في ملعب خاله، وقد أدهشني أن سودانيا كان عنده ملعب للتنس عام 1926م! وكان يلعب (البليارد) في (كلوب أم درمان). هذا إلى جانب أنه أحب فتاة (شقراء) عندها (فنوغراف) من نوع (صوت سيده). وكان يقرأ كانت، ونيتشة، وشوبنهور، وشللي، وبايرون، وهازلت، وفلاسفة وشعراء وكتاب كلهم أوروبيون، قليل من قرأهم حتى في أيامنا هذه، وكتاباته عن التراث العربي تشي بنوع من الاحتقار. أليست هذه إرهاصات لما يسميه إخواننا المغاربة (الاستلاب)؟

لو عاش حتى قرأ فرانز فانون لأدرك أن الاستعمار الذي كرهه وقاومه بفكره، كان ينفث سمومه في روحه من حيث لا يدري "[15].

وكان العالم الاجتماعي السوداني البروفسور عبد الغفار محمد أحمد قد أبدى رأيا عاما في هذا الصنف من المثقفين من أبناء المستعمرات، فقال:" فمثقف العالم الثالث الذي كونته لندن وباريس، على سبيل المثال، هو في أغلب الأحيان أوثق اتصالا بثقافة تلك البلدان من ثقافة الأرض التي نشأ فيها، ويتمثَّل بأسلوب حياة تلك الشعوب أكثر من التزامه بقيم وتقاليد وأسلوب حياة موطنه " [16].

غير أن مسلكا آخر مما أفضى إليه البروفسور عبد الغفار لا يطابق حالة الأستاذ معاوية، وهو قوله إن مثل هذا المثقف يتجه أحيانا إلى أخذ القشور من

---

[15] من تقديم الطيب صالح لكتاب: السني بانقا، معاوية محمد نور، مصدر سابق، 2002م، ص 20 – 21 .

[16] عبد الغفار محمد أحمد، السودان والوحدة في التنوع، دار جامعة الخرطوم للنشر، 1992م، ص 29.

الثقافة الأوروبية . ففي حالة هذا الكاتب السوداني الكبير نلاحظ أنه قد انتزع بلا ريب مُزعا ذات قيم عالية من لباب الثقافة الأدبية الغربية الحديثة.
ولعل من نواحي التأثير الضارة التي لحقت بمعاوية من جراء انغماسه العميق في بحور الآداب الأوروبية، أنه طفق - لاشعوريا - يتجاهل خصائص البيئة النفسية و(الدينية) للأدب العربي، بل للإنسان العربي نفسه، وهي خصائص تعصم الإنسان العربي المسلم من التهويم في عوالم المجهول المطلق التي يتيه فيها إنسان الغرب الحساس.
فلا وقع ولا أثر لدى الإنسان المسلم اللائذ بعقائد التوحيد الركينة، والمعتصم بأصولها الراسخة، لنزغات الشيطان الموروثة من الفلسفة و(المثيولوجيا) اليونانية القديمة، والتي ما تزال تنضج القصص الروائي الغربي، وتضفي على الشعر الغربي صفات الغموض الفِج والرمزية الكالحة.
إن ارتكاز معاوية على زاوية الرؤية الكونية الغربية، وتشبثه بالنزعة المسماة بـ (الإنسانوية) "Hummanism" [17] هو بلا شك أحد أسباب نكبته الأليمة.
فلما أخذت أوضاعه الاقتصادية والصحية والاجتماعية في التدهور بشكل مريع في القاهرة، لم يجد عاصما من روح دينية قوية، تحول بينه وبين الاضطراب الذهني والوقوع فريسة للبلابل والهواجس[18].

المبدأ المسمى بــ (الانسانوي)
17 "Hummanism"
ليس له تعريف منضبط، وتموج تيارات شتى في داخله، وبكثير من التعميم والتجاوز يمكن أن يقال إنه مبدأ يستبطن الاخلاص للروح والجهد الإنساني، لا سيما في مجالي الوجدان والثقافة والعلم التجريبي، مع الاعتقاد بأن الإنسان قادر من تلقاء نفسه على تطوير ذاته في تلك المجالي، والوصول عن طريقها إلى معرفة الحق الأسمى، والتسامي إليه، وتقرير المصير الإنساني في معركة الحياة من دون ما حاجة إلى إرشاد ديني علوي من أي نوع. ولهذا المبدأ (الانسانوى) جذور راسخة في الفلسفة الإغريقية القديمة، وهو المبدأ الذي تأكدت سيادته في الفكر الغربي الحديث في مجالات العلوم والفلسفة والأخلاق والقانون. ولا نظن أن معاوية كان مغاليا في اعتناق هذا المبدأ إلى هذا الحد القصي. وعلى كلٍ فهذا مبحث بكر نرجو أن ينبري له طالب فلسفة ذو ذائقة أدبية مرهفة ليقدم فيه نتائج مثمرة ينال بها درجة عليا في الدراسات الأكاديمية في النقد الأدبي أو الفلسفة.

18 قال الدكتور أحمد محمد البدوي، وهو يصف لمحة من حياة معاوية في هذه الفترة:" في ذات يوم خرج معاوية من (البنسيون) الذي كان يقيم فيه، ولم يكن يرتدي غير بيجامة

وما ألفى ملاذا ولا سلوى إلا في قيم الأدب الغربي ومُثله العليا، فطفق يعزي نفسه بالروائي الفرنسي إميل زولا الذي ما كان يبالي بعضة الجوع وهو يبدع فرائد الأدب!

ولكن آب معاوية في آخر عهده بالدنيا إلى إيمان ديني قوي، حدَّث به أستاذه إدوارد عطية، وقد استخرجه بنفسه من تلاوته وتأملاته في آي القرآن الكريم. وقد ذكر لأستاذه أنه وجد في كتاب الله الحكيم معاني كبارا لم يكن يفطن إليها من قبل.

ولا شك أن قدرات معاوية الأدبية التحليلية الراقية كانت خير معين له لاستبطان نصوص القرآن الكريم واستنباط العبر منها، غير أن ذلك كله ما جاء إلا في لحظات الغسق والاختلاط الذي أطبق علي حياته في نهايتها، حيث عصف به الردى واهتصر عوده الناضر وهو بعد في الميعة والريعان.

صدى موت معاوية في صحافة مصر

ولما كان معاوية معروفا معرفة كبيرة في الأوساط الأدبية المصرية، فقد اهتمت الصحف والمجلات هناك بنشر خبر وفاته الفاجعة.

ومثالا لذلك فقد نشرت مجلة (الرسالة)، كبرى المجلات الأدبية لعهده، خبر الوفاة بعنوان (المرحوم معاوية محمد نور)، بقلم الأستاذ محمد امين حسونة، جاء فيه:

" رزئ القطر الشقيق -السودان - بفقد المرحوم معاوية محمد نور، من أدباء الشباب المستنيرين، الذين قامت بفضل جهودهم الموفقة دعائم النهضة الفكرية الحديثة في مصر الجنوبية.

نوم، وظل يتردد في الشارع، الأمر الذي أثار اهتمام رجل الشرطة، فأخذ الأخير يمطره بوابل من الأسئلة، ومعاوية لا يرد عليه إلا بإنجليزية لا يفهمها رجل الشرطة، فما كان من الشرطي إلا أن يقتاد معاوية إلى أقرب مركز شرطة، وهناك جرت مناقشة اتضح من خلالها أن هذا الشاب السوداني يعاني توترات نفسية على درجة عالية، وعلى هذا فقد جرى نقله إلى مستشفى الأمراض العقلية بالعباسية، وهو نفس المستشفى الذي كان من بين نزلائه المجاهد الوطني الكبير علي عبد اللطيف". ويقول الدكتور البدوي إن العقاد عندما علم بما آل إليه حال صديقه معاوية بعث باحتجاج قوي إلى الحكومة المصرية بين لها فيه أهمية شخص معاوية. ونقل البدوي عن صديق آخر لمعاوية، هو الأستاذ عوض عقارب، أنه زاره بالمستشفي فألفاه صامتا يأكل قطعة خبز جافة ويحملق في الفضاء من حوله، مما دلَّ على حال الضيق والمسغبة التي لقيها هناك. راجع: أحمد محمد البدوي، تجليات ناقد الحداثة معاوية محمد نور، دار كيمبردج للنشر، 2012م، ص 44 - 46.

وقد تلاقيت مع المرحوم معاوية، لأول مرة، على صفحات جريدة (السياسة) الغراء، حوالى عام 192م، ثم توثقت بيننا عرى الألفة والزمالة، حين أسسنا جماعة الأدب القومي، التي كان يرأسها معالي الدكتور هيكل باشا، فجمعية العشرين التي أسسها الأستاذ محمود تيمور بك.

وكان الأستاذ معاوية قد تخرج حديثا في كلية غردون بالخرطوم، وأراد إتمام تعليمه في كلية الآداب، غير أنه صادف عقبات منعته من الالتحاق بالجامعة، واتصل النبأ بسمو الأمير عمر طوسون، فرأى أن يرسله في بعثةٍ خاصة، على نفقة سموه إلى الجامعة الأمريكية ببيروت [19]. وبعد أن نال إجازتها في الآداب، عاد إلى القاهرة، واتصل بالأوساط الأدبية، وزاول مهنة الصحافة، في صحفٍ شتى منها (الأهرام)، و(الهلال)، و(إجبشيان ميل)، وكتب على صفحات (الرسالة)، وساهم بقلمه في كافة الحركات الأدبية التي اضطلع الشباب بأعبائها .

وفي غضون تلك الفترة وقع الاختيار عليه ليكون سكرتيرا للغرفة التجارية، بالخرطوم، غير أن فاجعة أليمة وقعت له، وانتهت باختلال قواه العقلية.

وكان المرحوم معاوية، في كافة مراحل جهاده الأدبي، يتوق جهده إلى توثيق عرى الصداقة بين القطرين الشقيقين، ويقصر جهده على خدمة أمته عن طريق إذاعة أدبها القومي، فكتب بعض أقصيص سودانية لها صبغة محلية، وصور طبيعية بلاده في صور سحرية أخاذة، يساعده على ذلك ثقافته العربية والسكسونية.

---

[19] هذه المعلومة لا تصح فالأمير طوسون لم ينفق على دراسة معاوية ببيروت، وإنما تكفلت بذلك أسرته التي كانت مقتدرة على الانفاق. وقد تولى تصحيح هذا الأمر الأستاذ السُّبكي خالد، رحمه الله، إذ سارع فكتب لمجلة (الرسالة) الكلمة التالية:" قرأت في عدد (الرسالة) الغراء رقم 445 الكلمة الموجزة التي كتبها الأستاذ محمد أمين حسونة عن المرحوم معاوية، وإني عن أسرة الفقيد أشكر له هذا الشعور الكريم. غير أنه قد وقع فيها بعض الخطأ عن عهد دراسة الفقيد الجامعية إذ قال: إن معاوية بعد أن أكمل دراسته الثانوية بكلية غردون قصد إلى مصر للالتحاق بجامعتها وحالت بينه وبين الجامعة بعض الحوائل، ووصل ذلك إلى علم صاحب السمو الأمير عمر طوسون، فأرسله إلى الجامعة الأمريكية ببيروت على نفقته، وهذا الكلام لا يتفق والواقع. فإن الحقيقة أن معاوية أمضى دراسته في بيروت على نفقته الخاصة، وعلى نفقة أهله وذويه في السودان، وهم والحمد لله على خير ما يكون العبد الشاكر لنعمة ربه ". السُّبكي خالد، حول المرحوم معاوية محمد نور، (الرسالة)، 1942/2/16م، ص53.

وأطلعني قبل موته، على تجارب كتاب كان ينشر فصولا منه على صفحات (إجبشيان ميل)، بعنوان (الأدب المصري وتاريخه)، تناول فيه بالدراسة والبحث، مدارس التفكير في الأدب المصري وقادته، ثم أدب المقالة والنقد الأدبي، فخصائص الأدب القومي والشعروالقصة والمسرح، وأثر الجيل في كل حقل من حقوله. وكان غرضه من ذلك أن يقف الرأي العام الإنجليزي على تطور الأدب عامة والمصري خاصة [20].

وكان إيمانه بالأستاذ العقاد يفوق حد الوصف، فكتب بعض فصول حلل فيها أدبه، وارتباطه بشخصيته، وحلل شعره وأثره في البيئه المصرية.

أما أخلاقه فكانت على جانب من السمو. وقد عرف البؤس والفاقة، في بعض أويقات حياته، غير أنه لم يقاسهما مطلقا، بل كان يعمل، وكان سعيدا أن يرى الناس تفهمه وتقدر جهوده "[21].

مَن إدوارد عطية؟

وأما الأستاذ إدوارد سليم عطية صاحب هذه المذكرات عن معاوية، فهو أديب ومفكر عربي، انحدر من أسرة لها تاريخ طويل في خدمة الانجليز، وبأثر من ذلك تخلت الأسرة عن التزامها بمبادئ نحلتها الأرثوذكسية الشرقية النشأة، وتقمصت النحلة البروتستاتية الغربية المنشأ.

وقد ولد إدوارد في منطقة سوق الغرب، بلبنان، في عام 1903م، وفي نحو الثالثة من العمر لحق بأبيه بالسودان، وسكن بأحد أحياء أم درمان، حيث تعرف على البلاد جيدا في طفولته، ثم انقلب إلى مصر حيث تلقى تعليمه العام بكلية فكتوريا بالاسكندرية، ثم التحق بجامعة أكسفورد، التي نال إجازتها في التاريخ [22].

---

[20] وهو كتاب لا ندري ما مصيره، ويغلب على الظن أن تكون تجاربه التي أشير إليها وأمر نشره برمته قد تعطل بالمأساة التي لحقت بمعاوية في آخر أيامه، ولكن أصول الكتاب ما تزال، لحسن الحظ، محفوظة بمجلدات المجلة المذكورة، فيا حبذا أن تنتدب إحدى كليات الآداب بالسودان، أحد نجباء طلابها في الدراسات العليا، ممن يجيدون اللغة الإنجليزية، لكي يستخرج تلك النصوص الثمينة، ويحققها، ويعدها للنشر، وينال عليها استحقاقا درجة الماجستير في الأدب العربي.

[21] محمد أمين حسون، المرحوم معاوية محمد نور، (الرسالة)، بتاريخ 1942/1/1م، ص 53 .

[22] أحمد محمد البدوي، تجربة معاوية محمد نور في ضُوء أزمة إدوارد عطية، في كتاب: مقالات ودراسات مهداة إلى الدكتور صلاح الدين المنجد، مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، لندن، 2002م، ص 365.

وكان والده سليمان عطية يعمل طبيبا بأم درمان، ومن المهتمين بالرياضة، وأنشأ فيها فريقا لكرة القدم. وقد التحق إدوارد عطية بخدمة الحكومة السودانية، حيث عمل مدرسا بكلية غردون التذكارية، عقب تخرجه من أكسفورد، ثم أُلحق بمكتب الاتصال بديوان السكرتير الإداري، واستمر في خدمة الحكومة الانجليزية السودان لمدة عشرين سنة متصلة.
وعنه قال الصحفي السوداني، يحي محمد عبد القادر، وقد عاصره، إنه كان يهتم بعلاقاته مع شلل المتعلمين السودانيين، ويوظف تلك العلاقات لصالح الإدارة الاستعمارية:" وقد امتدت صلاته إلى بعض المبرزين من طلبة المدارس العالية، وكان يتيح لأولئك الذين حسن اتجاههم وتفكيرهم في نظره مقابلات دورية، مع سير دوغلاس نيوبولد، السكرتير الإداري، وقد وفقت خطته في ربط عدد من السودانيين، الذين لعبوا دورا خطيرا في تاريخ السودان بالبريطانيين "[23].
ولم يكن إدوارد عطية يحسن الحديث بالعربية الفصحى، إذ كانت ثقافته إنجليزية خالصة. يقول عنه الأستاذ يحي عبد القادر:" وقد شهدته يحاضر بالعربية في نادي الخريجين عن فن الحياة، فلم أعرف فيه عربيا يتكلم العربية، وإن كان لم يبلغ حدا يقال فيه إنه أشبه بالانجليزي الذي يتكلم العربية. لقد كانت عاميته العربية جيدة، ولكن فصحاه لم تكن جيدة، وإن كانت مقبولة إذا عُنِي بها وصقلها وأعطاها بعض وقته "[24].
وقد أسهم إدوارد عطية، بجانب عمله التدريسي والاستخباري، في تأسيس إذاعة (هنا أمدرمان) لخدمة أغراض الدعاية، في سنوات الحرب العالمية الثانية.
وعمل غُبَّ خروجه من السودان في عام 1945م سكرتيرا لجامعة الدول العربية بلندن، كما عمل لدى هيئة الإذاعة البريطانية، وقدم مواد ثقافية وسياسية في خدمة تلفاز تلك الهيئة، وكتب كتابا آخر في تجربة حياته سماه:
(The Thin Line)
وهو الكتاب الذي تحول على يد المخرج الفرنسي كلود جايرول إلى فيلم سينمائي.

---

[23] يحي محمد عبد القادر، على هامش الأحداث في السودان، الدارالسودانية للكتب، الخرطوم، د.ت.ص 65- 66.
[24] المصدر السابق، ص 67.

وتوفي إدوارد عطية في عام 1964م، عندما كان يتجاذب أطراف الحديث مع أصدقائه بأحد مقاهي لندن[25].

وقد ألف أكثر من عشرة كتب بجانب سيرته الذاتية التي ننقل عنها هذه المعلومات عن معاوية نور [26].

شهادة إدوارد عطية

إن شهادة إدوارد عطية (1903 - 1964م)، في هذا النص، عن تلميذه معاوية محمد نور (1909 - 1941م)، هي بلا ريب أعمق الشهادات بشأنه وأكثرها تفصيلا واتزانا، إذ إنها صيغت في نهج نقدي دقيق خالص، ولم يجنح صاحبها إلى محض الثناء والاحتفال مثل كثير ممن تحدثوا عن معاوية. ولا شك أن الأستاذ، أي أستاذ، هو خير من يخبر عن تلميذه، لا سيما التلميذ البار، الذي يحافظ على علاقته بأستاذه إلى خواتيم العمر.

استنادا إلى مصدر مختلف ذكر الدكتور البدوي أن عطية:" توفي وهو يشارك في مناظرة عن القضية الفلسطينية عام 1964م، أقيمت بدار اتحاد الطلاب في جامعة اكسفورد، كان يتحدث وربما بانفعال، فداهمته نوبة قلبية، حُمل من جرائها إلى المستشفى، ولكنه فارق الحياة بعد لحظات قليلة". أحمد محمد البدوي، إدوارد عطية، صحيفة (الحياة)، بتاريخ 8 نوفمبر، 1999م.

[25].

من مؤلفاته الأخرى:

-Black Vanguard : Peter Davies: London, UK, 1952.

- Lebanon Paradise. A novel, London: Peter Davies 1953.

- The Arabs: the Origins, Present Conditions, and Prospects of the Arab World, A Pelican Book, 1955.

- The Crime of Julian Masters, Robert Hale, London 1959.

- The Eagle Flies from England, Robert Hale, London 1960.

- Donkey From the Mountains, Robert Hale, London 1961.

- The Cruel Fire Doubleday Crime Club Selection, Doubleday, Garden City, NY,1962.

[26]

ولشهادة عطية جانب مهم آخر، وهو أن صاحبها كان يعمل علاوة على أستاذيته بكلية غوردون، في بعض أعمال الاستخبارات للحكومة الإنجليزية في السودان. ثم خلف عمه صمويل عطية في رئاسة قلم الاستخبارات، وبقي في ذلك المنصب إلى أن خرج من السودان في أعقاب الحرب العالمية الثانية.
وقد أكسبته مهنته (الاستخبارية) بعدا أوسع في تحليل شخصية معاوية أديبا ومفكرا وطنيا في آن. وإذن فمستوى التناول والتحليل لدى إدوارد عطية، كان أرفع وأرحب بكثير مما لدى من كتبوا عن معاوية من بعده، حيث جاءت كتاباتهم اجتزائية إلى حد كبير.

شهادة رشيد عثمان خالد

وثمة مصدر آخر للكتابة عن معاوية، وتقدير مكانته الإبداعية والنقدية، حيث كتب عنه ابن أخته، الأستاذ رشيد عثمان خالد، في عام 1964م، مقدمة ضافية، صدَّر بها المجموعة القيمة التي جمعها من آثار معاوية، من بطون الصحف والمجلات المصرية.
وقد كان رشيد مرجوا أن يكون أصيلا في كتابته عن معاوية، بحكم قرابته به أولا، ثم بحكم إقامته لدهر مقدر بمصر، حيث كان بمُكْنته أن يستنطق معاصري معاوية، ويستقي أخباره ومآثره من أفواههم، وأخيرا بحكم اقتداره الأدبي، الذي تبين جليا من ديباجته النثرية الناصعة التي رقش بها المقدمة.
ولكن عوضا عن ذلك، اتجه الأستاذ رشيد عثمان خالد اتجاها مشينا، حيث عمد إلى انتهاب ملاحظات إدوارد عطية وآرائه، ودسها في ثنايا مقدمته، لتبدو وكأنها من إنشائه الخاص.
ولعله ظن - مخطئا - أن كتاب إدوارد عطية لن يقع في يد أحد من المعجبين بشخص معاوية، والمتتبعين لآثاره الفكرية والأدبية، فيفضح صنيعه هذا الشنيع[27]!
وحيث لا يتسع المجال لتتبع تلك الخُلَس جميعا، فبحسبنا أن نشير إلى بعضها، تاركين بقيتها، لمن شاء أن يقوم بنفسه بموازنة هذا النص الذي ترجمناه، بنص الأستاذ رشيد عثمان خالد، رحمه الله.

---

[27] كتبنا هذا حين نقلنا هذا النص إلى العربية قبل نحو عشرة أعوام، أما الآن فنميل إلى أن كاتب هذه المقدمة هو الدكتور (م. خ.) الذي صاغها ثم وهبها أو عزاها إلى الأستاذ رشيد، وأما الأستاذ رشيد فهو شخص لا يكاد يعرف عنه شيء في عالم الأدب العربي، لا في السودان ولا في خارجه، ولا تؤثر عنه نصوص أدبية مميزة.

فقد درج الأستاذ رشيد على دمج كلام إدوارد عطية في كلامه، دون أن يشير أدنى إشارة، إلى المصدر الذي أخذ عنه، وكانت تلك هي خطته العامة في النقل.
كما قام، في بعض الأحيان باجتزاء عبارات عطية، ثم بنى عليها تفصيلات أكثر.
وفي أحيان أخر، أخذ كلام عطية، كما هو، من دون تبديل قليل ولا كثير، ثم نسبه إلى نفسه وكأنه قائله الأصيل!
مثال الخطة الأولى - وهي الخطة العامة للنقل عند الأستاذ رشيد - هو ما فى شاكلة هذا الفقرة التي يقول فيها:" ولنتصور هذا الفتى الذي يفيض تطلعا وطموحا يعيش في أم درمان، وحوله أمه، وعماته، وخالاته، وكلهن محجبات، عقولهن لا تعي من الحياة إلا مفاهيمها الأولية، والتي كانت لا تخرج عن نطاق العائلة، وتقاليدها، ونواميسها، مثل الزواج، والطلاق، والحمل، والموت، والحزن، والتزين ... ويقضين بقية ساعاتهن في اجترار الأساطير والخرافات ... لنتصوره وسط بيئة كهذه، وقد علقت بروحه، واستبدت بوجدانه أفكار جين أوستن، وتوماس هيكسلي، وغيرهما من مفكرى القرن الثامن عشر ... في الوقت ذاته الذي كانت تهب فيه عليه رياح القرن العشرين، من إنجلترا، تحمل آداب وأفكار كتابها ... أي تباين ... وأي بون شاسع!"[28]. فهي مجرد ترجمة رشيقة ورائعة لكلام إدوارد عطية، الذي يجده القارئ ملحقا بكامله بنهاية هذا الكتاب.
وتتمثل خطة الأستاذ رشيد في اجتزاء أقوال إدوارد عطية والبناء عليها بإضافات جديدة في شاكلة قوله:" وكان الشاب الأسمر بابتسامته المرحة وعينيه الوهاجتين، ومثاليته القويمة، وحبه العنيف للأدب، وثقافته، وسعة اطلاعه، وغزارة نتاجه ... كان هذا الشاب شيئا جديدا على الأوساط الأدبية في القاهرة، وظاهرة جعلت أدباء القاهرة ومفكريها يناقشون كنهها في صالوناتهم وندواتهم، ولقد لفت نظر فقيد الفكر العربي الأستاذ عباس محمود العقاد، فأدناه منه وقربه إليه، وكان يجد إمتاعا لا يعادله إمتاع في مناظرته ومناقشته في شتى الموضوعات الأدبية.
وإنني لأكاد أرى، عبر الأيام، تلك الحسرة التي علت محيا أستاذنا العملاق العقاد، حين عرج بنا الحديث إلى ذكرى معاوية - وكنت قصدته في داره بمصر الجديدة ابتغاء رجائه كي يقدم لهذا الكتاب بقلمه - ... أقول أكاد أتمثل

---

[28] المصدر السابق، ص11.

الحسرة، والنغمة الآسية الحزينة، التي تحدث بها أستاذنا العقاد، عن الخسارة التي حاقت بأدبنا المعاصر، بفقدان معاوية " [29].

وهنا أخذ الأستاذ رشيد عدة أسطر، من حديث عطية، عن تفوق معاوية بالقاهرة، ثم أضاف إليها حديث العقاد إليه، بشأن معاوية، بمناسبة إصداره لمجموعة مقالاته النقدية الجميلة.

وأما مثال اقتطاع كلام عطية، بنصه وفصه، ومن ثم انتحاله، فقد ورد في هذه العبارة التي تحدث فيها الأستاذ رشيد بضمير القائل:" ولعلنا لا نركن إلى المغالاة، إذا ذهبنا إلى القول بأن معاوية كان أول سوداني يتصل اتصالا حقيقيا بروح الغرب وأدب الغرب " [30].

وهي ترجمة واضحة لعبارة إدوارد عطية التي أصلها:

“Moawiya was the first Sudanese to make real contact with the spirit of the West.” [31]

فهذه تصرفات غير كريمة، وغير لائقة بمناهج تاريخ الأدب وطرائق توثيقه، وما كان أغنى الأستاذ رشيد عن ذلك المأتى، وما كان بضائره شيئا، أن يشير إلى المصدر، الذي استلَّ منه تلك الأقوال، فهو مصدر عالٍ، يشرف كل باحث أن يستدل به، ويأخذ عنه.

ولو امتثل الأستاذ رشيد لدواعي الأمانة العلمية، وذكر المصدر الذي أخذ عنه في مقدمته، لكان قد أفاد الباحثين عن تاريخ معاوية، وتحليل شخصيته الأدبية، بفائدة جلى، وَوَقَفهم على مصدر يُعدُّ، بلغة مناهج البحث، مصدرا أساسيا أصيلا في الموضوع، وإذن لما تأخرت ترجمة هذا المصدر إلى لغة الضاد لهذا الحين.

ملاحظات عن ترجمتنا للنص إلى العربية

وننبه الآن أننا عمدنا في ترجمة النص المأخوذ عن هذا المصدر، إلى تفادي الترجمة الحرفية، التي قد تورط في الركاكة، وسوء الفهم.

ومع ذلك فإننا لم نبتعد عن المضمون الدقيق للنص الأصلي، إذ لم نُقوِّل المؤلف، إدوارد عطية، شيئا لم يقله،ولم نحذف مما قاله شيئا ذا بال.

وقد كانت لغة النص الإنجليزية رفيعة حقا، واحتشدت بكثير من الرموز والمجازات الأدبية، وبدهي أن ترجمة المجاز ترجمة مباشرة، ليست من الفطنة ولا الحصافة في شئ، وهذا هو الموطن الذي لجأنا إلى التصرف فيه تصرفا هينا محتاطا.

---

[29] المصدر السابق، ص11.

[30] المصدر السابق، ص 8.

[31] Edward Atiyah, An Arab Tells His Story, Ibid, p. 42.

ولمزيد من الاحتراس، فقد حرصنا على إلحاق النص الإنجليزي الأصلي، بهذه النشرة العربية له.

فمن أراد أحدهما أو كليهما وجد بغيته بإذن الله تعالى.

هذا وما كان من خطأ في هذه الترجمة، أو التقدمة، فهو مني ومن الشيطان الرجيم.

وما ورد من الصواب فبهدي الله سبحانه تعالى العليم الحكيم، وبتوفيقه جلَّ وعلا.

وهو سبحانه وتعالى المستعان.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

الفصل الثاني
سيرة معاوية محمد نور

الفصل الثاني
سيرة معاوية محمد نور
بقلم: إدوارد عطية

في رحاب كلية غوردون

وجدت بعملي في التدريس، بكلية غوردون التذكارية، كثيرا من العزاء والسلوى.

لقد أحببت تلاميذي كثيرا، وأحسست أنهم قد أحبوني كذلك. كانوا في معظمهم ودودين ودائمي الابتسام، وأنيقين في هندامهم، الذي كان يتكون من جلابية بيضاء وعمامة.

وهؤلاء التلاميذ انحدروا من أسر الفلاحين، وموظفي الحكومة، وأصحاب الحرف الصغيرة، وبعضهم كانوا من أبناء شيوخ القبائل.

ولكن الذي جمع بينهم طرا هو تخلفهم في تعلم اللغة الإنجليزية، وضآلة معلوماتهم العامة.

ولكنهم عوضوا عن ذلك، أحسن تعويض، بنقاء طبائعهم، وعفْوية سلوكهم، وحماستهم، وجدية عقولهم.

آباء أولئك الطلاب، وأجدادهم، كانوا حتى قبل ثلاثين عاما، من الحين الذى أكتب فيه، ما يزالون يحيون حياتهم التقليدية، غير متأثرين بأي مؤثر خارجي على الإطلاق.

كانوا بل ما زالوا يجدفون في النيل، على قوارب من طراز العصر الفرعوني، ويسقون غروسهم بسواقٍ من صنعة ذلك العصر التليد.

ولكن هاهم أولاء أبناؤهم يتلقون الآن تعليما نظاميا شبيها بالتعليم الذي يقدم في مدارس إنجلترا، ويتعرضون لسطوة الفكر الغربي، ولنماذج التحديث في الدول الشرقية الأكثر تقدما من السودان.

وبِسِوى الكتب والمدرسين الإنجليز، فقد كان ثمة مؤثر قوى آخر، مثلته الصحافة المصرية، الأسبوعية منها واليومية. حيث كان بريدها يشقُّ طريقه، مرتين في الأسبوع الواحد إلى الخرطوم، ويزود ناشئة الطلاب السودانيين، بأخبار العالم قاطبة، وأخبار الدول الشرقية خاصة، وأخبار التطورات السياسية في مصر على وجه الخصوص.

وبهذا أضحى الطلاب السودانيون يصغون إلى سماع أخبار الهند، ويتلهفون إلى معرفة مصائر زعيمها المهاتما غاندي، وما إذا كان رهن السجن ساعتها

أم طليق السراح، ويتابعون تحركات الغازي مصطفى كمال أتاتورك في أرجاء البلقان، وجهاد الملك عبد العزيز بن سعود في توحيد الجزيرة العربية، ويقرأون بشغف المقالات السياسية الوطنية النارية التي تفضح الأطماع الغربية وتشجب المخططات الامبريالية.

وبجانب ذلك، كانوا يتابعون تفاصيل الأخبار الرياضية على محيط العالم أجمع، ويلاحقون سير مشاهير نجوم السينما ويتتبعون أخبارهم، ويطلعون على آخر القصص الصغيرة من إبداع قلم جي . دى. موباسان، ويتدبرون الانتقادات الفلسفية الصارخة لفريدريك نتشه، ويستمتعون بالتعليقات الأدبية الساخرة لبرنارد شو، وتدهشهم أحدث الاختراعات والعجائب الميكانيكية الحديثة وآخر التقارير عن سرعة الإنجاز.

ودأب أولئك الطلاب على قراءة المقالات، التى تكتب عن أصول المبادئ الديموقراطية والاشتراكية، ومتابعة أعمال هيئة عصبة الأمم، لاسيما على صعيد نزع السلاح. وكانوا وهم يرقبون تلك التطورات كلها يدرجونها في أذهانهم في إطار نهضة الشرق، وتفتح الطموحات القومية المشروعة لأمم كبيرة، منها مصر، وتركيا، وسوريا، وفلسطين، والجزيرة العربية، والهند، والصين.

في ذلك الحين، كان السودان قد نال مقدما حظه المؤسف من الانتفاض القومي، بأثر من فعل الموجة الأولى للثورة العربية، حيث قام نفر من الجيل المتعلم الأول بتنظيم ثورة تطالب باستقلال السودان ووحدته مع مصر.

جاءت الثورة من جانب طرف صغير، من طبقة الانتلجنسيا السودانية التي كانت هي بدورها صغيرة الحجم.

وامتد أثر الثورة إلى بعض المدن وإلى بعض الوحدات العسكرية، وقابلتها الحكومة الإنجليزية بمنتهى الحزم والصرامة، فحطمت التنظيم الناشئ، ومست قياداته بعقوبات أليمة قاسية، ثم عملت على تقليص النفوذ المصري وإبعاده عن السودان لعدة سنوات تلت الثورة.

كانت الثورة بمجملها حركة غير ناضجة ، وبدت كانطلاق مفاجئ لمشاعر ظلت تعتمل طويلا في طي الكتمان.

حدث ذلك في عام 1924م، وعندما قدمت إلى السودان، في عام 1926م كان القطر قد عمه الهدوء، وساد الإذعان الظاهري في أوساط الطلاب، هذا بينما ظلت مشاعرهم تختمر وتعتكر تحت السطح. وكانت حوائط السجن التقليدي الذي يعيشون فيه قد تخللتها فتحات وطاقات سمحت لهم بتسمُّع ما كان يدور في العالم الخارجي من ضجيج.

وهكذا صدرت عن الطلاب الأوسع خيالا من غيرهم استجابات أقوى حيال تلك المحفِّزات الخارجية.
جاءت تلك الاستجابات في صور معقدة ومتناقضة من العواطف: إعجاب بالعالم الخارجي، وما احتازه من ثروة ضخمة، وقوة مهولة، ومعارف ومهارات وسرعة، ونشوة وإثارة بالوقوف إزاء كل ذلك والاحتكاك به، ولو عن بعد وعلى نحو سَلبي في البدء، كما هو المعتاد. ثم حنق وشفقة على قطرهم الذي أخنت عليه صروف الدهر، وكبلته بأصفاد الفقر والجهل.
وأحاسيس بالضآلة، وعُقد التعصب التي فجَّرت في حالات كثيرة مشاعر إيجابية لدى أشخاص، ذوي تصميم عال، فظنوا أنهم بطريقهم إلى اللحاق بالعصر الحديث، طالما أنهم قد بدأوا مشوار التحصيل العلمي، على الطريقة الغربية.
وساد إحساس قوي لدى أولئك الطلاب بأن العالم الحديث، الذي أخذوا ينتمون إليه عن طريق التعليم الغربي، سيكون مهيمنا على بلادهم وعلى البلاد الشرقية جميعا. وأنه كلما ازدادت قوة الغرب ازداد خضوع العالم الشرقي له.
ولكن هاهو الشرق قد بدأ ينتفض ويتحرك ضد الغرب، وهم جزء من ذلك الشرق في أشواقه وآماله قاطبة.
بقي إحساس أولئك الطلاب بانتمائهم للشرق عربيا لا شائبة للإفريقية فيه.
وهو إحساس ظل يمنحهم ملاذا من الضيق، وملجأ للراحة النفسية، إذ إنهم شركاء للعرب في انتفاضهم للجد والمجد من جديد.
ولكن لما لم يجدوا بوادر جدية لنهضة العرب، فقد غدوا يلتمسون موئلا تليدا في المجد الحضاري التاريخي للأمة العربية، وجعلوا في خواطرهم يتساءلون: وماذا لو أصبح النصارى الأوربيون سادة العالم في هذا العصر؟!
ألم يكن العرب أقوياء مثلهم في القديم عندما انبعثوا بروح نبيهم محمد[32]؟!
وبدفعة الإيمان الذي جاء به اكتسحوا الدول النصرانية، وحملوا هلال النصر إلى ما وراء مضيق البسفور؟!
ألم يكن أولئك العرب الأمجاد سادة الدنيا ومعلمي البشر، يوم كان الأوربيون يغطون في دياجي العصور الوسطى؟!
ألم يقم العرب المتحضرون بترجمة كتب أرسطو إلى لغتهم، وحفظوها من الضياع، إلى أن آن أوان النهضة الغربية المعاصرة، فسلموا الغربيين تراثهم المجيد من جديد؟!

[32] صلى الله عليه وسلم.

كان ذلك مبعث سلوى عميقة لطلاب كلية غوردون التذكارية الذين شهدتهم، ولكن ما كان أعظم من كل ذلك بدون أدنى شك أو جدال، هو اعتقادهم الصميمى بأنهم أتباع ديانة النبي محمد[33]، وقراء كتاب الله، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

وبامتلاكهم تلك المعرفة الدينية الوثيقة لم يساورهم أدنى شك، بأنهم متفوقون من هذه الناحية على العالم الأوروبي النصرانى. ذلك حتى لو كان الله تعالى، قد سمح لسبب أو لآخر، لهؤلاء الأوربيين النصارى أن يتفوقوا تفوقا نوعيا على المسلمين، من ناحية امتلاك القوى المادية وتسخيرها.

لقد كان اعتزاز طلاب كلية غوردون بامتلاكهم للمصدر الصحيح للمعرفة الدينية، بمثابة صخرة عظيمة صلدة استندوا إليها، وحالت بينهم وبين الهزيمة الفكرية والتقهقر الروحي.

وما دام الأمر كذلك فقد كان من المتوقع أن يستمر صمودهم وتدوم مواجهتهم للعالم بأكمله مسلحين بذلك الاستعلاء الإيماني الكبير.

ولكن الأمر لم يدم على ذلك طويلا، إذ سرعان ما بدت بوادر الفتنة والخديعة الثقافية والبلبلة الفكرية العظيمة تشقُّ طريقها في أوساطهم.

ما طال بي العهدُ حتى أخذت تُخايل لي مظاهر ردود الفعل وسط الطلاب السودانيين تجاه الفكر الوافد، وأخذت من ثَمَّ أُعمل فيها أدوات التحليل، والموازنة، والاستنتاج.

بدت لي تلك المظاهر ذات شبه واضح بمواقفي النفسية السابقة، عندما كنت صبيا يافعا أتلقى دراساتي الأولى بمدارس التعليم الأوربية ببلدي سوريا.

إن التمجيد المبالغ فيه لمآثر العرب القدامى من قبل الطلاب السودانيين بدا لي شبيها بعبادة نصارى العرب لبطولات الأوربيين المحدثين، وهم يصاولون الإمبراطورية العثمانية التي كانت تتحكم في ديار الشام.

هذا الضرب من السلوى ذاته الذي اتخذه نصارى الشام من خلال انتسابهم للدين الذي يدين به الأوربيون، استند إليه المسلمون السودانيون الذين كانوا يرزحون تحت حكم النصارى الأوربيين، ولكن من خلال انتسابهم للعرب القدامى ولتاريخ الحضارة الإسلامية.

وبصفتي ابنا بارا من خريجي كلية فكتوريا بالإسكندرية، وحواريا مؤمنا بفكر وتوجيهات أستاذي ريد "Reed" الذي تلقيت عليه العلم هناك، فقد قدِمت إلى كلية غوردون التذكارية، وأنا عاقد عزمي على أن أوثق علاقاتي

[33] صلى الله عليه وسلم.

من الناحية الإنسانية بطلابي، وأن أطبق فيها مثاليات مهنة التدريس وفضائل التواصل الإنساني التي اكتسبتها خلال اجتيازي لمراحل التعليم العام.

ومما زاد من عزمي على إمضاء تلك الخطة الإنسانية العامرة ذلك الجو المكفهر الكالح الذي وجدته يَعمُّ أوساط كلية غوردون في ذلك الأوان.

فقد اتسمت علاقات الطلاب بأساتذتهم في الكلية بالصفة العسكرية شديدة الصرامة، فزاد ذلك من عطفي على الطلاب. لقد اتصف الأساتذة الإنجليز بصفات العجرفة والمبالغة في الجفاء والترفع والأنفة، فدفع بي ذلك إلى أن اشتد في التقرب إلى الطلاب السودانيين.

ولم أكن لأبالي في سبيل ذلك بما لقيته من ضعف الاحترام من قبل الأساتذة الإنجليز، الذين ما كانوا يريدونني أنا الأبيض البَشرة مثلهم أن أتقرب إلى جموع الطلاب السُّود.

حدا بي ذلك إلى أن أفكر على نحو آخر. إنني باقترابي من عقول طلابي، وإشعارهم بأني صديقهم، مثلما أنى أستاذهم، ونيْلى من ثَمَّ ثقتهم وتعاطفهم، سأتمكن من التأثير عليهم بأعمق مما يستطيع الأساتذة الإنجليز، وذلك بالرغم مما لهم من سلطة وسطوة وقوة ظاهرة.

وسرعان ما بان لي أن النتائج التي حققتها عن طريق تلك الخطوة أفضل تعويض نفسي كسبته عن الوضعية المكتبية المنقوصة التي ظل الأساتذة الإنجليز يحبسونني عليها.

الشبل الواعد

وأما أبرز طلابي السودانيين هناك، على الإطلاق، فقد كان الشبل الواعد، معاوية محمد نور، وهو الفتى الذى جاء أداؤه الفكري اللاحق بمستوى متفوق مذهل، غير معهود في تلك البلاد وما جاورها، وانتهى أمره نهاية مذهلة كذلك في مواجعها وانكسافها.

كان فتىً ناحل العود، حسن المنظر، بلغ من العمر ثمانية عشر عاما حينما التقيته أول مرة، وهو طالب في السنة النهائية بالكلية.

ولقد جذب انتباهي منذ اليوم الأول، حينما رأيته يستشهد بمقتطفات من كتابات برنارد شو وأناتول فرانس، ولقد حسبته، بادي الرأي، أحد المتحذلقين الذين يستعرضون بضاعة مزجاة من المعارف السطحية، ولكن لدهشتي العظيمة، فإني لما عجمت عوده ألفيت أن معرفته بآراء ذينك الكاتبين عميقة حقا، وتستند إلى قدرة عقلية ونقدية كبيرة.

انحدر معاوية من أسرة قديمة مرموقة، تنتسب إلى أصول عربية. وقد اعتلى جده مكانا عليا في حكم المهدي، وعمل أحد أعمامه قاضيا في العهد الإنجليزي. وبسبب من تبريزه الكبير، في طليعة جيله، فقد تم اختيار الفتى

معاوية، بواسطة سلطات الكلية، للعمل في المجال الطبي. ومنح قَبولا مجانيا بمدرسة كتشنر الطبية، التي كانت قد أنشئت قبل فترة قصيرة، وخُصَّ بالقبول بها أذكى طلاب كلية غوردون وأبرعهم في الاستجابة لمطالب التعلم.
ولكن ميول الفتى لم تكن لتنسجم مع ذلك الخيار الأكاديمي والمهني الرفيع في شئ. إذ لم يكن يعدل بميوله الأدبية الأصيلة أي لون آخر من ألوان الدراسة، حتى ولو كان ذلك هو درس الطب الذي بإمكانه أن يلبي له ولأي طالب سوداني آخر أقصى ما يشطح إليه من الأماني، وهو الحصول على وظيفة دائمة طبيبا في خدمة الحكومة.
وربما كان معاوية هو الوحيد في جيله، الذي لم يَعُدْ التعليم بالنسبة إليه مجرد باب يقود إلى الوظيفة الحكومية، وما برح يتطلع إلى التعليم من أجل نيل المعرفة وحسب. وظل مع هواه القديم في دراسة الأدب الإنجليزي، غير أنه لم تكن ببلاده جامعة تقدم مقررات منتظمة في ذلك المساق. وهكذا كانت دراسته لذلك اللون من الأدب الذي يشتهيه ستنقطع بعد إنهائه لتعليمه بكلية غوردون.
وعند مغادرته الكلية انحصر خياراه في أن يصبح موظفا حكوميا صغيرا في السلك الكتابي، أو أن ينخرط في دراسة الطب بمدرسة كتشنر الطبية. وذلك بعد أن انهار خيار ثالث بقرار سلطات كلية غوردون أن خريجها المرموق معاوية لا يصلح أن يصير ناظر مدرسة في مقبل أيامه.
وإزاء إصراره على عدم قَبول المنحة المجانية لدراسة الطب ظن به الناس الجنون. إذ كيف يضيع على نفسه تلك الفرصة النادرة التي ترفرف بأحلام أترابه في أن يصبحوا أطباء يشار إليهم بالبنان.
كان الفتى في هذا الموقف المتأبِّي العجيب ظاهرة لم يشهدها السودان من قبل. لقد نجم موقفه المركب البالغ التعقيد عن أعماق خصائصه الوراثية، ثم انبعث إلى بيئة ثقافية وحضارية غير مواتية. ومهما يكن فقد وافق أخيرا على مضض على أن يجرب حظه في دراسة الطب.
ولكن قبل ذلك بكثير، كان قلب الفتى قد توجه تلقاء ناحية قَصِيِّة. إذ استولت على لبِّه دراسة الأدب الإنجليزي، وهفا قلبه نحو الغرب. إن معاوية هو، بلا أدنى ريب، أول سوداني يحقق اتصالا عقليا وثيقا بروح الغرب على هذا النحو.
هذا الفتى العربي الإفريقي اليافع، الذي لم يكن حينها قد عبر حدود السودان قط، والذي قضى سالف عمره، يعيش في باحة بيت عتيقة، ما تمكنت نساؤه من نيل تعليم من أي نوع أو مستوى، ولا من مجرد إجادة القراءة، ولو في اللغة العربية، وجد له بيتا روحيا في قلاع الأدب الإنجليزي الشامخة!

وحالة معاناته تلك كانت شبيهة بتجربتي الخاصة في هذا المسار. ولكن حالته مع ذلك كانت أشد إغرابا من ناحية، وأكثر إمعانا في التطرف من ناحية أخرى.

إن الفوارق بين ملجئه الروحي والتربة التي درج عليها، أو بين وطنه وأسرته والتقاليد التي انتمى إليها، وبين العالم النائي غير المرئي، الذي ظل يتصل به بقوة عن طريق نشاطه الذهني الماضي، وعاطفته الروحية الفياضة، كانت فوارق حادة بكل معنى، وأشد حدة من تلك التي عبرتها أنا بكثير.

تجسمت الفوارق في أن معاوية مسلم الديانة، وأسود البشرة، ولم يكن عربيا فقط، وإنما عربيا داكن اللون، وأما بلاده فلم تتمتع بثقافة حقيقية أصيلة، وإنما بنماذج ثقافية ضيقة، اشتقت من التقاليد الإسلامية، في أوان انحطاط الحضارة الإسلامية التاريخية.

ولتقريب صورة الوضعية التي عاش معاوية في ظلها، ولكي نتصور حجم الخليج الهائل الذي كان يحاول أن يعبره، تصور وجوده في صميم منزل أسرته بأم درمان، محاطا بأمه، وعماته، وخالاته، وأخواته، وبنات عماته وخالاته، اللائي حيل بينهن وبين مجتمع الرجال، ولم ينظرن قط إلى رجل غريب، ولبثن طوال أعمارهن يرزحن في قيود الجهل والأمية، ولم تتسع أذهانهن ولا تجاربهن لشئ، وراء حقائق الحياة (البيولوجية) ومتطلباتها الصِّرف، كالإنجاب، والختان، والزواج، والحمل، والطلاق، والموت، والنياحة، والطبخ، والزينة.

تصور شُخُوصه ماديا في وسط كذلك، وهو منصرف عنه ذهنيا بالكلية، وهو يقرأ بينهم بنهم بالغ الفصول الشائقة من أدب جين أوستن، وألدوس هكسلي، ويتنفس الهواء الفكري الطلق، هواء القرن العشرين!

لقد شعرت بتعاطف عميق معه، أحسَّ به وبادله بأن منحني ثقة وإعجابا متوهجين، من قلب شاب صغير، شديد الحماسة، يطلب الهداية، ويعترف بالجميل لمن يبذلها له.

لقد التقينا معا في هذا العالم العظيم: عالم الأدب الإنجليزي، الذي أتيناه من عوالم منفصلة وسبل متخالفة. لقد وصلت إلى هنالك قبله ببعض الوقت، وكان هو قد وصل إليه لتوه. جاء معاوية إلى هنا من مناخ مختلف بالكلية عن مناخ الأدب الإنجليزي، وصعبت عليه من ثم المواءمة بينهما، هذا بينما تمكنت أنا من المواءمة بدون أن يشقَّ على الأمر كما شقَّ عليه.

إنني أستطيع أن أعيش هنا في السودان إلى أمد غير محدود، في كثير من اليسر والرغد والهناء. وأستطيع - إن تحتم علي - أن أرجع إلى وطني في لبنان، وأعيش هنالك ولو على مستوى أدنى من الحيوية والنشاط الذهني.

ولكن هذا الغريب، غربة كاملة، والذي أخذ يستنشق بعاطفته الحادة هواء الأدب الإنجليزي، هل تراه يستطيع الصمود بلا تراخٍ، والمضي قدما بلا تراجع، نحو ما نصبه لنفسه من هدف قصي، لا يزداد عنه مع مرور الوقت إلا نأيا؟!

وبعد شهور قلائل من التحاقه بمدرسة كتشنر الطبية جاء معاوية يزورني ويتحدث إلي. وأثناء حديثه ألقى عدة أسئلة عن الجامعات الخارجية، وشرائط الالتحاق بها، والمصاريف الدراسية، ونحو ذلك من التساؤلات. وبعد أسبوع واحد من ذلك اللقاء تنامى إلي علمي بأنه قد هجر دراسته الطبية بمدرسة كتشنر وانسرب خفية إلى مصر.

وقد شقّ الأمر على أسرته، وهالتها محاذيره الخطيرة، لأن الانتماء إلى مصر، أو الانعطاف إليها كانت بمثابة معرّة كبرى في نظر الإدارة البريطانية للسودان.

وتزايدت خشية أسرته من أن يعد ابنها الفارُّ من أجل مواصلة تعليمه العالي بمصر في عداد الناشطين السياسيين الخونة، بنظر المسؤولين الإنجليز بالسودان. وقد كان الاحتمال كبيرا أن يظنه الإنجليز متمردا سياسيا، لا طالبا متشوقا لإكمال دراسته في الأدب الإنجليزي.

ومما زاد في مخاوف أسرته أن الفتى بفراره عن السودان قد فقد جميع الفرص المستقبلية للالتحاق بالوظائف الحكومية.

ولذلك ذهب خاله لمقابلة مدير المعارف بحكومة السودان، معلنا عن استنكاره القوي لمسلك ابن أخته وجحوده، ومتعهدا بأن يذهب بنفسه إلى مصر، على التو، ليحضر هذا الشاب الغبي بالقوة إذا لزم الأمر!

استجاب مدير المعارف لرجاء حار من خال معاوية، والتزم بأن يحفظ للفتى الشارد مكانه بمدرسة الطب ريثما يعود، وهكذا حزم الخال أمره مسافرا إلى مصر للإتيان بابن أخته.

وهنالك طلب مساعدة وزارة الداخلية، قائلا إنه يريد القبض على إبن أخته القاصر ليعيده إلى السودان. ولم تبخل وزارة الداخلية المصرية بإسداء العون، فأصدرت أوامرها باعتقال الفتى ليلا وإيداعه قسم الشرطة حتى يأتي خاله، فيستلمه في صبيحة الغد، ومن هناك دفع به إلى قطار الصعيد فإلى الخرطوم.

ولكن الفتى كان قد صمم على هجر دراسة الطب نهائيا، وعلى رفض أي وظيفة في السلك الكتابي الحكومي، عاقدا العزم على الالتحاق بأي جامعة، تقدم دراسات متخصصة في الأدب الإنجليزي.

ولما كان خال معاوية صديقا لي، وكان يدري أن لي تقديرا جيدا لابن أخته، وأن لي بعض النفوذ الأدبي على شخصيته، فقد اتجه إلي لأكون مُحكَّما في المستقبل الدراسي لابن أخته.

وأتيا معا إلى مكتبي، حيث عقد اجتماع مهيب، ناقشنا فيه نقاشا مستفيضا مصير الفتى الذي عبر عن رغبته الحارة في الالتحاق بالجامعة الأمريكية في بيروت، قائلا إن أسرته مقتدرة ماليا على أن تبعث به إلى هناك.

واعترف الخال بقدرات الأسرة المالية، إلا أنه اعترض على الأمر في جملته، قائلا إن ذهاب معاوية إلى بيروت، سيفقده مهنته المرتجاة، كما سيفقده التعهدات الحكومية بإعطائه وظيفة أخرى.

وأجاب معاوية بأنه لا يريد أي ضمانات حكومية بالتوظيف في أي مجال، وأنه قادر على أن يكسب عيشه، بوسيلة أو بأخرى، عندما يتمكن من نيل درجته الجامعية في الأدب الإنجليزى.

وهنا أشار الخال إلي لكي أصدر حكمي في النزاع المحتدم. عندها خامرنى إحساس عارم، بأني أستعيد تجربتي القديمة الخاصة التي دامت لأربع سنوات قبل أن يخوض معاوية التجربة نفسها.

لقد أدركت ما يدور بدواخل معاوية، لأنني خبرت ذلك الشوق الشائق، والتوق الفائق من قبل. كنت ألمح مخايل أحلامه الوردية المتألقة في عينيه وفي نظراته التي ترنو إلى أفق قصي.

أما الخال فقد كان صديقا رصينا، لم يكن قاسي القلب، ولا ضيق العطَن، كان عقلانيا واقعيا، يفكر في إطار القيم النسبية، ويوازن بين الإيجابيات والسلبيات، ويتدبر العواقب، ومستقبل الوظائف والمهن وقضايا المعيشة.

أما الفتى الذي كان مشحونا بالعواطف، فإنه لم يعِرْ أيا من تلك الاعتبارات العملية اهتماما يذكر. ولم تشغل اهتمامه إلا قيمة واحدة مطلقة، وغاية مفردة ظل يسعى لتحقيقها، بغضِّ النظر عن أي عواقب يمكن أن تعترض طريقه أو تكبل خطوه، تلكم هي غاية تثقيف العقل، وتطوير الذات، حسب المسالك والوسائل التي اختارها هو ولم يخترها له أحد من الناس.

لقد أراد أن يحقق ذاته، قبل أن يحقق أي غاية أخرى من غايات الحياة التي تشغل الناس، وتقتصر مساعيهم عليها، مثل تأمين المطعم، والملبس، والمسكن.

وتقديرا لتلك العزيمة القوية الماضية، فقد أعطيت حكمي أخيرا لصالحه.

وتقبل أهله بحكمي وارتضوه. وهكذا أخذ الفتى، بعد أسابيع قلائل، يشق طريق متوجها إلى بيروت.

نصر وهزيمة

... إن لي الآن أصدقاء إنجليز عديدين، أمسيت أحسُّ، وأنا بينهم، وكأني في ديار أهلي. إلا أنني لم أنضم، مع ذلك، إلى دائرة المجتمع الإنجليزي بالسودان. وبالتأكيد فإني لم أشأ أن أنضم إلى تلك الدائرة قط. ولم نشأ - أنا وزوجي جين - أن ننضم إلى أي دائرة اجتماعية محددة، أو أن نغلق أنفسنا في إسار حلقة قومية ضيقة رتيبة.

لقد مارسنا هواية صنع الأصدقاء من كل المشارب، ومن كل حدب وصوب، حتى نتمكن من العيش في مجتمع كوني متسع الأبعاد. وأفلحنا في هذا المسعى، حيث أنشأنا علاقات صداقة واسعة، مع مواطنينا اللبنانيين، وذلك من غير أن نلزم أنفسنا بالانضمام إلى مجتمعهم. وأنشأنا علاقات صداقة وطيدة مع مواطنين مصريين وإغريق وأرمن. وأهم من ذلك كله، تلك الحلقة الواسعة التي كوناها من الأصدقاء السودانيين.

بعض السودانيين الذين صادقناهم كانوا أصدقاء لأبي من قبل. ولكن كثرتهم الكاثرة كانت من ضمن تلاميذي الذين توليت تعليمهم بكلية غوردون التذكارية، أو الذين تعرفت عليهم من خلال عملي هناك. كانوا جميعا لطيفين، أنيسين، شديدي الود والترحاب، سجيتهم مبادلة الصدق بالصدق بقلوبهم الدافئة، التي لا تعرف التحفظ أو التحرج أو الانغلاق.

ولم يعد صعبا على زوجي، جين، أو عليّ أن نتعامل مع عدد جمٍّ غفير من الأصدقاء. فقد أجادت جين اللهجة العامية السودانية، وبرعت في التعامل مع السودانين حسب تقاليدهم المحلية. وطوَّرت ذوقا لاستطعام الطبق الشعبي السائد، الذي يدعى "Kisra and Mulah" واستطابته، وأصبحت بذلك ذات شعبية ضاربة وسط أولئك الأقوام.

وما كانت من عادة النساء السودان أن يختلطن بالرجال عندما نذهب لزيارتهم في دورهم. وكذا كانت جين تتخذ طريقها إلى جناح الحريم فور انقضاء مأدبة الغداء، وتقضي وقتا طيبا في الحديث إليهن بعامية سودانية طليقة، يتطرق فيها الحديث إلى المعهود من مسائل الأطفال والقضايا البيتية، وشؤون التفصيل والخياطة، وأمور النساء التي من هذا القبيل.

وهكذا عشنا بالسودان حياة غنية بتنوعاتها، وربما بما اكتنفها من متناقضات حادة، ولكننا مع ذلك استمتعنا بها متعة لا حد لها. كانت حياة من صنعنا نحن، أجدنا صناعتها لأنفسنا بمواصفاتنا الخاصة، ولم نجدها مهيأة لنا أصلا بهذا التكوين هناك.

وبانغماسنا في ذلك النمط الحياتي الفريد، هدأ التوتر، بل غاب عن حياتنا في الخرطوم وذاب ذلك التوتر الذي يبعثه صراع الأصول والأعراق والقوميات وتصادمها.
ومن بين السودانيين جميعا كان أعظم أصدقائي، وما يزال، هو تلميذي القديم معاوية محمد نور.
لقد حافظت على اتصالي به خلال السنوات الثلاث التي قضاها بالجامعة الأمريكية ببيروت، يجهد لنيل درجة البكالوريوس في الأدب الإنجليزي، وكنا نلتقي كل صيف، إما في لبنان أو في رحاب السودان. وقد تابعت بسعادة غامرة تحقيقه لحلمه الدراسي، وتنامي قوته الفكرية من عام إلى آخر.
ولدى تخرجه من الجامعة الأمريكية، توجه توا إلى مصر، آملا أن يتمكن من كسب عيشه من خلال عمله كاتبا، يزود الصحف والمجلات المزدهرة هناك بالمقالات الأدبية، من دون أن يكون محررا رسميا دائما فيها [34].

لا شك أن معاوية كان حالما عندما ظن أنه يستطيع كسب عيشه في القاهرة من تدبيج مقالات في النقد الأدبي. وهاهو أحد أدباء تلك الفترة، الأستاذ أنور الجِندي، رحمه الله، يتحدث عن ذلك فيقول:" إن أديبا ما في مصر لا يستطيع أن يعيش مع قلمه، ولو كان طه حسين أو الزيات. وإن كل أديب مهما كان من القوة أو الشهرة، محتاج إلى عمل آخر، إلى جوار أدبه يعيش به، وهو إما أن يكون الصحافة أو التدريس. والحق أن أديبا من الأدباء لم يستطع بالأدب وحده أن يكون قويا من الناحية المادية، بحيث يستطيع أن ينصرف بالأدب عن غيره أو يقتصر عليه. لقد استطاعت الصحافة أن تضع الأدب في الدرجة الثانية منها، وأن تغلب السياسة وطرائف الأخبار والصور. ثم جاءت الإذاعة بألوانها المختلفة، التي تقصد إلى الترفيه والتسلية، قبل الثقافة والتوجيه، فأحلت الأدب درجة أخرى، فأصبح في الدرجة الثالثة. وجاء اليوم الذي أصبح الأدب فيه غذاء فئة قليلة من الصفوة المختارة التي تحبه لأنه فن رفيع لأولئك الذين يتسع وقتهم له ". وفي وقت لاحق أدرك معاوية هذه الحقيقة بعد أن خاض التجربة بنفسه فقال:" إن توافر أسباب الراحة والرفاهية لأمر أساسي لتقدم الآداب ونهوضها. فلا يمكن لأمة فقيرة غير مستتب فيها الأمن، أو هي ليست لها من أوقات الفراغ الشئ الكافي الذي تستخدمه في التفكير في منتجات الآداب وروائع الفنون أن تأتي جليلا في عالم الآداب. هذه الشروط غير متوافرة في عصرنا الميكانيكي، ذي الحركة الدائبة والأشغال الكثيرة، ثم لأن القراء يعرضون عن الأدب الجدي، وهم من بعد عملهم اليومي أشد ما يكونون حاجة للراحة والتسلية منهم إلى التفكير العميق. وبالاختصار فنحن يمكننا أن نلخص أسباب ركود الأدب في هذا العصر إلى عنصرين قويين. أولا: جمهور القراء الذي لا يميل إلا إلى التافه السهل. وجمهور الكتاب والأدباء، وهم ليسوا بأحسن حالا من

وهكذا انتهى مدفوعا بحماسته العقلية إلى عالم الحياة الأدبية في تلك المدينة العظيمة، التي ظل يتشوَّف ويحلم بالوصول إليها، وهو بعد في منزله بأم درمان، ثم وهو يعانى من دراسة الطب على غير إرادته وهواه. لقد تمكن أخيرا من تحطيم كل الأصفاد، التي كانت تثقل خطاه: معارضة أسرته لرغباته الدراسية، وتعسف السلطات الإدارية، وإغراء مناصب الخدمة الحكومية!

هاهو الآن وهو في الحادية والعشرين من عمره، شاب صغير، من قلب أم درمان، يحمل إجازة البكالوريوس في الآداب، من جامعة بيروت الأمريكية، ويعيش حرا، في مدينة القاهرة العظيمة، التي تنتظره بما كان يرنو إليه بخياله من حياة الفكر، والأدب، والفن، بعليّاتها، ومقاهيها، وأحيائها التي تشبه الحي اللاتيني الباريسي، مقطونة بأدباء يُشبهون، من بعض الوجوه، كلا من إميل زولا، وصمويل جونسون، ودوستويافسكي، وبما كانت تزخر به من أمجاد العقل وبؤس الواقع المادي المعيش.

هنالك بدا الشاب السوداني الصغير الناحل، الداكن البشرة، بطموحاته المتأججة في عينيه الوهاجتين، والطرب البادي في ثناياه شديدة الابتراق، ومثاليته العنيفة، وعاطفته المحترقة من أجل العمل الأدبي، وحجم قراءاته الضخم المذهل، وذهنه النشط الفياض، بدا بذلك جديدا كل الجدة على الأوساط الأدبية المصرية، واجتذب لتوه انتباه الكاتب المصري عباس محمود العقاد، الذي رحب به في حلقته الأدبية، ومن ثَمَّ طبقت شهرة معاوية الآفاق.

لقد أكسبته مقالاته الأدبية، التي دأب فيها، على تطبيق موازين النقد الأوربي، على الأدب العربي نفوذا طاغيا على الأوساط الأدبية المصرية. واعترف كبار الكتاب بالقيمة العالية للآراء التي بثها في مقالاته الدسمة.

وقد سعد معاوية بذلك الإطراء لبعض الوقت. سعد بانتصاره الروحي، كما سعد بحياة التقشف المادي، التي كان يحياها هناك، حيث كان يقيم في غرفة صغيرة على سطح بناية، بمدينة الشمس (مصر الجديدة الحالية)، وسط أوعية ومتاع قليل، وأكداس كثيرة من الكتب، والأوراق المتناثرة، على مزاج خليق بأن يتحلى به فنان أصيل مثله!

واكتفى بتناول وجبات قليلة هزيلة، حيث ظل يقتات الخبز والجبن في أكثر أيامه. وأحيانا كان يبيت على الطوى حيث لا يجد حتى الخبز والجبن!

جمهور القراء في الكسل وفي قلة الكتاب المبرزين". معاوية محمد نور، دراسات في الأدب الحديث، مصدر سابق، ص 35.

34

ولكنه ظل فخورا بكل ذلك إلى حد الانتشاء، ألم يحس إميل زولا بلذع المسغبة من قبل؟! إن تلكم هي التقاليد الإنسانية، الأصيلة، الفاضلة، في نظر الفتى: أن يحس الإنسان بانتصار عقله وتساميه، بينما يتهاوى جسمه من أثر الضنى واللُّغُوب!

ولكن ما أسرع ما أخذ الجسد المُهان ينتقم من صاحبه شر انتقام، فقد طغى عليه الهزال، وتفشت آثار سوء التغذية في جسده. لم يعد مردود معاوية المادي، من نشر مقالاته الفتانة المعجبة، كافيا للصرف على غذائه، ولو كان من الخبز والجبن، ولم يبق ثمة رجاء أو أمل في تحسن الحال، فقد بات من المحال أن يكسب المرء رزقه في مصر من الكتابة للصحف والمجلات.

ولم تتأخر العلة كثيرا، إذ هبطت على الفتى، وهو مقيم في حجرته العلوية، ولم يجد ما يكافحها به من غذاء أو دواء، ولم يجد رعاية من أحد[35]. وما عتَّم الاكتئاب أن هاجمه، وناء عليه بكلكله الثقيل، وتبدد في خاطره، تباعا، كل ما كان يراوده من أمجاد الأدب والفن.

ولبضعة أشهر واصل الفتى صموده على تلك الحال، واستدان بعض المال من أصدقائه، ثم اجتلب عونا آخر من أسرته بأم درمان، ولكنه خضع في النهاية لظروف الخطب المدلهم، ولشروطه الصعبة، واستجاب لحضِّ خاله له بالرجوع إلى السودان، والبحث عن وظيفة مناسبة من الوظائف الحكومية، لا سيما وأنه قد حقق طموحه، بإكمال تعليمه الجامعي، وفقدت حجته القديمة في رفض الوظائف الحكومية بعض وجاهتها.

يستطيع معاوية، وقد أصبح جامعيا الآن، أن يحصل على مقعد تدريسي، أو منصب إداري مريح، يتيح له مواصلة عمله الأدبي إن لم يكن بصورة خالصة، فعلى الأفضل بصورة عمل ثقافي وإنساني عام. إن أمن الوظيفة ورفاهيتها يمكن أن يمنحه وقتا كافيا يكرسه للكتابة، وتتحقق كل آماله على نحو مريح ببلاده.

---

[35] ذكر الأستاذ عبد الله الشيخ البشير، الذي درس بالأزهر بمصر في فترة تالية لهذه الفترة أنه وجد ببعض الغرف التي كان يسكنها الطلاب السودانيون بالقاهرة:" حقائب قديمة وأشياء مهملة، وعرفت أنها ممتلكات طلاب لا يعرف تاريخهم، ومنهم من مات. وفي حجرة شيخ الرواق ... لوحة فيها عشرون صورة بحجم الباسبورت، وفي وسط اللوحة شيخ الرواق. ولما سألت عن أولئك الطلاب أصحاب الصور قيل لي: لقد ماتوا كلهم، فقد كانوا في رواق البرابرة، وكانوا منقطعين عن أهلهم، وقد أخذ منهم البرد والجوع فمرضوا بالسُّل وماتوا ". عبد الله الشيخ البشير، فيض الذاكرة، عزة للتوزيع، الخرطوم، 2002م، ص 60 -61.

وانسياقا مع تلك الآمال الخلّب انقلب الفتى إلى السودان، ولبث عدة أشهر يبحث عن وظيفة حكومية محترمة. وفي تلك الفترة تَاحَ لي أن ألتقيه مرارا، حيث أُخذت كثيرا بنضجه العقلي واستقامة آرائه.

لقد كان فتى قومي التفكير، بيد أن قوميته كانت من نوع جديد على الأوساط السودانية. كان قوميا عقلانيا، بناءً، ناقدا، لا يتردد في التبرؤ من الإثارة العاطفية العمياء المعادية للغرب، ومن تلك الرغبة التجريدية الفارغة والملحة في طلب الاستقلال القومي، وكأنه غاية في حد ذاتها، ما وراءها من غاية أخرى، أكبر منها وأهم!

وبدفع من طبعه الجدي، أدرك أن الراية القومية مجرد شعار، لا يعطيه معنى وتبريرا، إلا إذا أدى إلى تمليك الناس قوة حقيقية، وبوأهم مكانا مرموقا في سجل الإسهام الحضاري العالمي. وبهذا المقتضى يكون الاستقلال وسيلة لتلك الغاية، وما لم تظهر غاية كبرى يحققها الإستقلال القومي، فإن الشعب لا يستحق أن ينال استقلاله، وإنه أن تأتي له أن ينال الاستقلال، فإنه سيكون بلا معنى خالص!

أراد معاوية للدعوة القومية، أن تبدأ بإبداع خطط جيدة، للنمو الاقتصادي، وإنجاز التقدم الثقافي، وتحقيق الإصلاح الاجتماعي، قبل أن تنفجر الدعوة في شكل تمرد ضد السيطرة الخارجية. ولم يستبطن الفتى مشاعر كره للإنجليز، بل كان معجبا بهم إعجابا عظيما، لقاء ما كان يراه بعينيه الصافيتين، اللتين لم يحل ضباب العاطفة دون نفاذهما لرؤية صفات الإنجليز ومؤهلاتهم، وأدائهم العملي في تعمير السودان.

ذلك الإعجاب، هو الآخر، لم يكن إعجابا أعمى. ولم يحل بين صاحبه وبين نقد أخطاء الإنجليز نقدا إيجابيا متسامحا.

وعلى العموم فقد اقتنع الفتى أن إنجلترا ملكت من الأفكار والثقافة والمؤسسات قدرا عظيما قيما يمكن أن تجلبه إلى الشرق، وكان متلهفا إلى أن يحظى السودان بقسط وافر مما حظي به الإنجليز في بلادهم.

هذا طرف من القضايا التي دأب الفتى على أن يثيرها في نقاشه معي، عندما كان يزورني بانتظام في غدواته إلى مكتبي، وكان يكرر الطرق على تلك القضايا بأقدار متطاولة تدعو إلى السأم في بعض الأحيان. ويسهب في تحليل الحركة الإمبريالية، ومختلف الدعاوى القومية. ويستشهد بمقتطفات من أقوال لوغارد Lugard وجوليان هكسلي Julian Huxley ويضحك كثيرا عندما يستغرقه تعقب أصول تلك القضايا وتبرق ثناياه العذاب.

وذلك ملمح آخر من ملامح شخصية معاوية حيث كان يوازن بين حماسة طبعه وجديته المفرطة بحسٍ فكاهي عظيم. لقد تمتع بقدر وافر من الذكاء،

وكان يسخر حتى من خويصة نفسه، وكثيرا ما كان ينفجر ضاحكا، ضحك السخرية المرة، بصورة فجائية في غمار حديث حماسي له في شأن من الشؤون الجادة العويصة المحتدمة.

ثم جاء حدث غير متوقع، فقد فشل معاوية في الحصول على الوظيفة التي كان يبتغيها عند عودته إلى السودان، إذ رأت فيه الحكومة شخصا مزعجا، ورفضت إدارة المعارف طلبه، إذ قدرت عدم ملاءمته لوظيفة التدريس[36]!

وكانت المقابلة التي انعقدت له مع الموظف الكبير، الذي تولى تقويمه، نحسة الحظ من كل النواحي.

ذهب معاوية إلى مقابلة ذلك المسؤول الكبير بإدارة التعليم، وهو يرتدي ربطة عنق عالية، صفراء اللون، جلبت تأثيرا مدمرا، على نفسية ذلك البيروقراطي العتيق.

وتحدثا معا عن بعض قضايا الأدب الإنجليزي، وتشعب الحديث، فعرجا على أدب صمويل جونسون، الذي كان معاوية يعرفه معرفة عظيمة، بينما كانت معرفة الموظف البيروقراطى الضخم عنه ضئيلة وعرضية.

وإزاء إحساس الموظف البريطاني الكبير، بالعجز الفكرى والأدبى وحرج موقفه تجاه الفتى السوداني الذي يختبره، نحا منحىً التفافيا حول الموضوع، وتعمد أن يُفضي بقول فضفاض، يداري به جهله المزري، فقال عن صمويل جونسون: إنه ولد قبل أوانه!

وكان ذلك القول كافيا لكي يكتشف معاوية جهل الموظف وغلظة ادعائه في آن واحد. وقد صُدم معاوية لذلك القول، بقدر ما صَدمَ مظهره، بربطة العنق الصفراء العالية، ذوق ذلك الموظف البيروقراطي الذي يتعبد للتقاليد المكتبية البالية. وانتهت المقابلة نهاية سلبية مؤسفة، وفشل معاوية في نيل ما كان يطمح إليه من توظيف كريم.

ولاحقا عرضت على معاوية وظيفة صغيرة في إدارة المالية، لم تكن لتلائم ميوله الفكرية والأدبية، ولا تضع في الحسبان قيمة للدرجة الجامعية التي نالها من خارج البلاد، فرفض الوظيفة بإصرار وقرر السفر إلى مصر، ليجرب حظه فيها مرة أخرى.

---

[36] من الغريب أن يتحدث عطية عن مجئ حدث غير متوقع، وهو الشخص الذي كان يعرف كل ما يتصل بواقع معاوية، ولاسيما دقائق ضروب المكر الخفي الذي كان يحاط به. وسيتضح فيما بعد دور المدعو إدوارد عطية في تدبير المكائد والمعاكسات التي منعت معاوية من الحصول على وظيفة جيدة في السودان.

انقلب من ثم إلى مصر يجلله شعور عميق بالإحباط والأسى والحنق على الحكومة الإنجليزية في السودان، لحرمانها إياه من فرصة أن يحيا في وطنه ويخدمه في منصب وظيفي يناسب نزعاته الفكرية وتحصيله الأكاديمي. وبأثر من ذلك الكبرياء الجريح - لا بأثر قناعة صحيحة أو رغبة في غاية أدبية - ومن أجل أن يكسب بعض المال الذي أضحى في أمسِّ الحاجة إليه، والذي كانت بعض صحف القاهرة على استعداد لتقديمه له خدمة لدعاياتها السياسية ضد البريطانيين، كتب مجموعة من المقالات في هجاء الرجل الأبيض الذي يعتصر امكانات السودان ويتنعم بخيراته.

لم يرجع معاوية إلى مصر لمجرد أنه فشل في الحصول على وظيفة مناسبة في الخرطوم، إنما كان السبب الأعمق إحساسه أنه سيصبح غريبا في وطنه، وروحا متوحدة بين أهله وشعبه. وإذ لم يكن الأديب البريطاني صمويل جونسون قد ولد قبل زمانه، فقد كان الأديب السوداني معاوية محمد نور هو الذي ولد قبل زمانه بالتأكيد.

لقد أدى نضج معاوية الثقافي المتسارع إلى أن يتسع الفارق بحدٍّ مهول بينه وبين البيئة الاجتماعية والثقافية السودانية التي كان يحيا بها، ولم يعد يجد له مرسىً صالحا هناك، وتفاقمت مأساته إلى حد بليغ عندما لم يجد له ملجأ ملائما في أي مكان آخر!

فحياة الفكر والأدب القاهرية التي كان يحلم بها تكشفت له عن زيف كبير. لقد منحته إثارة ومتعة روحية وعقلية كبيرة، ولكن تلك الحياة لم تكن قائمة على تربة أصيلة سمحة، تسمح له بأن يضرب بجذوره في أعماقها. ففي الجوانب الإنسانية (الجُوَّانيَّة) من الحياة، كان معاوية يعيش غربة ووحشة شديدة في القاهرة.

ولبث يعيش هنالك بروح هائمة طوافة لا تجد موئلا لها إلا في العالم الخيالي للأدب الغربي. وما وجد نفسه متآلفة إلا مع أبطال روايات وأشعار دوستويافسكي، وتوماس هاردي، و د. هـ . لورانس، وألدوس هكسلي!

وطفقت مسبِّبات أخرى كثيرة لا تحصى، تعمل خفية في تدمير معاوية محمد نور، لا سيما على الصعيد النفسي. وكان تشرده الروحي، بلا شك، من أقوى العوامل التي أنضجت مأساته الأخيرة.

وبعد أشهر قلائل من عودته إلى مصر سمعت بأنه قد أُصيب بانهيار عصبي، وأنه قد أُخذ على إثره إلى مستشفى الأمراض العصبية بالقاهرة. وبعد أسابيع قلائل بدأ يَبَلُّ من مرضه، ثم عاد إلى السودان للمرة الأخيرة، حيث لم يعد إلى القاهرة بعد ذلك.

لقد انضم معاوية لأسرته بأم درمان، وقام أفراد أسرته، على رغم الفوارق العقلية والثقافية الكبيرة بينه وبينهم، برعايته على أتم وجه.

لكنها كانت رجعة حزينة باعثة على الشجى لتلك الروح المخاطرة التي كانت تجوب الآفاق. كانت رجعة مجللة بالفشل والعطب والرعب من مهمة استكشاف عقلي بالغ الاجتراء.

ولبعض الوقت ظل معاوية يطوف ويجول بالمدينة، ويبدو مظهره السطحي طبيعيا للعِيان.

وأتى ذات مرة يزورني بمكتبي، كما كانت عادته في سالف الأيام. ولم أر في سلوكه، بادي الرأي، نوع اختلاف عما كنت أعهده فيه من قبل إصابته بذلك الداء العضال.

ثم لحظت أنه يحمل كتابا كبير الحجم في جيب سُترته. وما لبثت أن سألته عنه فأجاب بأنه القرآن الكريم. ثم أبان لي عن أنه غدا يستمد منه كثيرا من الراحة النفسية والسلوى، وأنه أخذ يستكشف فيه معاني لم يسبر غورها من قبل.

وتحدث يومها إلي بلغة من الإلماح الصوفي وكأنه واحد من زمرة الملهمين الواصلين!

وجاء وقع حديثه ذاك إليَّ عصيبا، بل أصابني بصدمة شديدة، لأنني كنت قد مررت بمثل ذلك الطور من الانهيار العصبي المصحوب بتجليات دينية في فترة سابقة من عمري.

وقد ساعدتني تلك التجربة في النفاذ إلى الأبعاد الخطيرة لحالة معاوية. ثم أصابني حديثه بصدمة أعظم بعد ما تمادى لعدة دقائق فيه.

كان معاوية يحدثني، في عام 1935م، بينما جيوش موسوليني، تمزق جسد الإمبراطورية البريطانية. وبنظرة لها معناها الخفي، سألني إن كان الإنجليز المقيمون في السودان قد أصابهم الرعب بعد؟!

ولدهشتي البالغة فإنه لم ينتظر إجابتي، بل اندفع في حديثه بلغة الشطح الإلهامي العرفانى قائلا: إن هناك رباطا سريا يجمع بينه وبين موسوليني والقرآن الكريم والنهاية القدرية الوشيكة التي ستحيق بالامبراطورية البريطانية!

وأفاض في حديثه معي في الإلماح إلى القوى القدرية الخفية، محاولا أن يلقي في رُوعي أن في صيرورة الكوارث العالمية الناشبة يومها ما لا تدركه الأبصار، أو بصري أنا على الأقل. وأن القائد الإيطالي موسوليني ما هو إلا أداة تنفيذ لإرادة علوية لها تعاطف مع آمال معاوية محمد نور ورغبات الشخصية!

نظرت إليه وهو يفوه بتلك الكلمات، وقد خرس لساني عن النطق، وطفقت أرى في كيانه الجسدي المحطم، وحديثه الملتوى، بعض أعاجيب الدهاء التي يمارسها العقل البشري عندما يحطمه الواقع.

فما كان ذلك الوهم الكبير الذي استولى على عقله سوى استجابته للتحدي الموجه إليه من قبل القوة العظمى للامبراطورية البريطانية، وانتقامه من التسلط الانجليزي على السودان، وثأره من الإدارة، التي حرمته من نيل وظيفة يخدم بها بلاده.

ولم أره لفترة بعد ذلك اللقاء، إذ لم يحضر لزيارتي، كما سمعت أنه كان يقضي كل وقته ببيته، ولا يحب أن يرى أحدا من الناس.

ثم بلغتني رسالة منه يدعوني بها لزيارته، فذهبت توا إلى لقياه، وهناك صعقت بالتغير الهائل الذي عراه.

ظل خلال اللقاء صافي التفكير على نحو ما. وذلك ما زاد من لذع ما رأيت على شعوري. وفهمت خلال حديثي معه أنه بدأ يدرك أن عقله قد أُصيب بعطب ما، وأنه أخذ يبحث عن علاج ناجع يسترجع به عافية عقله.

وقد وجد ذلك العلاج أخيرا على يد (فكي) جاهل مشعوذ، يتشبث ببعض دعاوى دينية، ويستخدم السحر وبعض العلاجات البدائية.

وقد عاد معاوية حينها إلى ارتداء الملابس السودانية الشعبية. ومثل هذا التحول ما كان له في الأحوال العادية أن يثير انتباهي، ولكنه بدا لي الآن رمزا لانقلاب كامل في عقله، وتحول كبير في تجربته المعرفية. فوراء تلك الملابس الشعبية بدت لي مخايل ثقافته الكونية الكلية وهي تتفكك وتتآكل.

وتماما على خطى الإمبراطور (جنتر) وهو في هلعه المتصل بليلته الطويلة التي قضاها في شعاب الغاب، جاء معاوية مضطربا متعثرا مبعثر العقل. وأخذ يطوِّح بكل ما علق بواعِيتَه من أكسية الفكر الغربي، مفضلا حالة العرى البدائي المرتجف.

ولم يتمكن الفكي الذي انتدب لتطبيبه أن يعالج شيئا من أدوائه الوبيلة، بل تفاقم أمره إلى حالة جنون مطبق، ثم ما لبث أن مات.

الفصل الثالث
تآمر إدوارد عطية على تلميذة النابغة

الفصل الثالث
تآمر إدوارد عطية على تلميذة النابغة

اللسان المختلف

كان ما مضى هو ما سجله الأستاذ إدوارد عطية في كتابه (عربي يحكي قصته) عن تلميذه معاوية محمد نور، وقد اشتمل على الإشادة بمواهب تلميذه وذكر بعض مفاصل سيرة جهاده في سبيل الأدب.

وقد أفاض في الحديث عن صداقته له وثقته فيه، وشاء الأستاذ أن يبرز نفسه في هذا النص على أنه كان ناصحا ونصيرا مخلصا لتلميذه الأثير.

أما في هذا النص[37] وهو الآخر من إنشاء الأستاذ عطية، فيبدو كاتبه وكأنه غير المؤلف الذي كتب النص السابق عن تلميذه وكرسه للإشادة بعبقريته الفذة العظيمة.

هنا يتحدث عطية بلسان مختلف عن تلميذه معاوية، رحمه الله.

ولاغرو، فهو لا يتحدث عنه في كتاب أدبي راقٍ، كما كان الشأن في النص السالف. وإنما في تقرير أمني سرِّي، بعث به إلى مكتب السكرتير الإداري، لحكومة السودان، وتقرر على ضوئه تحديد ملامح المصير الماسأوي الذي انتهى إليه معاوية محمد نور.

تاريخ التقرير

كتب هذا النص في عام 1933م،عندما تولى المدعو إدوارد عطية رئاسة قلم الاستخبارات بالسودان، خلفا لعمه المدعو صمويل عطية، الذي كان قد هلك حينذاك. ومع أن هذا التقرير قد وضع لتقويم وضع معاوية محمد نور، والتوصية بشأن توظيفه في الخدمة المدينة، إلا أن إدوارد عطية أراد أن يعالج

---

37 نشر الجزء الأول من التقرير على كامل الصفحة الأولى، للعدد رقم 7777، من صحيفة (البلاغ)، لسان حال حزب الوفد، بتاريخ 30 مارس 1947م، ونشرت بقيته بداخل العدد نفسه.

المسألة، في إطار أوسع، يتناول أوضاع مجموعات ثلاث من الطلبة السودانيين.
المجموعة الأولى: هي التي أتمت تعليمها وبعثت بها الحكومة، من ثم، لتلحق بالجامعة الأمريكية ببيروت، ومن أولئك الأساتذة: إسماعيل الأزهري، وعوض ساتي، وعبيد عبد النور.
والمجموعة الثانية: هي التي رفضت إكمال دراستها بكلية غردون، وهاجرت إلى مصر. ومن هؤلاء الأساتذة توفيق أحمد البكرى، والدرديرى إسماعيل، وبشير محمد خير.
وأما أفراد المجموعة الثالثة: فهم أولئك الذين خرجوا إلى الدراسة علي نفقتهم الخاصة ومنهم: معاوية محمد نور، وعبد الله عشري صديق، وفؤاد القباني.

ضد التعليم الحر

وقد شرح إدوارد عطية في تقريره الأمني ظروف أفراد المجموعتين، الأولى، والثانية، ولم ير خطرا، يتهدد الحكومة المستعمرة من قبلهم، وفرغ عندئذ لأفراد المجموعة الثالثة، بتركيز خاص علي معاوية محمد نور.
وبدا أن مصدر تخوف عطية من هؤلاء هو نوع التعليم الذي أخذوا يتلقونه في الخارج. وهو تعليم لم يكن باختيار السلطة الاستعمارية، ولا إشرافها ولا توجيهها.
ولذلك وافق رئيس قلم الاستخبارات، بشكل عام، على توصية كان قد تقدم بها، في عام 1928م ناظر كلية غردون التذكارية، دعت إلى حرمان هؤلاء الطلاب من جميع الوظائف الحكومية في المستقبل، ومطاردتهم حتى خارج حيز الوظائف الحكومية الضيق، وابتزازهم ما أمكن بمطالبتهم بتسديد ما صرفته الحكومة الاستعمارية على تعليمهم في السودان.
ولكن يراجِع إدوارد عطية هذا الرأي بتحفظ، فيقول عن منع الطلاب الذين يكملون دراسة الطب أو القانون على نفقتهم الخاصة من ممارسة تلك المهن خارج النطاق الحكومي، إن مطالبتهم بتسديد نفقات ما صرفته الحكومة الاستعمارية عليهم، ينبغي أن يكون مقصودا به تهديد غيرهم من الهروب للدراسة بالخارج، لا معاقبة هؤلاء الذين هربوا بالفعل!
ويبدو أن مسألة هروب الطلاب السودانيين إلى الخارج كانت هما مقلقا، يؤرق بال إدوارد عطية، ويثير هواجسه، بحسبانها مسألة أمنية في المقام الأول. ويزيد من خطرها أن يكون الهروب إلى مصر، التي كانت الحكومة الإنجليزية تعمل على استبعادها من السودان وقطعها عنه، على إثر ثورة 1924م.

ولذلك ثارت الضجة الكبرى، على السابقة التي أسستها هجرة الطالب، توفيق أحمد البكري إلى مصر، حتى أصبحت حادثة بارزة في تاريخ السودان الحديث [38].

وأغلب الظن أن إدوارد عطية، بقدراته التحليلية الكبيرة، وحسِّه الأمني المرهف، كان وراء تضخيم تلك الحادثة وإعطائها حجما أكبر مما تستحق.

وفي تقديره لمستقبل الظاهرة على مدى بعيد، يبدو إدوارد عطية متفائلا نوعا ما. حيث ظن أن العقوبات التي تستهدف المهاجرين يمكن أن ترهب الطلاب السودانيين من التفكير الجدي في اتباع خطة المهاجرين السالفين.

كما تفاءل بحالة الفقر والضنك الشديدين التي ضربت السودانيين على إثر سنوات الكساد العالمي في أوائل ثلاثينات القرن الماضي، ورأى أنها ستمنعهم من تحمل نفقات أبنائهم الذين يغادرون للدراسة في مصر أو في بيروت.

روح جمال الدين الأفغاني

وإذا عرفنا سبب التخوف من السفر إلى بيروت، (وهي مواطن آل عطية)، لازداد عجبنا، وهو سبب، يفصح عنه التقرير، استقاءً من تقرير أقدم، أعده في عام 1920م المدعو صمويل عطية يحذر فيه من الأجواء الفكرية والسياسية التي تظلل العاصمة اللبنانية.

تلك الأجواء التي كان قد حلَّ سوحها قبل قليل باعث الفكرة الإسلامية، السيد جمال الدين الأفغاني، حيث خلّف بها وبنواحيها رجالا عرفوا بنضالهم القومي الإسلامي الدؤوب، وعلى رأسهم الأستاذ الإمام محمد عبده، والإمام السلفي محمد رشيد رضا القلموني، والعلامة المجتهد جمال الدين القاسمي، والشيخ الأثري طاهر الجزائري، والفقيه اللغوي عبد القادر المغربي، والعلامة المرجعي الأستاذ محمد كرد علي الدمشقي، والمؤرخ اللبناني محمد جميل بيهم، والداعية الوحدوي شكيب أرسلان، وغيرهم من أئمة الإسلام وشيوخ العروبة العظام[39].

---

[38] راجع أصداء تلك الحادثة في كتاب (ملامح من المجتمع السوداني)، للأستاذ حسن نجيلة، المجلد الثاني، دار الخرطوم للطباعة والنشر، 1994م، ص 128-141.

لقد كان الإنجليز على وعي شديد بخطورة الأفكار الثورية للسيد جمال الدين الأفغاني، وأفكار مدرسة (المنار)، التي تأسست عليها وطورتها، وأعطتها مسحة سلفية غلبت عليها، وكانوا يخشون منها على نفوذهم بالسودان. ولذلك منعوا دخول مجلة (المنار) إلى البلاد. وقد ذكر الشيخ الإمام محمد رشيد رضا في إحدى افتتاحيات (المنار) في معرض حديث له عن دعم سعد زغلول لها:" وقد كان هو أول من أمر باشتراك وزارة المعارف بنسخ من (المنار) لمدارسها في عهد توليه لوزارتها، وكانت الوزارة قبله

ويقول الأستاذ صمويل عطية في تحذيره من ذاك الخطر:" إن ذلك ينفي عدم التقليل من أهمية الشعور، الذي يتيقظ بين الشباب المحمدي، في العالم العربي، في الشرق الأوسط. إن بيروت هي مركز الاتصال لجميع هذه الجنسيات، لاسيما وأنه في يوم من الأيام، سيظهر من هذا الجيل، الذي يتلقى العلم الآن، عدد من السياسيين، والحكام ، في الشرق الأوسط، يشتركون في الاعتقاد القائل بأن الإسلام يعانى اضطهادا من المسيحية الغربية "!

وبهذا يبدو أن تفكير الاستخباريين، من آل عطية، كان محدِّقا في الأفق البعيد، يستشرف صحوة العالم الإسلامي، ويخشى منها على مصالح المستعمرين الغربين وأعوانهم من الأذناب المحليين.

وإذا كانت جامعة بيروت الأمريكية قد قامت من بعد بجدارة تامة بإجهاض هذا النهج الزعامي الإسلامي العربي، الذي كان يحذره آل عطية وسادتهم المستعمرون، وذلك بإنتاجها لأجيال الزعماء القوميين العلمانيين اليساريين، المناوئين للإسلام والعروبة، بأشد مما كان يناوئه المستعمرون الأوربيون النصارى، إلا أن لتحذيرات قلم الاستخبارات السودانية وتوصياته، في ذلك الحين ماكان يبررها أتم التبرير.

فلم يكن ثمة بد من اتخاذ حلول وقتية، ذات طابع أمنى إجرائي لمكافحة تلك الظاهرة الفكرية الإسلامية التي أزعجت الاستعماريين. وذلك ريثما يكتمل إنضاج الحل الأمثل، بإعادة صياغة ذلك الجيل، بعيدا عن الإسلام. حتى ولو تطلب الأمر أن تتم تلك الصياغة في أحضان اليسار الشيوعي الماركسي [40].

تشترك في جميع المجلات المشهورة بمصر من دونها لكراهة الإنكليز كل إصلاح للمسلمين، ولذلك منعوا (المنار) من السودان، من قبل الحرب بسنين بدسائس المبشرين". المنار، المجلد 25، ص 471.

39

من بين المفكرين السياسيين المعاصرين، كان الرائد الطليعي محمد جلال كشك، رحمه الله، هو الأبرع في تحليل الصلات السرية بين التنظيمات اليسارية العربية في بيروت، ووكالة المخابرات الأمريكية المركزية. وقد تناول في كتبه عن الغزو الفكري عدة حالات بالتحليل المفصل، كحالة مجلة (حوار) الأدبية، التي كان يصدرها الدكتور توفيق الصائغ، وكانت أشد المجلات العربية انعطافا نحو اليسار، ثم أعلنت منظمة الثقافة العالمية التابعة لوكالة الاستخبارات الأمريكية أنها كانت تمولها.

وذلك ما يفسر لماذا ظلت جامعة بيروت الأمريكية لنحو نصف قرن من الزمان وكرا مشبوها، ترعرعت فيه كافه أطياف اليسار العربي.
ويبدو حذر إدوارد عطية البالغ من خطر تعرض الطلاب السودانيين، ولو لنفحة عابرة، من نفحات السيد جمال الدين الأفغاني، أو توجيه من توجيهاته في سبيل الوحدة الإسلامية، في مثل قوله: " وليس من الضروري أن يعود طلبتنا، وقد أصيبوا بهذا الاتجاه، ولكونهم يكونون على الأقل قد تعرضوا للإصابة به ".
وهكذا فمجرد التعرض للإصابة بالإسلام النهضوي الثوري يصبح خطرا على سلطة الاستعمار الغربي، ولذلك ينبغي أن يُحظر على الطلاب السودانيين أن يطلبوا العلم في بيروت، حتى ولو لم يكن لهم اهتمام حقيقي بالفكر الإسلامي أو العمل السياسي كما في حالة معاوية محمد نور.
ومن غرائب ما جرى أن الاستعمار الإنجليزي وسدنته من آل عطية وغيرهم قد أُتوا من حيث لم يحتسبوا، حيث برز لهم الثائر السوداني الأعظم، السيد إسماعيل الأزهري، من بين الثلة القليلة التي أَمِنوها، وأرسلوها إلى بيروت، فعاد إليهم من هناك بروح جمال الدين الأفغاني، ودهائه السياسي المذهل، وزاد عليه بقدراته الضخمة، في الأداء السياسي الصبور المثابر، حتى أنجز للأمة السودانية، مهام الاستقلال القومي ومتطلباته الأولى [41].

واعترف بذلك الدكتور توفيق صائغ في مذكراته، واعترف به أيضا الدكتور غالى شكري، الذي عمل مراسلا للمجلة من القاهرة، واعتذر عنه اعتذارا باردا في كتابه (ثقافتنا بين نعم ولا).

والصيغة المتطورة لتلك المنظمة، التابعة للاستخبارات الأمريكية، والتي تحمل اليوم اسم (الصندوق القومي للديمقراطية)

(National Endowment for Democracy)

هي التي تمول نشاطات مركز الدراسات السودانية الذي يديره الكاتب اليساري الدكتور حيدر إبراهيم. وقد أعلن الصندوق، على موقعه الإلكتروني، أنه ظل لأكثر من عقدين من الزمان يقدم خمسين ألف دولارا لما يسمى بمركز الدراالسات السودانية. راجع:

http://www.ned.org/region/africa/

40

قال الأستاذ حسن نجيلة ، في تعليقه على تلك المفارقة التاريخي :" تأمل ... كان الإنجليز يخشون طلب العلم في القاهرة، حتى لا تُعدي فتيةَ السودان ثورةُ مصر،

وقد بلغ قلق قلم الاستخبارات حدا بعيدا بهذا الرهط الكريم الذي اتخذ طريقه إلى بيروت ليدرس على حسابه الخاص، ولذلك طلب من الحكومة أن تعمل كل ما في وسعها لعرقلة عودة هؤلاء إلى السودان بعد إكمالهم لدراستهم ونيلهم لشهاداتهم، وإغرائهم بالبقاء في الخارج، حيث يبقى أثرهم الضار منحصرا هناك.

أما إن شقَّ هؤلاء الطلاب عصا الطاعة، مرة ثانية، وتجاسروا فعادوا إلى بلادهم، فإن إدوارد عطية يُعلم حكومته بأن قلم الاستخبارات له من القدرات الكافية ما يمكنه من أن يقوم بإرهابهم وتأديبهم، وإلزامهم حدودهم، وجعلهم يسعون ويرعون بقيودهم!

ولم يشرح إدوارد عطية، في تقريره، كيف سيفعل ذلك، ولكن من المفهوم أن سلطات قلم الاستخبارات التي بين يديه صلاحيات واسعة في هذا المجال، وبإمكانه أن يستخدمها ليفعل بهؤلاء الفتية الأفاعيل!

التوصية (ببهدلة) معاوية

واتساقا مع كل ما مضى بذل إدوارد عطية لتلميذه معاوية النصح وحضَّه لكي يبحث لنفسه عن عمل بمصر. ودعاه لأن يُسوِّق شهادته الجامعية، في متاجر الفكر والأدب المزدهرة هناك. وذلك لأن رجوعه إلى السودان سيخلق للحكومة الإستعمارية مشكلة لا تحل.

أما إذا أصر معاوية على العودة إلى الخرطوم، فإن إدوارد عطية لا يرى مانعا من (بهدلته) بطريقة ظريفة، وذلك حتى يدركه اليأس من الحصول على وظيفة بالسودان، ومن ثم يقفل راجعا إلى مصر، ولكن من غير أن يستصحبه معه نقمة أو سخطا على حكومة الاستعمار.

ويعلق إدوارد عطية تعليقا سلبيا على مذكرة أعدها بتاريخ 1932/1/12م الأستاذ د. س. وليم ، ناظر كلية غردون عن موضوع معاوية، تحدث فيه عن نبوغه، وسعة إطلاعه، وأوصى بألا يُستكثر عليه أن يوضع موضع التجربة. أي أن يعطى فرصة في التعيين في وظائف الحكومة، ويراقب أداؤه بعد ذلك مراقبة جيدة. لاسيما وأن التقارير التي جاءت عن سلوكه ببيروت لم تكن سيئة.

وحسبوا أن في بيروت النجاة، فسمحوا لنا بأن نحتفي ببعثاتنا إلى جامعتها، بعد أن تولوا الاختيار وحدهم، ونسوا أن السودانيين تنتظمهم كلهم عقيدة واحدة، فما كاد يجد الجد، وتحين ساعة الخلاص، حتى واجهوهم بقوة وصلابة. ولم يكن أبناء بيروت بأقل قدرا في الكفاح من أبناء القاهرة، ولا أقل منهما من لم يذهب إلى بيروت أو القاهرة. وحسبك أن تعلم أن من أبناء بيروت السيد اسماعيل الأزهري ". حسن نجيلة، ملامح [41]من المجتمع السوداني، مصدر سابق، ص 148.

هذا الكلام الموضوعي المحايد من (الخواجة) الأصلي، لم يعجب هذا العربي (المتأورب) إدوارد عطية، فذكر أنه يوافق على أن معاوية محمد نور مشكلة، ولكنه يشك في أن الجميع، إنما يبالغون في الاهتمام بضرورة حلها.

وإذن فما من بأس (بمرمطة) معاوية و(بهدلته). ولا يجدي أن يشفع له ذكاؤه المفرط ولا علمه الثرُّ. فإن الجميع - كما تقول التقارير - لايرونه ذا نفع إن وظف مدرسا بكلية غردون التذكارية، كما أنه لاينفع إن وظف بقلم الاستخبارات الاستعمارية!

وتلكم هي الوظائف التي تحتاج إلى ذكاء وعلم، أما ما دونها من الوظائف الكتابية التي تسير على وتيرة واحدة، فإن من المؤكد أن معاوية لن يقبل بها، ولن ينجح فيها.

ويقول عطية بهذا الصدد متسائلا:" خبرني هل تنصح شابا إنجليزيا، مثل معاوية في الذكاء، بأن يقبل عملا في البريد؟! إنك لايمكن أن تفكر حتى في مثل هذه النصيحة. فإن مثل هذا العمل سيكون تكرارا لما قمنا به، من محاولة إجباره على تعلم الطب "!

وهذا كلام حق وأن أريد به البطلان، فالعقل الذي رفض الرضوخ لدراسة مهنة الطب، لا يمكن أن يرضخ للمتطلبات الإدارية الصغيرة الغثة، كما كان يقول عن حالته، عظيم عظماء الفكر، هو الأستاذ عباس محمود العقاد!

ومما يعجب له ذو اللبُّ أن صاحب هذا التقرير، إدوارد عطية، قد أخذ يناقض نفسه بعد هنيهة، فإذ يستبعد أن يقبل معاوية لنفسه مهنة نمطية ضئيلة، يعود فيوصى بان يعمل معاوية مصححا لتجارب الطبع في الصحف اليومية. ويزعم:" أن معاوية لن يموت جوعا، ومن المؤكد أنه يستطيع أن يعمل كمصحح، بمرتب ثلاثة جنيهات في الشهر كزكي عبد السيد! ".

ولكن ربما كانت تلك التوصية مندرجة في سياق عملية (البهدلة)، و(المرمطة) المقصودة، حتى ينتاب اليأس معاوية، فيعزم أمره، ويشدَّ رحاله إلى جنوب الوادي.

وإذا فعل معاوية ذلك فإن لإدوارد عطية تدبيرا لاحقا، إذ يقترح استدراجه وتوظيفه بعد ذلك مع قلم الاستخبارات - ولكن من بعيد - لكي يقوم بتلخيص ما يدور في الصحف والمجلات المصرية عن السودان، وإفادة قلم الاستخبارات به.

ولكن هيهات أن يقبل ضمير نقي، مثل معاوية، بعمل مثل ذلك، وهيهات أن يُستغفل معاوية أو يُستغل، فيؤدى - من حيث لا يدرى أو من حيث درى - خدمة جُليَّ، مثل تلك لقوى الاستعمار الجاثم على صدر البلاد!

تفسير الموقفين

لقد ذكر إدوارد عطية، في كتاب سيرته الذاتية ، الذي تعرضنا له سابقا، أنه عاش صدر حياته بولاء مطلق للإمبراطورية البريطانية. وأنه بذل جهوده كلها وما ضنَّ بعزيز منها في خدمة أهداف الامبراطورية الكبرى [42].

ومن هذا المنحى يمكن تفسير موقفه التنكري المتآمر على تلميذه معاوية.

ولكن ثمة بعد آخر، عنصري كريه شابَ موقف عطية، وزاده شيْنا إلى شيْن. وهو رأي عطية السيئ، في عموم السودانيين، من ناحية العقل.

ففي معرض رده، على دراسة لمعاوية، ذكر فيها أن الإنجليز لا يريدون انتشار التعليم العالي في السودان، عقب عطية قائلا:" إن السودانيين لازالوا غير قادرين على هضم التعليم العالي "!

وقد ساق تلك المقولة وكأنها نظرية علمية مؤكدة أو بدهية لا يُمارِى في صحتها الطبيعية الأولى.

وهكذا فكما أن النوازع العنصرية تنزع نحو الجزم القاطع، ولا تعترف بأصول المنطق ومبادئ البحث الهادئ، فإن زعم عطية هذا لم يستصحب أَثارةٍ من دليل، أو قرينة يستنار بها، أو حتى شبهة زائفة منتحلة تُحلِّي القول.

ولم يكلف صاحبنا نفسه مؤونة إقناع الناس بما يقول، ولا مواجهة الأدلة القوية التي تنهض لدحض مزعمه الزائف، وفي مقدمتها تجربة معاوية محمد نور الدراسية الباهرة، وتجارب زملائه من الدارسين الذين أكملوا تعليمهم الجامعي بنجاح بالقاهرة وبيروت.

وليس بعيدا عن منطق عطية العنصري هذا ما كان أبداه سلفه غير الصالح، الأب لويس شيخو، الذي ألف كتابا كبيرا، من جزأين، عن تاريخ الأدب العربي، نَفَحَ فيه السودان بسطرين اثنين، ولم يكملهما، وكان مما قال فيهما:" أما السُّودان فلا تكاد تفيد شيئا في الآداب العربية، لقلة عناية أهلها بالعقل " [43]!

فهذا المؤلف لم يكلف نفسه شيئا لبحث الموضوع من أطرافه المتعددة. واكتفي بسوْق التهمة الجاهزة، مسوِّغا بها عجزه، وهي الزعم بضعف عقول السُّودان!

---

[42] Edward Atiyah, An Arab Tells His Story, Ibid, p.87.

[43] لويس شيخو اليسوعي، تاريخ الآداب العربية في الربع الأول من القرن العشرين، مطبعة الآباء اليسوعيين، بيروت، 1926م، ص 135.

وليس هذا بعيدا عن منطق عطية العنصري هذا ما قاله مكمايكل من أن التعليم الحديث قد أنشأ في الطلائع السودانية:" اتجاها عقليا يبلغ في دركه الأسفل الحسد، وفي أحسن صوره إحساسا بالانحراف صوب السفسطة والرومانسية "[44].

إن التقرير المطول الذي أعده عطية، وكذا التقارير المرفقة معه، قد شهدت جميعها لمعاوية محمد نور بالنبوغ العقلي العظيم الذي لا نظير له، ولكن تكاد تحسُّ من نبرة هذه التقارير غيْرة المثقفين الإنجليز من سمو عقلية معاوية، خاصة حينما اصطفاه الكاتب العالمي، أندريه موروَا، وحاوره حوارا أدبيا عقليا نِدِّيا رفيعا [45].

وفي سائر تلك التقارير لا ترى أدنى تقدير عملي لعبقرية معاوية. بل لا ترى إلا محض المكر والتآمر عليها، والعمل على محاصرتها، وطمرها بالتراب.

ترى لو كان معاوية، بنبوغه ذاك العظيم، نصرانيا من لبنان، أمَا كان يجد الرعاية التامة من الإنجليز، تماما كما لقيها آل عطية، وغيرهم، ممن انحدروا من عرقهم وديانتهم؟!

وترى لو كان معاوية ممن يداهن، أو يساوم على شرف أمته ومقدراتها، أو يعرض خدمته للاستعمار، أما كان وجد منهم من العطف القدر الكافي؟!

بلى! بل ربما تمهد له طريق إلى مهنة التدريس بكلية غردون، وهي مهنة إن كان قد سعى لها كل السعي، إلا أنه قد احتفظ برأيه السيئ فيها من حيث الأصل.

لقد كانت تلك المهنة، برأيه محطة وخيمة، يُعدُّ فيها الإداريون الإنجليز، ويدربون على استخدام فنون العنف ضد الطلاب السودانيين وسومهم سوء العذاب.

ولذا فقد قال معاوية عن الأساتذة الإنجليز بعامتهم بكلية غردون إنهم كانوا:" يُختارون من السلك السياسي، لقضاء عدة أعوام، يتمرنون فيها على الحكم، لاعلى التعليم، بين طلبة العلم، وصفوة أبناء البلاد الحقيقية. إنهم

---

[44] Mcmichael, The Anglo - Egyptian Sudan, P. 269.

نقلا عن: محمد عمر بشير، تاريخ الحركة الوطنية في السودان: 1990 – 1969، ترجمة هنري رياض وآخرين، المطبوعات العربية، الخرطوم، 1987م، ص 122.

[45] نشر ذلك الحوار في مجلة (الهلال)، بتاريخ إبريل 1932م، أي عندما كان معاوية في الثالثة والعشرين من عمره، وقد أدرجنا نص الحوار ضمن ملاحق هذا الكتاب.

يقضون أعوامهم في الكلية (تحت التجربة). فمن أفلح فيهم، وأجاد وسائل العنف والشدة والضغط والاستبداد، رُقي سريعا لوظيفة في السلك الادارى، إذ أنه قد اجتاز الامتحان، وأمضى مدة (التجربة) على أحسن ما يرام.

ومن يرى هؤلاء الأساتذة يضيقون على الطلبة، ويرهقونهم بكثرة الأمر والنهي، ويعاقبوهم على أقل هفوة أو بادرة، بالجلد الصارم والعقاب الشديد، لهاله الأمر، ولظن نفسه في ثكنة من ثكنات العساكر، لا في معهد للتثقيف والتعليم. ويظن أصحابنا (الجاهلون)، أن هذه إحدى الطرائق لتخريج شبان طائعين مخلصين. ولقد خاب ظنهم حتى الآن، وأغرب ما يدعو إلى الدهشة، أن سادتنا الإنجليز يتعجبون من مرارة لهجة طلبة كلية غردون وبغضهم إياهم فيقولون:" إن التعليم لا يفيد السودانيين لهذا الدليل ".

وفاتهم أن التعليم مهمة دقيقة، لايضطلع بها حتى في البلاد الحرة إلا كل خبير بشئون التعليم، لا بشؤون الاستبداد. وأن الاستبداد ووسائل القهر والضغط في التربية، ليس أفشل منها، ولا أبعد منها عن الصواب. فالطالب في كلية غردون لا يعامل على أنه طالب علم، من أهم خصائصه العطف، والفهم المتبادل، ولكنه يعامل كجندي، تطلب منه الطاعة والخضوع، بالجلد والحبس ومُرِّ العقاب "[46].

هكذا كوَّن معاوية رأيه الناضج في مقاصد مهنة التعليم بكلية غردون وأساليبها، وهو الرأي الذي انطبق أحسن ـ بل أشنع ـ ما يكون على أستاذه، إدوراد عطية، الذي اجتاز تلك المرحلة باقتدار تام هيأه وأهَّله في النهاية لنيل تلك الوظيفة الخطيرة في السلك الادارى: وظيفة الاستخبارى، ذي الأفق الفكري المتسع، والذي لا يبالى في الوقت نفسه بأن يخون مهمة الفكر ورسالته في الحياة، ويحط بأقدارعظماء الفكر الإنساني المتفوقين، من أمثال معاوية محمد نور.

الصّدى الذي أثاره نشر التقرير

أثار نشر تقرير إدوارد عطية رعبا شديدا في أوساط الرأي العام المصري والسوداني.

ففي اليوم التالي لنشره بالصحافة المصرية، بعث الزعيم الوفدي الكبير الأستاذ، يس سراج الدين، بكلمة إلى رئيس تحرير صحيفة (البلاغ)، يشيد بنشر التقرير الذي وصفه بأنه أخطر ما نشر في الصحف المصرية في تاريخ مصر الحديث. وهذا هو نص كلمته إلى (البلاغ):

---

[46] معاوية محمد نور، الأعمال الكاملة، مرجع سابق، ص 278.

" كانت (البلاغ) دائما، وستكون، لسانا للحق، ونبراسا للوطنية الخالصة، وإن ما نشرتموه من الوثائق، لتبرهن على روح الاستعمار، وتفضح دعايتة الكاذبة. وهي عندي، أخطر ما نشر في الصحف المصرية، في تاريخ مصر الحديث، وأمجد عمل صحفي يمكن تتوق إليه صحيفة وطنيه مجاهدة. إن هذه الوثائق العظيمة الأهمية، لأسلحة قتالة، صوبتموها إلى صدر الإنجليز، وفضحهم أمام العالم بأسره... ولقد سلحتم القضية المصرية بأقوى سلاح، تذود به عن حقوقها المشروعة، في هيئات التحكيم الدولية. فلكم التحية، من قلب يفيض بحب مصر. فسيروا إلى الأمام، والله يرعاكم ويوفقكم " [47].

توقيع:

يس سراج الدين

وعلق على التقرير الأستاذ الكبير إبراهيم عبد القادر المازني، في اليوم التالى لنشره - والأستاذ المازني هو فيما نرجح من ترجم التقرير من الإنجليزية إلى لسان العرب - ودعا إلى استخدامه للضغط على الإنجليز، من أجل الجلاء عن وادى النيل.

ونشرت (البلاغ) مقالا طويلا، بدون توقيع، بعنوان (الاستعمار الثقافي يخشى على السودانيين من أثر العلم والحرية في مصر)، دار حول أهمية الارتباط الثقافي بين مصر والسودان، والتعاون السياسي بين الشباب السوداني وحزب الوفد، وأهمية كشف الخداع البريطاني للسودانيين، الداعين للتعاون مع الإنجليز ضد المصرين. كما نشرت الصحيفة قطعة كشفت عن ذعر الحكومة الاستعمارية، في السودان من تسرب وثائقها، ولواذها بالصمت، وعدم نفيها لصحة الوثيقة. وتقول (البلاغ) في ذلك:

" إن الوثيقة السرية الخطيرة، التي نشرتها جريدة (البلاغ) بتاريخ 18 الجاري، أثارت اهتمام الرأي العام، ولا تزال حديث المجتمع السوداني إلى اليوم، وإن حكومة السودان لم تنف صدورها، ولم تصحح وقائعها، وإنما صمتت صمتا بليغا.

وقد علمنا، من أوثق المصادر، أن نشر هذه الوثيقة، قد هالَ حكومة السودان الإنجليزية، وأفقدها توازنها، وشعرت بأن الأيدي بدأت تلعب بها، واستنفرت عيونها وأعوانها في المجتمعات لهذا الغرض.

أما دوائر حزب الأمة والجبهة الانفصالية (أنصار السيد عبد الرحمن المهدي باشا) فثارت على الوثيقة، وقد اعتبرتها حربا عليها، شنتها حكومة

---

[47] صحيفة (البلاغ)، بتاريخ 31 مارس 1947م.

السودان، في الخفاء لتحطيمها [48]. وقد حملت الجرائد التي تنطق بلسانها حملة شعواء على الحكومة، طيلة هذه الأيام، لسياستها الخرقاء الفاشلة، وتضليلها المستمر لحزب الأمة، والجهة الانفصالية، التي كشفت عنه الأيام، واتهامها لسيادة السيد عبد الرحمن المهدي باشا، بتطلعه إلى الملكية في وثيقة رسمية (هكذا!)

أما دوائر المؤتمر، والجبهة الوطنية العامة، فإنها لم تر شيئا جديدا في الوثيقة. إذ إنها تعبر تعبيرا صحيحا عن سياسة الإنجليز في السودان، التي حاربتها وما تزال تحاربها، والتي نبهت إليها الشعب السوداني، مرارا وتكرارا وفي شتى المناسبات ".

ونقلت (البلاغ) عن صحيفة (الكتلة) الخبر الذي بعث به إليها مراسلها في الخرطوم، وجاء فيه:" هاجمت مجلة (الحادي) السكرتير الإداري بمناسبة المنشور الذي نشرته جريدة (البلاغ) المصرية، واتهمته بإثارة الرأي العام بكتابه المنشور والإهمال بتسريبه للصحافة، والسماح لصحيفة (البلاغ) بتوزيع أعدادها في السودان.

ونقلت (البلاغ) خبرا آخر ورد فيه:" طالبت جريدة (الأمة) بمحاكمة السكرتير الإداري، لأنه أهمل في الوثيقة التي نشرتها (البلاغ). وبعد ذلك سمح بدخول جريدة (البلاغ) إلى السودان. وهي تحوى تلك الوثيقة التي تدمغ حكومة السودان، وتبرهن على أن حكومة السودان تشتغل ضد السودانيين، وضد الحكومة المصرية. وطالبت الصحيفة بإيقاف السكرتير الإداري عن العمل، حتى تأخذ العدالة مجراها الطبيعي ".

ويبدو أن نشر التقرير كان من الخطورة بمكان، كما ذكر زعيم الوفد سراج الدين. فقد احتجت السفارة البريطانية، بالقاهرة احتجاجا شديد اللهجة على نشره، قائلة إن من شأن ذلك أن يثير مشاعر السودانيين ويُبلبل أفكارهم.

ولم تنكر السفارة صحة التقرير، ولم ترد على محتوياته، فقد صعب عليها الرد كما صعب عليها الإنكار.

وأخيرا فيلزم القول إن هذا التقرير الخطير قد انفضح في إبَّان حياة الاستخباري العتيق، المدعو إدوارد عطية، وبعد عام واحد فقط من إصداره لكتابه المسمى"An Arab Tells His Story" ذلك الكتاب الذي قال فيه

---

[48] ذكر الأستاذ حسن نجيلة أن الخطاب قام بتهريبه بعض الموظفين السودانيين، في مدينة ودمدني، إلى الصحافة المصرية ولكن:" عجز الانجليز عن توجيه الاتهام إلى شخص أو أشخاص معينين، لفقدانهم الدليل على ذلك ". حسن نجيلة، ملامح من المجتمع السوداني، مصدر سابق، ص 207.

شيئا مختلفا عن معاوية محمد نور، الذي كان قد مات قبل ذلك الأوان، بستة أعوام، رحمه الله تعالى.

الفصل الرابع
الدفاع اليساري عن إدوارد عطية

الفصل الرابع
الدفاع اليساري عن إدوارد عطية

دعوى حماية المبدعين السودانيين

بعد الفراغ من تسطير ما سلف، اطلعت على مقال وجيز، للكاتب اليساري المسيطر على صفحات الثقافة والأدب بصحيفة (الرأي العام) اليمينية، الأستاذ عيسى الحلو، بعنوان (إدوارد عطية وحماية المبدع السوداني)، حاول أن يدافع فيه عن المدعو إدوارد عطية، وصوَّره على أنه كان رِدْءاً ودرِيئةً وظهيرا للمثقفين السودانيين المناضلين في سبيل الاستقلال الوطني.

وذكر فيه عن عطية ـ على سبيل المدح ـ ما لم يذكر عطية عن نفسه عندما كتب سيرته الذاتية، بعد أعوام طويلة من خروجه من السودان.

وقد ذكر الأستاذ الحلو عن المدعو عطية، بعد أن عرَّفه بصفته، رئيسا لقلم الاستخبارات بالسودان، أنه:" رغم سوء سمعة وضعة الوظيفي هذا، إلا إنه كان مخلصا للقضية العربية، وضد الاستعمار، والكولونيالية، بصورة عامة "[49].

وهذا تعبير ركيك، وتكرار عقيم للفظي (الاستعمار) و(الكولونيالية)، بظن أنهما يدلان على مفهومين مختلفين، هذا مع أن اللفظة الثانية، مجرد ترجمة إنجليزية للفظة العربية!

ثم وصف الأستاذ الحلو المدعو إدوراد عطية بعكس ما يصف عطية به نفسه في كتابه

”An Arab Tells His Story”

حيث أكد عطية أنه حافظ على إيمان قويم بالفكر الغربي ورسالة الاستعمار البريطاني للشرق، وشنَّع على أقوى الحركات الوطنية السودانية لذلك العهد، وهي ثورة 1924م. وأطلق عليها صفة الفجاجة، ووصف الشباب المتعلمين آنها بعدم النضج، وقال إن مشاعر المراهقين كانت تتأجج في دواخلهم، وإنه قد استولت عليهم جميعا سائر ضروب عقد النقص تجاه الإنجليز[50]!

ولذلك لا نظن أن الأستاذ عيسى الحلو، قد أتيح له أن يطلع على كتاب ”An Arab Tells His Story”

---

[49] عيسى الحلو، إدوارد عطية وحماية المبدع السوداني، صحيفة (الرأي العام)، بتاريخ 10 أغسطس 2004م.

[50] Edward Atiyah, An Arab Tells His Story, Ibid, p.163.

ولا رواية "The Black Vanguard" التي يتظاهر بعرضها على القراء، وإلا لما تورط في وصف إدوارد عطية بالوطنية، ولما أسبغ عليه نعت الغيْرة القومية.

فما جاء في كل من الكتاب والرواية لا يدعم الاستنتاجات التي خرج بها علينا الأستاذ عيسى الحلو، ولا تخوِّله لأن يتحدث إلينا بصفة المبشِّر الثقافي، الذي يزيف عِبَر التاريخ الوطني السوداني ودروسه الجليلة المؤْسِية، فيحدثنا عن إدوراد عطية بأنه:" ارتبط بأجهزة المخابرات بشكل مضلل، ليتخذ من وضعه هذا غطاء للمبدعين الأحرار والقوميين السودانيين، الذين كانوا يبدعون أعمالا قومية كبير في خدمة الاستقلال الوطني. حيث كان يسمح لهم بالعمل في حيله الرمزية وأساساته التي تحضُّ على التمرد والثورة **"!** [51]

فهل التحق عطية بخدمة قلم الاستخبارات البريطانية، من أجل أن يحمى المبدعين السودانيين، كما يدعى الأستاذ عيسى الحلو**؟!**

كلا**!** وإنما انتمى إليه بمبدأ الوراثة، حيث خلف فيه عمه صمويل عطية، الذي كان له أيضا دوره في التضييق على المثقفين السودانيين، الذين درسوا في بيروت من أمثال إسماعيل الأزهري، والتحريض عليهم بدعوى أنهم تأثروا بالفكر الإسلامي [52].

والوثيقة الأمنية التي كتبها إدوراد عطية، يحرض فيها على المثقفين السودانيين بعامة، وعلى معاوية محمد نور بصفة خاصة، مما يدل أقطع الدلالة على فساد ما يقوله الأستاذ عيسى الحلو، من أن هدف عطية من العمل بالمخابرات، كان هدفا بريئا نبيلا كالهدف الذي انتحله له.

اتهام الطيب صالح

ولم يكتف الأستاذ عيسى الحلو بتبرئه المدعو إدوار عطية من الخيانة، وتبوئته مقام الحماية والدفاع عن المثقفين السودانيين وحسب، وإنما ادعى أنه كان مُلْهِماً يبذر في عقولهم وأخيلتهم أمهات الأفكار، حيث ذكر في معرض حديثة عن رواية (الطليعي الأسود)، أنها تدور حول معاناة الاستلاب الثقافي، والصعوبات التي عانتها طلائع المتعلمين السودانيين، في تعاملها مع مسلَّمات ومعطيات الحضارة الغربية، وأن إدوارد عطية مثَّل لذلك كله بقصة ابن

---

[51] عيسى الحلو صحيفة (الرأي العام)، بتاريخ 10 أغسطس 2004م.

يمكن أن يشار في هذا السياق أيضا إلى قصة متابعة المدعو صمويل عطية لابداعات الفنانين الوطنيين ذوي الأفق الثقافي الواسع من أمثال الفنان الشاعر الأديب المبدع [52]خليل فرح، وقد رواها الأستاذ حسن نجيلة في (ملامح من المجتمع السوداني).

المزارع السوداني الثري، الذي أرسله أبوه للدراسة بجامعة أكسفورد، حيث وقع في غرام فتاة إنجليزية، بينما كان أهله البسطاء ينتوون تزويجه بفتاة سوادنية أمية من قرابته.

وأوحى الأستاذ عيسى، من طرف خفي، بأن الأستاذ الطيب صالح انتزع الفكرة المركزية التي دارت أحداث رواية (الطليعي الأسود)، وأدار على غرارها روايته ذائعة الشهرة (موسم الهجرة إلى الشمال).

هذا الزعم الذي ساقه الأستاذ عيسى، في مجال تمجيد المدعو إدوارد عطية، وإبراز مآثره وأفضاله على المبدعين السودانيين، زعم في غاية الاختلال والانحلال، لأن فكرة (الاستلاب الحضاري) ليست من بنات أفكار إدوارد عطية، ولا هي حكر عليه، وإنما هي فكرة شائعة عالميا ومحليا، ومحطُّ إبداع شعبي كثيف، حيث لا نزال جميعا نذكر القصص الريفية المعبِّرة من طراز (أعرابيان في المدينة)، وغيرها من القصص التي تدور حول المآزق والاشكالات المحيِّرة، التي تُحدِق بأبناء الريف، وهم يدورون بحنايا الحواضر وحواريها. وتختلف تلك القصص من حيث التفاصيل، ولكنها تتمحور حول هذه الفكرة الأساسية، لا تحيد عنها في كثير.

وقد أدار إدوارد عطية كثيرا من فصول كتابه "An Arab Tells His Story" على تلك الفكرة المحورية نفسها، مثلما أدار عليها فصول روايته عن (الطليعي الأسود)، وذلك في حديثه المتكرر عن قدرة السودانيين على تقليد (أشياء الحضارة) - بلغة الفيلسوف الجزائري العلامة مالك بن نبي - وعدم اقتدارهم على هضم الحضارة ذاتها وتمثلها، وجمعهم بين الاضطراب الداخلي العميق، وإبداء الثبات والتأكيد على الذات بشكل مظهري سخيف [53]!

بل اعتمد إدوارد عطية على تلك الفكرة نفسها، ليصوغ على ضُوئها تقاريره الأمنية الرهيبة. حيث دأب على نصح الإنجليز، واقناعهم بأن مشاعر عدم الرضا السائدة وسط النخبة السودانية المتعلمة، لا تصدر إلا عن شعورهم الفادح بالنقص إزاء الإنجليز، وليس لها من صلة من أي ناحية بقضايا الظلم والاستغلال الاقتصادي والكبت والاضطهاد السياسي كما يتوهم هؤلاء!

ولا شك أن إدوارد عطية كان مبدعا في كتاباته (الأمنية) على هذا النمط، من حيث هو مثقف متفوق، سخر قدراته العقلية العالية لصالح قلم الاستخبارات الاستعمارية.

53 Edward Atiyah, An Arab Tells His Story p.165.

وكذلك يفعل المبدعون حينما ينتقلون من مجال اختصاصي إلى آخر، فينقلون إليه براعاتهم وزبدة خبراتهم المتراكمة في مجالهم القديم، ويُنجزون بذلك النقلة الفاصلة المنعوتة لدى أرباب مناهج البحث بمصطلح "Breakthrough".

ولا يعني هذا أكثر من أن إدوارد عطية قد استخدم الفكرة المطروقة، عن (الاستلاب الثقافي)، وأبدع على أساسها الفكر والأدب المنسوب إليه. ولا مجال بعد ذلك للادعاء بأن الأستاذ الكبير الطيب صالح قد استلب تلك الفكرة عنه، إذ ماهي سوى (ملكية عامة)، إن صح في هذا المقام استخدام تعبير ذي ظلال قانونية.

ويسعفنا هاهنا قولٌ حلوٌ عذب، ردده عميد الأدب العربي وشيخ العروبة، الدكتور عبد الله الطيب المجذوب، عندما شافهه أحد الجاحدين منتقدا إدارته مباحث كتابه التأسيسي القيم (المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها) على مدار تقليدي قديم معروف.

فقال العميد ردا على ذلك في مقدمة المجلد الثاني من الكتاب:" أما بعد، فقد سألني بعض الإخوان، بعد أن تصفح فصلا من كتابي الأول: ما الذي تدعيه من الابتكار في هذا المؤلف؟ فذكَّرته بما قلته في الخطبة، من أنني لا أدعي ابتكارا، ولا اختراعا، وما استشهدتُ به من كلام زهير بن أبى سُلمى:

ما أرانا نقولُ إلا مُعاراً أو مُعاداً من قولِنا مكروراً!

فهل لي أن أذكرك بكل هذا مرة أخرى أيها القارئ الكريم، وهل لي أن أزيد إيضاحا فأقول: إن شوارد العلم كالأبكار الحسان، تزداد بهاءً مع تكرار النظر؟! فإن رأيت، أصلحك الله، أن تشاركني بالنظر المكرر المعاد إلى بهاء العلم فعلت إن شاء الله "[54].

وهكذا نظر الطيب صالح إلى الفكرة المطروقة من خلال تجربته الخاصة، من غير أن يدعي أنه ابتكر تلك الفكرة أو افْتَرَعَها، ولذلك جاءت (موسم الهجرة إلى الشمال) مَعْلما رائعا، كما جاء كتاب (المرشد) مَعْلما رائعا رائدا. وهكذا يفعل الفحول دائما، وهكذا يتولَّد الأدب الخالد أبدا.

أما من يدعى من أهل الأدب أو العلم أنه مبتكر على طول المدى، وأنه لا يقلد أحدا، وأنه لا (ذاكرة ثقافية) له - كما يدعي المدعي المتعجرف أدونيس -

---

[54] عبد الله الطيب، المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها، مطبعة مصطفي البابي الحلبي، القاهرة، 1958م، المجلد الثاني، ص11.

وأنه خارج على جميع المراجعات، كما يباهي بعض الصغار الأغرار االذين يلغطون في دنيا الأدب اليوم، فلا عجب أن يأتى إبداعهم ساقطا من يوم أن يتساقط من مخيلاتهم القاصرة!

لقد ظلم الأستاذ عيسى الحلو الأستاذ الكبير الطيب صالح، وأساء إليه من حيث أراد أن يدفع عن إدوارد عطية دفعا حارا، واعتسف القول والمنطق اعتسافا لا مبرر له إلا في الرغبة العارمة لتيار اليسار الثقافي في الدفاع عن أحد الرموز التي يعتزون بها.

ولا غرو، فإن الأستاذ عيسى الحلو يكاد يفصح عن ذلك، عندما يحدثنا عنه قائلا:" كان إدوارد عطية ذا ميول يسارية شيوعية، وبسبب ثقافته العميقة، وبسبب وطنيته، اتخذ من وضعه الوظيفي في المخابرات البريطانية أداة نافذة وفعالة، لخدمة القضية السودانية، بوصفها محورا من محاور القضية العربية "[55].

وفي هذا الكلام الملقي على عواهنه من امتهان العقول ما لا مزيد عليه. فكيف تكون وطنية عطية، المشكوك فيها من حيث الأصل، سببا أو دافعا لمناصرته للقضية الوطنية السودانية؟!

لقد كان الأولى منطقيا بالأستاذ عيسى الحلو، أن يقدم الأدلة القوية الكافية، لإثبات وطنية إدوارد عطية. ثم يتخذ منها فرْضا أوليا، يبلغ عن طريقه إلى النتيجة التي قفز إليها، عوضا عن ذلك، طفرة واحدة، من دون المرور على فرض منطقي مقبول، أو تقديم دليل عملي ملموس!

سر الدفاع عن الجاني

لقد انساقت الحركة الشيوعية في السودان، في ركاب الاستعمار البريطاني، خدمة لتحالف (الامبراطورية السوفيتية)، في ذلك الوقت، مع الإنجليز ضد الألمان، وعلى غرارها سار الحزب الشيوعي الجزائري، في ركاب الاستعمار الفرنسي، للغرض نفسه، حُذو القُذة بالقُذة.

وقد رفض شيوعيو السودان قرار الاستقلال، كما صوت شيوعيو الجزائر لصالح كل قرارت (الفرْنسة) لإدماج الجزائر في الوطن الفرنسي (الأم)!

وتلك قضايا وفروض تاريخية، تكاثرت الوثائق والتحليلات التي تثبتها، وتحيلها إلى مقامات الحقائق والبدهيات التي لا تقبل التمحُّل والجدل. ومع ذلك يُعرض عنها الأستاذ عيسى الحلو، مفترضا أن شيوعية المرء هي صك

عيسى الحلو صحيفة (الرأي العام)، بتاريخ 10 أغسطس 2004م.

55

براءته وميثاق وطنيته، ودليل مقاومته التلقائية للاستعمار، حتى ولو كان المرء المعني يعمل من داخل دوائر استخبارات الاستعمار.

إن الدفاع عن إدوارد عطية، دفاع واهٍ متهالك، وهذا التقرير الموثق في التحريض والتآمر والإيقاع بمعاوية محمد نور، يقوِّض جميع الركائز المتهاوية لهذا الدفاع الخاسر.

الفصل الخامس
مواصلة الظلم والتجنِّي

الفصل الخامس
مواصلة الظلم والتجنِّي
نص التقرير الأمني عن معاوية محمد نور

حكومة السودان
إدارة السكرتير الإداري
مكتب السكرتير الإداري
العنوان تلغرافي (داخلية)
الخرطوم في 6/ فبراير1933م

أُمرت بأن أبعث إليكم طيَّ هذا بصورة من:
مذكرة أعدها المشرف على الأمن والاستخبارات، عن موضوع الطلبة السودانيين، المتخرجين حديثا، في جامعات خارجية.
مذكرات مصلحية تتعلق بنفس الموضوع، وتناول بصفة خاصة معاوية محمد نور.

مع رجاء الإشعار بالاستلام.

إمضاء:

ع/ السكرتير الإداري

Sudan Government
Civil secretary Department
Civil secretary Office
Telegraph Address "Dakhilia"
KHARTOUM
6th February 1933

I am directed to send to you herewith copies of:
(a) A note prepared of the by the authority in charge of security intelligence, on the subject of Sudanese students graduating at Universities abroad.
(b) Inter- departmental minutes referring thereto and dealing with the specific case of Muawia Mohamed Noor.
Please knowledge receipt.
For
Civil Secretary

نص التقرير الأمني عن معاوية محمد نور

إن عودة معاوية محمد نور، المولود في أمدرمان سنة 1907م، والذي درس الأدب في جامعة بيروت، على نفقته الخاصة، ونال إجازته الجامعية سنة 1931م، تثير مرة أخرى مسألة مستقبل شبابنا السودانيين، الذين يتمُّون تعليمهم في الخارج، فإلى أي مدى يصلحون في الخدمة للحكومة، منافسين الشباب الذين نعلمهم نحن محليا؟ وهل نسمح لهم بأن يعملوا كأطباء أو محاميين في السودان، لو كانوا بالفعل حائزين على الشهادات التي تؤهلهم لذلك؟

إن شبابنا الذين يتعلمون في الخارج، ينقسمون إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول:

الطلبة الذين يتمون تعليمهم الثانوي في كلية غردون، ثم تبعث بهم الحكومة على نفقتها إلى الجامعة الأمريكية ببيروت، ليعملوا بعدئذ مدرسين في خدمة الحكومة.

وهؤلاء هم:

أولا: الذين تخرجوا بالفعل ويشتغلون الآن،(1932م)، بالتدريس بكلية غردون، وهم:

الإسم	القبيلة	سنة التحاقه ببيروت	سنة تخ
محجوب الرَّاوي	سوداني متوطِّن (جده مصري)	1924م	1928
عبيد عبد النور	(رباطابي) من رفاعة	1924م	1928
عبد الفتاح المغربي	سوداني (جده مصري)	1924م	1928
محمد عثمان الميرغني	سوداني (رباطابي) من الدويم	1927م	1930
حمزة حماد	توفي في سوريا	1927م	1930
إسماعيل الأزهري	(بديري) من كردفان	1927م	1930
نصري حمزة	(ركابي) من الكوة	1929م	1930
العوض ساتي	(الدنقل) من الدويم	1929م	1932

ثانيا: الذين لازالوا حتى الآن في بيروت، والذين التحقوا بها للتخرج بعد أربع سنوات:

الإسم	القبيلة	سنة التحاقه ببيروت	سنة تخرجه
مكي طيب شبيكة	رباطابى	1931م	1935م
نصر الحاج علي	جعفري	1931م	1935م
عبد الحليم على طه	جعلي	1932م	1936م
أحمد المرضي الجابري	جعلي	1932م	1936م

ومستقبل هؤلاء الطلبة لا تكتنفه أية صعوبة.

القسم الثاني:

الطلبة الذين غادروا كلية غردون أو غيرها من المدارس الحكومية دون إتمام دراستهم:

ولا تشمل هذه الفئة الطلبة الذين يتغيبون عن المعهد الديني بأمدرمان، ليلتحقوا بالأزهر في القاهرة. وإن هذا العمل ليس ظاهرة جديدة، ولذا فهو خارج عن نطاق هذه المذكرة.

وهي لا تشمل كذلك الطلبة الذين يفرون إلى مصر (ومعظمهم يفعل هذا خلال العطلة الصيفية) بدوافع ليست لها دلالة هامة، والذين نتمكن بعد وصولهم إلى القاهرة، بعدة أيام من العثور عليهم، وإعادتهم بواسطة بعض أقربائهم، أو بواسطة وكيل حكومة السودان بمصر.

وعلى ذلك فيشمل هذا القسم:

أولا: طبقة 1923 - 1924م

الإسم	القبيلة	سنة مغادرته المدرسة الحكومية
توفيق أحمد البكري	الهدندوة وأمه جعلية	1993م
بشير عبد الرحمن	من الفونج	1923م
درديري أحمد	محسي من	1924م

إسماعيل	الجنينة	

ثانيا: طبقة 1928م

الإسم	القبيلة	سنة مغادرته المدر سة الحكومية
بشير محمد خير	دنقلاوي	1928م
يعقوب عثمان يعقوب	دنقلاوي من الكاملين	1928م
بخيت محمد عمر	محسي من الخرطوم	1928م

من طبقة 1923 - 1924م:

كان توفيق أحمد البكري، وبشير عبد الرحمن، من الطلبة الذين لم يعجبهم نظام التعليم في كلية غردون. وفي نفس الوقت تغلغل فيهم النفوذ المصري، وأبلغا أن الأمير عمر طوسون سيتكفل بنفقات تعليمها بعدئذ، ويبدو أنهما استقبلا استقبالا حسنا في القاهرة، وأنهما أعربا من وجهتي نظر متطرفتين عن معاداة بريطانيا، وأنهما زارا زغلول باشا وغيره من السياسيين وما إلى هذا.

وفي اعتقادي أن هدفهما لم يكن سياسيا، بقدر ما كانا يهدفان إلى إقناع أي وفدي أو وطني بدفع نفقاتهما ومعيشتهما وتعليمهما.

وقد أكد وكيل حكومة السودان في القاهرة أنهما (وغيرهما من طلبة الطبقة الثانية) قد خصص لهما ألف وخمسمائة جنية شهريا، من ريع وقف خصص كله لتعليم الطلبة المسلمين تعليما عاليا.

ويبلغ توفيق أحمد البكرى الآن (سنة 1932م) 28 عاما، وهو لا يزال في جامعة القاهرة، ملتحقا بكلية الآداب.

ويبلغ بشير عبد الرحمن الآن (1932م) 25 عاما، ولا يزال في مدرسة الزراعة العليا بالجيزة.

أما درديري أحمد إسماعيل فقد ترك كلية غردون، في شهر سبتمبر 1924م، وانضم إلى توفيق بشير. والتحق أول ما التحق بمدرسة الجيزة الثانوية، ثم بكلية الحقوق، ومنها تخرج في شهر مايو 1932م. وليس لنا على مسلكه في القاهرة أي مأخذ، فيما عدا برقيات سخيفة بعث بها هنا وهناك. ثم

أبحر إلى انجلترا في شهر أغسطس 1932م، بنية دراسة القانون بجامعة برستول، وهو الآن (1932 م) في جامعة ليدز.
وقد منحه وكيل حكومة السودان جواز سفر سودانيا، بعد أن أظهر خطابا من الأمير عمر طوسون تكفل به بنفقاته، وقد قال إنه ينوي أن يتخرج في القانون، ليعمل في الخرطوم والقاهرة، وهو الآن يبلغ الثلاثة والعشرين.

أما الطلبة الذين ذكرت أسماؤهم في الطبقة الثانية فقد غادروا البلاد في شهر يناير 1928م، والأرجح أنهم نقلوا بتحريض درديري أحمد سليمان.

ويبلغ محمد بشير خير الآن (1932م) التاسعة والعشرين، وهو لما يتم السنة الأولي من دراسة القانون بكلية القاهرة، ويبلغ يعقوب عثمان يعقوب العشرين، وحصل علي الدراسة الثانوية من مدرسة الأمير فاروق بالقاهرة هذا العام، ولا نعلم ماذا ينوي أن يفعل بعد ذلك.

ويبلغ بخيت محمد عمر التاسعة عشر من العمر، وقد درس الطب بعض الوقت علي نفقته الخاصة، واقترح هو أن يبحر إلى انجلترا يوم 28 نوفمبر سنة 1932م ليدرس الطب في أدنبرة بعد أن وجد ت لجنة البعثات، التابعة لوزارة المعارف المصرية مكانا له بها. ويبدو أن أسرته ما يؤكد أنه في السودان تقوم بدفع نفقاته، وليس لدينا في الوقت الحالي غادر مصر بالفعل.

القسم الثالث:

الطلبة الذين غادروا البلاد على نفقاتهم الخاصة، وبموافقة أهلهم، لإتمام دراستهم في بيروت أو غيرها من الجامعات الأجنبية.

وينقسم هؤلاء إلى فئتين:

الشبان الذين رفضوا التوظف في الحكومة السودانية، بعد تخرجهم بكلية غردون، من أجل البقاء أحرارا لإتمام دراستهم الجامعية، وهم:

الإسم	القبيلة	سنة التحاقهم	تخرجهم
فؤاد عبد العزيز القباني (طب)	*سوداني جده مصري*	1928م	لا يزال بها

معاوية محمد نور (آداب)	جعلي من أمدرمان	1928م	1931م
عبد الله العشري (علم الحياة)	شلوك راين - ضابط قديم يقطن أمدرمان (لم تعرف شهادته)	1929م	1932م

عندما أتم فؤاد عبد العزيز القباني سنته الرابعة في كلية غردون رسب في امتحان القبول في مدرسة كتشنر للطب، ثم عمل لفترة ما كمساعد في أحد المعامل الكيماوية، ولكنه استقال وسافر إلى بيروت، وربما ظل هناك سنوات عديدة مقبلة، لأنه رجل لم يحرز قسطا وافرا من الذكاء، ويكاد يكون من المحقق أنه سيرسب وسيفشل في نيل الشهادة.

أما معاوية محمد نور فقد أتم السنة الرابعة في القسم العالى بكلية غردون في سنة 1927م، واختير للالتحاق بمدرسة كتشنر للطب، ولكن يبدو أن الطب لم يكن على هواه، وعندما حاول أهله (على خطأ) أن يجبروه على إتمام دراسة الطب فرَّ إلى القاهرة. وهنالك عرف مكانه وأعيد إلى كلية كتشنر، ولكن أهله أدركوا خطأهم في الحال، ووافقوا على إرساله إلى جامعة بيروت، في سنة 1928م.

وأما عبد الله العشري فقد كان في السنة الرابعة بالقسم العلمي بكلية غردون، ولكنه كان يتلهف على دراسة (علم الحياة) تلهفا أخلَّ بميزانه العقلي، فقام بأعمال اضطرت إدارة المدرسة إلى فصله في شهر فبراير سنة 1929م. وبالرغم من أنه فصل من الكلية، إلا انه مع ذلك يضم إلى طبقة الطلبة الذين غادروها ليتموا دراستهم في الخارج.

وقد سافر عبد الله العشري إلى بيروت، في سنة 1929م، وعاد إلى الخرطوم في شتاء سنة 1931 - 1932م. وخامره الأمل بعدئذ في أن يتم دراسة في برمنجهام، بإنجلترا، ولكنه لم ينفذ هذا حتى الآن، ويكاد يكون المحقق أن معينه المالي لايمكنه من هذا.

الشبان الذين لم يمنحوا وظيفة مع استكمالهم للدراسة الثانوية، أو الذين لم تكن لهم وظائف ملائمة. وكل هؤلاء من الشبان الذين أتموا دراستهم إلى السنة الخامسة بكلية غردون، في سنة 1924م، وذهبوا إلى بيروت:

الإسم	القبيلة	إلى بيروت
إبراهيم الطاهر	تعايشي	1932م
يوسف بدوى (كيميائي)	رباطابي	1932م
إسماعيل محمد سعيد (طبيب)	قنجاري	1932م

الاسم	القبيلة	إلى بيروت
محمد عبد العال (مدرسة الزراعة)	قنجارى	1932م
جلال الدين عبد المجيد	محسي	1932م

لا يوجد هنالك أحد ممن درسوا في المدارس الخاصة، أي بمعنى آخر دراسة غير خاضعة للحكومة أو ممن يتخرجوا من الجامعات الأجنبية فيما عدا الجامعة الأزهرية.

في حالة الجماعة التي قصدت بيروت أصدرت بعض القرارات (انظر الفقرة 4 التالية).

أما الجماعة التي قصدت إلى القاهرة، فهي التي تزداد الآن باطراد، ولو أن العدد الذي تتضمنه لا يزال قليلا. هذه الجماعة التي تمثل المشكلة (التي سنفصلها في فقرة 8).

بالنسبة للطلبة الفارين

عندما فرَّ ثلاث من طلبة المدارس سنة 1928م، تقدم ناظر كلية غردون ببعض التوصيات إلى السكرتير الإدارى.

فقد أوصى بإبلاغهم أنهم إذا لم يرجعوا في الحال فهم سيتعرضون لما يلي:

1- الحرمان من جميع الوظائف الحكومية في السودان،
2- من السماح لهم بممارسة مهنة المحاماة، أو رفع الدعاوى، أمام المحاكم السودانية (وكان المعتقد بهم أنهم ينوون دراسة الحقوق في كلية الحقوق المصرية في الجيزة).

3- مطالبة الذين كانوا معفيين منهم من دفع المصروفات بدفع ما تكفلت به الحكومة لتعليمهم.

4- وقد ناقش رؤساء التعليم والسكرتير الإداري هذه التوصيات، ثم عرض الأمر على سعادة الحاكم العام، فصدرت التعليمات إلى وكيل حكومة السودان في مصر للاتصال بهؤلاء الطلبة. وكانت الرسالة التي كلف بإبلاغهم إياها (وقد وافق سعادة الحاكم العام عليها) هي أنهم لن يعينوا في المستقبل في وظيفة حكومية، أو يتلقوا أى مساعدة حكومية لتعينهم على مواجهة مستقبلهم. وهم يدركون الآن - بوصفهم سودانيين ـ أننا لا نستطيع أن نرفض دخولهم.

5- ومن المؤكد أننا إذا حاولنا، أو لم نحاول عدم تشجيعهم، فإننا سنتلقى بعد مضي سنين قلائل طلبات من بعضهم بالسماح لهم بالعودة إلى السودان.

فإذا حدث وغادروا في أي وقت إلى السودان، فإن هذا التحريم المضروب على توظيفهم في الحكومة ينبغى بلا جدال أن يظل مفروضا.

وفي رأيي أنه من الخطأ عرقلة جهودهم فيما يتعلق بانشغالهم بالأعمال الحرة، كرفض السماح بممارسة مهنة المحاماة أو الطب - هذا بفرض أنهم حاصلون على المؤهلات الكافية - لمجرد أنهم من الطلبة الذين تغيبوا عن مدارسهم بدون إذن.

أما تهديدهم بطلب دفع مصروفاتهم، فقد كان يقصد به كما أعتقد عدم تشجيع غيرهم على الطلبة من الفرار من مدارسهم.

6- ولم يكن القصد من اتخاذ القرار الخاص بالجماعة التي قصدت بيروت 1928م توقيع العقوبة على هؤلاء الفارين ، ولكن كان المقصود منع غيرهم من الطلبة من أن يحذو حذوهم.

فإذا أُخذت على هذه الصورة، فإنها تكون قد أدت إلى النتيجة المرجوة، إذ منذ سنة 1928م لم يحذُ أحد حذو هذه الجماعة.

7- وفي أثناء العطلة المدرسية لسنة 1929- 1930م، حاول طالب أو طالبان زيارة القاهرة، تحدوهم فكرة غامضة، هي الاعتماد على كرم الأمير عمر طوسون. ولكننا عملنا على إرجاعهم قبل أن يرتكبوا هذه الفعلة، أو أن يصيبهم أي ضرر من جرائها.

وقد رجعوا إلى السودان مفلسين بتصاريح مجانية، من مكتب وكيل حكومة السودان بمصر، على أنهم من المعوزين .

وفي يوليو 1931م بعد إصدار البيان الخاص بإنقاص مربوط مرتب الدرجة الأخيرة، حاول محمد عبد الكريم، الطالب بالسنة الرابعة، بكلية

غردون، وأحد زعماء الطلبة المضربين، حاول الفرار إلى القاهرة، ولكن أقاربه لحقوا به في حلفا وأعادوه.

وفي أثناء الإضراب هتف بعض الطلبة بالفرار بالجملة إلى مصر. ولكن لم يحدث شيء من هذا القبيل.

ومما هو جدير بأن نوليه اهتماما، أنه بالرغم من عدم تأييد ماقام به توفيق أحمد وشريكاه، فإن فكرة الهرب إلى مصر، أو إلى أي مكان آخر سترتسم في ذهن أي طالب هنا، كنظرية لها أكبر الأثر، لاحتجاج الفرد ضد سوء الإدارة الحكومية في الأمور المتعلقة بتعليمه ومستقبله.

ولكن على الرغم من أن الطالب سيردد فكرة الحديث من الهرب كثيرا، فإنه من الوجهة العملية لن يفكر في ذ لك عندما يتم نضجه، بل سيقبل عدم الفرار والبقاء، ويرجع هذا إلى أسباب متعددة ومنها:

أ - إن الحكومة لا تقتصر على إرسال الطلبة المختارين إلى التعليم العالي في الخارج فحسب، بل أنها لا تضع العراقيل أمام التعليم العالي في الخارج للأفراد الذين يمكنهم الإنفاق على أنفسهم.

ب- إن قرارات التحريم التي اتخذت في سنة 1928م لا تزال سارية المفعول، وهي الخاصة بحرمان الطلبة الذين يتعلمون في مصر فقط.

ج - الآباء والأقارب في حالة ضنك شديد، ومهما كان الدافع الذي دفعهم بالأمس لإرسال أولادهم إلى الخارج، فإنهم لا يستطيعون اليوم تحمل هذه الأعباء.

د- لا يوجد في الحكومة غير وظائف محدودة لخريجي كلية غرون، ويرى كل فرد أمامه فرصة للحصول على إحدى الوظائف، وأنه لن يكون هناك أي تحيز أمام فرصته، إذا فشل في إتمام علومه المدرسية.

هـ - أخذ الإغراء بالذهاب إلى مصر يضمحل بوضوح.

8- أما المجموعة التي تمثل لنا المشكلة الحقيقية، فهي التي ذهبت إلى مصر.

فمن وجهة النظر السياسية، فإن الجماعة التي ذهبت إلى بيروت، لهم بوجه خاص إدارة الأمن العام. ولو أن الذي يطبق عليها هو نفسه الذي يطبق على جامعة القاهرة.

وإني أعتقد أن خطورة بيروت، التي تعتبر منبعا للآراء الوطنية، ومنارا للوطنيين في الشرق الأدنى، هذه الخطورة تتجسم بوضوح في المقتطفات التالية من رسالة تلقاها حاكم كسلا (خطاب رقم 59445، بتاريخ 1931/4/8م):

" إن الشرق الأوسط في اضطراب، ويتركز هذا الاضطراب في فلسطين وسوريا. وهنالك اتجاه مؤكد يرمي إلى توقيع ميثاق بين العراق،

والحجاز، وشرق الأردن، لمناهضة الاتحاد العربي، الذي يقال إنه هدف بريطانيا. وليس هذا مكان المناقشة في احتمال عقد مثل هذا الميثاق العربي، أو ما يحتمل من أن يصبح حقيقة فعلية ذات طابع سياسي، ولكن حيثما توجد أي حركة من هذا القبيل، يلتف حولها السياسيون المهتمون من الدول الإسلامية، وغيرها من الدول المجاورة، التي تعطف على مثل هذه الحركات.

إن لبنان أصبح الآن مكان اجتماع السياسيين القادمين من العراق ومصر. عليه يجتمع الوزير الوفدي السابق، بأمثاله القادمين من بغداد، حيث تستغل الصحافة العربية بطولة رجل كالنحاس باشا مثلا. ولقد كانت جنازة السيد محمد علي الهندي المعروف [56]، والحديث عن إنشاء جامعة إسلامية في القدس، مظهرين من مظاهر الوحدة الإسلامية وأماني المسلمين. والمعتقد أن الهيئات الشيوعية تستغل آمال العرب في الوحدة.

وليس من الضروري أن يعود طلبتنا وقد أصيبوا بهذا الاتجاه، بل يكونون على الأقل قد تعرضوا للإصابة به، وقد أكد المرحوم عطية بك ذلك في نوفمبر سنة 1920م، عندما قال ينبغي عدم التقليل من أهمية الشعور الذي يتيقظ بين الشباب المحمدي في العالم العربي في الشرق الأوسط.

إن بيروت هي مركز الاتصال لجميع هذه الجنسيات، لا سيما وأنه في يوم من الأيام، سيظهر من هذا الجيل الذي يتلقى العلم الآن عدد من السياسيين والحكام في الشرق الأوسط.

حقا إنه لا يوجد في الوقت الحاضر ما يدل على وجود الثقة المتبادلة بين الساسة والحكام، الذين يتولون مصائر الأمور في مختلف الدول. بل إنهم لا يعرفون بعضهم بعضا إلا عن طريق شهرتهم، وسيختلف الأمر في المستقبل القريب، عندما يتخرج من بين الطلبة الذين كانوا في فصول واحدة معا، وعرفوا بعضهم بعضا جيدا كشبان، لاسيما وأنهم يشتركون في الاعتقاد القائل

من مجاهدي الهند الكبار في سبيل استقلالها القومي، ومن الدعاة إلى فكرة إبقاء دولة الخلافة الإسلامية في تركيا، وقد اشتد جهاده في هذا المنحى بعد تسرب أنباء متتالية، تحدثت على سبيل التمهيد، عن اتجاه مصطفى كمال أتاتورك لإلغاء الخلافة وإعلان الجمهورية، وحينها استخدم مولانا محمد علي نفوذه السياسي في حزب المؤتمر الهندي محاولا إقناع الإنجليز بمنع أتاتورك من هذا التوجه، إلا إنهم لم يستجيبوا لطلبه، فقام بالتعاون مع شقيقه مولانا شوكت علي، ومولانا أبي الكلام آزاد بإنشاء (حركة خلافة)، للجهاد من أجل استعادة الخلافة الجامعة. وفي عام 1923 انتخب مولانا محمد علي رئيسا لحزب المؤتمر الهندي، وكان سادس رئيس مسلم لهذا الحزب. ومات في سنة 1931م. وينبغي التمييز بين مولانا محمد علي، هذا المجاهد السني الضليع، وبين وسَميِّه القادياني.

56

إن الإسلام يعانى اضطهادا مقصودا من المسيحية الغربية، وسيخرج من هؤلاء زعماء سياسيون وثقافيون في مختلف الدول ".

9- وإن ما ينطبق على بيروت ينطبق على القاهرة بصورة مصغرة، حيث يتعرض طلابنا فيها لمثل هذه العدوى السياسة. بل إن في القاهرة خطر آخر، فإن حزب الوفد والحزب الوطني (يختلفان عن حزب الاتحاد العربي، والاتحاد الإسلامي، الذين لم يتخذا شكلا واضحا في الشرق الأدنى عموما)، هذان الحزبان هيئتا، ولاشك أنهما يبحثان عن أنصار مهيجين. وإذا كنت قد غاليتُ في شرح الموضوع أو لم أغال، فإن السودانيين العائدين من بيروت يجب أن يكونوا موضع اهتمامنا إذا لم يكونوا مصدر الثقة لنا.

10- ومن وجهة نظر ضمان الأمن، من الناحية السياسية في البلاد، فإن الأفضل أن يعين هؤلاء المتعلمون، بدلا من أن يبقوا عاطلين. لا لإيجاد ما يشغلهم فحسب، بل لأن تعيينهم في الحكومة يفرض عليهم احترامها، والاعتراف بالدور الذي تقوم به من أجلهم. فإن العمل في الحكومة يجعل لهم نصيبا في العمل والنظام القائم، مما يساعد على وقوفهم بجانب الحكومة في أوقات القلق السياسي، إذا ما أغرتهم الجبهات المعارضة والحكومة.

وإذا كان الشباب المتعلم يهتم بالمسائل السياسية (وهذا طبيعي)، أولا يهتم بها، فإن ذهابه ليتلقى التعليم في المعاهد الأجنبية، على حسابه الخاص أمر لا يعيب، ويجب ألا يؤدي إلى حرمانه من الوظائف الحكومية.

11- وقد تناول مستر ماثيو مسألة هؤلاء في الجزء الثاني من مذكراته، بتاريخ 193/1/29م. وفي هذا الجزء الثاني من الفقرة الأولى، يتحدث عن الشبان الذين ذهبوا إلى القاهرة، ويبدو من النتائج التي توصل إليها (إلا إذا كان يقصد - كما بدا لي - بالحديث عن الأطباء ومساعدي العمال فقط) أنه يجب أن نجتث أي عطف من قلوبنا، ونرفض رفضا باتا تعيين هؤلاء الشبان في الوظائف الحكومية عند رجوعهم، وإلا فإننا سنقفل الباب في وجه بعض الذين قمنا على تعليمهم بأنفسنا.

ويقول مسيو ماثيو بعد ذلك، وفي نفس المذكرة ما يلي:" وإلى أن يأتي الوقت الذي نرى فيه جميع طلبة كلية غردون الذين قمنا على تعليمهم بأنفسنا، والذين لا توجد لهم وظائف حكومية راضين حتى ذلك الوقت، فإننا لا نستطيع تعيين طالب حاصل على شهادة جامعية إلا إذا كان سيشغل وظيفة معدة له.

وإنني لا أكاد أفهم بالضبط ما يقصد مستر ماثيو بهذا القول. ويبدو لي أنه بينما يعيد قوله بعدم تشجيع الطلبة، غير القادرين على هضم التعليم الجامعي على السفر إلى الخارج، نراه يجادل بوجوب إيجاد مركز للطالب الذي يحصل على تعليم جامعي من الخارج ثم يعود فعلا إلى السودان.

12- وإن الضرورة الاقتصادية ستحمل المتعطلين من خريجي كلية غردون إلى الرجوع إلى الزراعة والتجارة (كما حملت جميع معظم المتعطلين من خريجي السنة الرابعة في سنة 1921م وقائمتهم مرفقة بهذه المذكرة).
ولقد علمت بأن عدد خريجي كلية غردون سيزداد إلى درجة يتعذر معها تعينهم في الحكومة، إلا أن الفائض السنوي من هولاء الخريجين (أي الذي لا يجد مجالا في الحكومة، أو في الأعمال المدنية الأخرى، هم شباب صغار، غير ناضجين، تتفاوت نسبة ذكائهم، وما زالوا في حاجة إلى التربية لصغر سنهم. وهؤلاء لا يهددون الأمن، كما يهدده أي عدد، مهما كان صغيرا من السودانيين من خريجي الجامعات الأجنبية الذين وصلوا إلى سن لا يسمح لهم بترك (بنطلوناتهم) وإبدالها بالجلابية. وقد زاد في مقدرتهم على خلق المتاعب نضوجهم وذكاؤهم وخبرتهم.
13- يوافق السكرتير الإداري على رأى مستر ماثيو. وقد وافق صاحب السعادة على النتائج التي جاءت في المذكرة.
14- وعندما قدَّم معاوية محمد نور (وهو في القاهرة) طلبا بالتعيين في حكومة السودان، قدمت الطلب مع تعليقي عليه إلى مستر وينر، مدير مصلحة المعارف، وذكرت له أنه ليس من الصواب سياسيا أن نرفض تعيين سودانيين أكْفَاء لمجرد أنهم قاموا بتوسيع مداركهم على نفقتهم الخاصة بمعاهد أجنبية، تاركين معاهد حكومة السودان.
وقد ذكرت للسكرتير الإداري أننا إذا اعتبرنا المسألة عملية تجارية، وبغض النظر عن التزامنا نحو الطلبة الذين تلقوا تعليمهم في السودان، فإن بعض الناس الذين يتخرجون من جامعات أجنبية ثروة أنفع لحكومة السودان من 90% من الخريجين المحليين. وقد أخبرني مستر وينر بعد ذلك بموافقة الحاكم العام على مذكرة مستر ماثيو التي سبق ذكرها، ووضع السكرتير الإداري اسم معاوية في قائمة المرشحين المتعينين، ولكنه لم يوضح لي ما إذا كان تعليم معاوية العالي، ونسبة ذكائه، سيكون لها أي قيمة عند التعيين، إذا خلت بعض الوظائف.
15- ومن وجهة نظر مكتب أبحاث الأمن العام، وإذا نظرنا إلى مشكلة السودانيين، الذين ينالون شهادات من جامعات أجنبية نظرة واقعية، فإنها تسبب لنا حرجا ومتاعب سياسية جمة. وخصوصا في هذا الظرف الذي يمر به السودان. ونحن لا نريد المحامي الأهلي الذي سبب دمار مصر كما دمر سيلان. وكثيرا ما وجدنا في تاريخ العالم أن البلدان الصغيرة والفقيرة (أو المتأخرة) لا تتمكن من قبول أبنائها غير العاديين الذين اضطروا على كسب عيشهم.

(وهذا لفظ كثيرا ما استعمله مفكرونا السابقون في بلاد غير بلادهم). وإن أمثال معاوية يجب أن نبذل لهم النصح لصالحهم، لذلك فقد نصحتهم في يوليو من هذه السنة، أن يقدموا مؤهلاتهم للبيع، في الأسواق التي حصلوا فيها على هذه المؤهلات. وإذا استطعنا أن نمنعهم من الرجوع فهذا أصلح لنا، أما إذا رجعوا فعلا، كما فعل معاوية، فسيخلقون لنا مشكلة لا تحل.

ويبدو لي أنه إذا فشل معاوية في مسعاه للحصول على عمل في الحكومة، فهو سيعود إلى القاهرة، ويكسب عيشه في العمل في الصحافة، وسوف يشعر بخيبة أمل، ولكنه سوف لا يكون ناقما على شيء، ولكن حتى إذا تمكنا بهذه الطريقة، من التخلص من معاوية، فإننا لن نحل المشكلة التي يخلقها أمثاله.

16- وآخر ما ذكره صاحب السعادة في مسألة معاوية، هو أن معاوية لن يحصل على وظيفة حكومية بطبيعة الحال. وأن مسألة قبول أو رفض أمثاله، يمكن وضعها على بساط البحث، عندما توجد وظائف خاليه لهم. ولا شك أن هذا يتطلب البت فيما إذا كان سيخلق وظائف للأحوال الاستثنائية أم لا.

17- وفيما يتعلق بالالتماس المقدم من معاوية لسعادة الحاكم العام، فإن مظهره وأسلوبه سواء بسواء، أدعى إلى أن يكون دليلا سلبيا عليه. لأن السوداني الذي يتزيا بالزي الأوروبي، ويلبس الرباط الأصفر، إنما يبدو في نظر من لا يعطف عليه شخصا كثير الهزر، متكبرا، غير جذاب، وأن كل شي فيه ليدل على نبوغ سطحي.

ولكن معاوية قلما ينصف نفسه ، فإن أسلوبه لا يمكن أن يتخذ قرينة ضده. فهو (معاوية) يعتبر حالة استثنائية. إنه مقتدر بدون أدنى شك. وإذا كان لي أن أصدر حكما عليه، فإني موقن بأنه أمين، وأنه لعلى خلق ، وذو إرادة، وأعتقد أنه قد اكتسب رزانة وثباتا.

على أن طلبه ليكون مدرسا قد رفض، وأنا لا أستطيع أن أعينه هنا في مكتب أبحاث الأمن العام، وقد يهيئ له المستقبل عملا في مكتب القاهرة (كأن يقوم على سبيل المثال بتلخيص الصحف المصرية، أو أن يحل محل أحد السوريين في مصلحة المالية. وأنى لأتقدم بهذه المقترحات بتحفظ، ولكنها قد تكون جديرة بالاعتبار. فإذا أفلحنا في تأديبه، بسبب تململه، وخداعه لنفسه، فإننا نكون، على الأقل، حددنا موقفنا بالنسبة إليه.

أرفق مع هذه ثلاث مذكرات رقم: (ب. س. د) بخصوص مسألة توظيف معاوية. وهي مذكرات لناظر كلية غردون، ولمساعد وكيل حكومة السودان، في القاهرة، (المستر هاملتون)، والمذكرة الأخيرة لمدير مكتب أبحاث الأمن العام. وقد كتبت كلها في مستهل هذه السنة، أثناء وجود معاوية في القاهرة، وهي تمثل ثلاث وجهات مختلفة.

*   *   *

للتخليص:

يتبين أن وجهة نظر مكتب أبحاث الأمن العام:

(1) إننا لا نريد هؤلاء الخريجين الأجانب هنا، وقد تأهبنا لنسير شوطا بعيدا في عدم تشجيعهم على العودة.

(2) ولو أنهم عادوا فإننا نفضل إن يوظفوا، والواقع أن مطالبهم بالعمل تخلق مشكلة في غاية التعقيد.

(3) فإذا عادوا وظلوا بدون وظائف، فإننا على استعداد تام لأن نلزمهم حدودهم.

الخرطوم

12/24 /1932م

مستخرج من مذكرة المستر و. س . وليمز (ناظر مدرسة كلية غردون) عن مسألة معاوية محمد نور بتاريخ 1932/1/12م

إنه في الوقت الحاضر يطلب عملا من حكومة السودان، وإن خاله يرغب أشد الرغبة في أن يوفق معاوية إلى الحصول على عمل كهذا. والصبي يتيم ويعتبر بالنسبة للسوداني العادي على درجة كبيرة من الذكاء وسعة الإطلاع. وقد كان نابغة في الكلية بذكائه وسعة إطلاعه. فلو أنه لم يجد عملا مناسبا، أو أن الحكومة رفضت خدماته نهائيا، فقد يصبح بالنسبة لنا في المستقبل مصدرا للقلق والمتاعب.

وفي اعتقادي أنه ينبغي للحكومة أن تستفيد من أمثاله، ولابد أن يكون هناك على وجه التأكيد مكان يليق به.

فلقد تخرج بنجاح في جامعة ببيروت، وكانت التقارير التي تكتب عن أعماله هناك مرضية على الدوام.

وإن له نفس المؤهلات التي تتوفر للسوري العادي، الذي توظفه الحكومة، في مصلحة المالية، أو غيرها من المصالح.

وإننى لعلى يقين من أننا ـ برفضنا إيجاد عمل له ـ إنما نخسر فرصة هامة: نكسب خدمات سوداني ذكي معنا.

كما نخسر فرصة ربط مصالحه بمصالح الحكومة.

كما أننا نخزن مصدرا لمتاعب محتملة الوقوع في المستقبل. ولربما أخطئ، بالطبع، لأن الإنسان لا يستطيع أن يضمن شيئا بالنسبة لسوداني.

ولكنني على يقين من أنه يستحق أن يوضع موضع التجربة.

مذكرة إلى مدير مصلحة التعليم من مدير مصلحة الأمن العام

أولا: أوافق على أن معاوية محمد نور مشكلة، ولكني أشك في أننا نبالغ في الاهتمام بضرورة حلها.

وليس في المسألة ـ كما يقول هو ـ شيئ شخصي، لأنها مشكلة تتعلق بكل من هم على شاكلته. وفيما يلي ما اختلفنا ـ على الأرجح - فيه:

ثانيا: من المتفق عليه أن معاوية شخص موهوب وذكي جدا، أي أنه يمتاز على رفقائه السودانيين جميعا. وقد أتم تعليمة في كلية غردون، وعندئذ واجه محاولة خاطئة لإ جباره على دراسة الطب، ففرَّ وقبض عليه في القاهرة، وأعيد إلى الخرطوم ليقضى المدة الباقية له في مدرسة الطب. ولما رفض مرة أخرى، أخرجه الوصِيّيُّ عليه من المدرسة، وأخذ على عاتقه أن يعلمه بنفسه، وقد قام بهذا العمل.

وإذا اعترفنا بذلك بكفاءته، (ونحن هنا لا نعني مظهره وروحه الطيبتين اللطيفتين)، وبمدى علمه، فما هو الموقف؟

إنك تصر على استخدامه في الحال. فلماذا؟

ليس هنا سوى سبب معقول واحد لاستخدامه قبل غيره. وهو أنه أكفأ منهم.

ولكن هل هو كذلك من وجهة نظر الحكومة؟

إنني أشك في هذا.

إنني أحب أن أراه في خدمة الحكومة، ولكن أين؟

إن جميع المسؤولين متفقون على أنه لن يكون ذا فائدة كمدرس. وقد كتب صمويل بك بنفسه يقول إنه في رأيه لا يصلح للعمل في مكتبه.

فهل نعتقد أنه يستطيع أن يقوم بعمل عادى أو عمل كتابي؟!

أما أنا فأشك في أنه يستطيع أن يستمر في العمل العادي أو الكتابي وقتا طويلا.

الواقع إنه لا يصلح للخدمة في مثل هذا العمل في مكتبه، فهل نعتقد أنه يستطيع أن يقوم بعمل عادي أو إي عمل كتابي على وتيرة واحدة؟!

كما أنه ليس جادا أو عاقلا إلى درجة تؤهله لتولي عمل رئيسي، مثل الأعمال التي يقوم بها مكتبنا.

بل إنه في الواقع ليس من النوع الذي تريده الحكومة لتولي أعمالها.

خبِّرني هل تنصح شابا إنجليزيا مثل معاوية في الذكاء بأن يقبل عملا في البريد؟!

إنـه لا يمكـن أن تفكـر حتـى فـي هـذه النصـيحة، فـإن مثـل هـذا العمـل يعتبـر تكرارا لما قمنا به من محاولة لإجبار معاوية على تعلم الطب**!**

وإن ما يقوله معاوية صحيح، فإن الحكومة لا تريد انتشار التعليم العالى، وإن الحكومة محقة، وإن معاوية ينسب هذا لتخوف الحكومـة، وأنـت تعلـم كمـا أعلم، أن السبب هو أن السودانيين لا زالوا غيـر قـادرين علـى (هضـم) التعلـيم العالى**!**

إن النمـو الإجبـاري لا يبقـى طـويلا، وإن الطالـب العـالى لشـيئ محـرج ومتعب من الناحية السياسية. وحيثما كان منشأه فإنـه لابـد أن يعـانى نوعـا مـن (سوء الهضم)، ولابد أن يؤدى به إلى الخراب في معظم الحالات**!**

ثالثا: لقد خـرج معاويـة عن حده، ويجـب علـى أن أنصـحه، بـالتخلي عـن فكـرة العـودة إلـى الخرطـوم، فهـي عـودة إلـى المـوت العقلـي، وهـو وصـف صحيح، وإذا أُجْرىَ في العـام القـادم، أو العـام الـذي يليـه، امتحـان عـام، لتـولى الوظائف الحكومية، ففي استطاعته أن يقدم له وأن ينجح فيه.

إن معاويـة ذكـى بدرجـة تكفـي لأن يـدرك أن التعلـيم لـيس مـن أجـل العلـم وحـده، ولقـد اتبـع فـي تعليمـه طريقـا دفـع بـه إلـى عـدم الاسـتقرار، وإلـى عـدم الصلاحية للعمل الحكومي.

وربما كان هذا الوصف له قاسيا، ولكنـي لا أستطيع أن أرى كيف أن صـحفيا أديبا ناجحا هو الوحيد في مصـر الـذي اجتمـع بأندريـه موروا، وتحـدوه رغبـة قوية في العودة إلى الخرطوم، حيث لا ينتظر مواهبه سوى الموت والاندثار.

إن معاوية لن يموت جوعا، ومن المؤكد أنـه يستطيع أن يعمـل كمصـحح، براتب ثلاث جنيهات في الشهر كزكي عبد السيد. وإنى لا أفهم لمـاذا لا يعمـل في ميدان الصحافة السياسية، أو لماذا لا يكتب لـ (المقطم) أو (الأهرام)؟**!**

أعتقد أن عليك كصديق لمعاوية أن تقول له: ابق حيث أنت هذه السنة على الأقل".

الخرطوم

32/7/5

التوقيع:

مدير الأمن العام

*   *   *

مستخرج من خطاب بعث به مستر أ. دي. هاملتون (مساعد وكيل حكومة السودان) إلى مستر ي. م. نوراكرس
الخطاب رقم 112- ب - 5 مؤرخ 23 أغسطس سنة 1932م

إنـي آسـف لإزعاجـك مـرة أخـرى بخصـوص مسـألة (معاويـة) المثيـرة، ولكني لا أستطيع مقاومة شعوري بأننا نرتكب خطأ جسيما نحوه.

إن وجهة نظري تتلخص في أن الموضوع يعد ضرورة حكومية، وأعتقد أن هذا الرجل إذا عومل بشيء من الحكمة، فقد يثبت أنه ذو نفع شديد لنـا فـي المستقبل، للتأثير على الشباب السودانيين.

إني على علم تام بأن (معاوية) قد كف عن المطالبة بمساعدة الحكومـة لـه، وذلك بأن الرجـل هجر دراسته الطبيـة، وأنـا علـى استعداد لتصديق ما يقولـه رجال التعليم، من أنهم لا يستطيعون الانتفاع بخِدماته بأي شكل، ولكنـي أعتقد أن ذلك أمر مؤسف.

وأنا أدرك أيضا تمام الإدراك أن فترة الاكتفاء الحالية ليست مناسبة لخلـق مناصب جديدة، إلا إذا كان هنالك مبرر خاص قوى يقضي بذلك.

وأنا مقتنع فعلا بان حالة (معاوية) من الحـالات التـي تستحق التأييد. إنـى أستطيع أن أحكم عليه بأنه يتمتع بذهن صاف متيقظ - و إن كان لا يبدو مهتما بالسياسـة - ولـه محصـول ثقـافي كبيـر، فقد كتـب رسـالة عظيمـة عـن أندريـه موروا.

وأنا أعتقد له عقيدة دينية خاصة، هي إيمانه بـأن العقل البشـرى ليست لـه الكفاية لفهم الوحي الإلهي [57].

---

1. لا ندري مدى دقة الوصف الذي أطلقه هذا الاستخباري على عقيدة معاوية محمد نور، ولا مدى صحة هذا الوصف، فإن عنى أن معاوية اعتقد أن الوحي أسمى مما تدركه العقول، فليس الأمر على إطلاقه، فمن قضايا الوحي ما تركه العقول بداهة، ومنها ما هو مُعلَّل بالمصلحة تعليلا ظاهرا. ومن قضايا الوحي ما لا تدركه العقول إذ إنه أكبر من طاقتها، ومثال ذلك ما ورد في القرآن الكريم من أمور الغيب، وما يوجد من عوالم خفية للملائكة والجن والشياطين، وغير ذلك من المسائل التي يطلب إلى المسلم الإيمان بها لأنها قد بلغته عن طريق المصدر المعصوم الذي هو الوحي الشريف. قال الله تعالى:(ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ). البقرة:2 - 3.

57

إنني لم أهتم إطلاقا بمساعدة الدرديري أحمد إسماعيل وبعض أصدقائه، ولكنـي أشـعر تمامـا أننـا نخسـر الشـيء الكثيـر، إذ نبـادر بإظهـار شـيء مـن المعَاهَدة والعطف على معاوية ".

إن عدد الشبان من السودانيين سيتزايد بطبيعة الأمور، ومن الواضح أن العقل يحتم علينا بأن نسيطرعليهم، لتوجيههم نحو الخير لا نحو الشر.

إن معاوية لن يكون زعيما في يوم من الأيام، ولكن أعلم أن لـه ميل خاص إلـى بعـض الحقـائق السياسـية، التـي تسـاعد دون شـك علـي تهدئـة الأفكـار الناشئة. إن له عقلية متدفقة، لكنها عقلية واقعية. ولقد صرح لي أنه إذا لم يجد ما يفعله في السودان فإنه سيجرب حظه في العراق وفلسطين.

إنني لا أستطيع مقاومة شعوري بأن الواجب يحتم علينا أن نفعل شيئاً من أجله. فهو أول سوداني يقدر حقيقة أهداف التعليم، وهو علي استعداد لأن يسلك طريقه الخاص. وإن حالته من الحالات التي يمكن أن توجه في نهاية الأمر إلى مصلحتنا.

مستند رقم

- s- petre - 1161

8 – 12 –1932م

*　　*　　*

التماس مقدم من معاوية محمد نور إلى الحاكم العام يطلب وظيفة حكومية مقدم مشروع رد مؤقت (موقع) ج. د . ن. س.

بتاريخ: 32/12/13م

ملاحظات (موقعه) م. ب - 32/12/13م

مذكرة بتاريخ: 32/12/24م

بتوقيع: س. ب. س .

أمن الطلبة السودانيين في الجامعات الخارجية ...الخ

1- مقدمة للاطلاع:

استغل مستر بيني التماس معاوية محمد نور كنقطة يبدأ منها لإقناع الحاكم العام لأخذ قرارعام في مسألة السودانيين الذين تخرجوا أو في طريقهم للتخرج من جامعات أجنبية.

2- المسألة المباشرة:

هي مسألة معاوية نفسه ولها مظهران:

أ- هل تعيينه مرغوب فيه لأسباب سياسية؟

ب- هل ينتظر أن يكون (ولدا طيبا) في وظيفته المدنية؟

3- بالنسبة إلى السؤال (أ):

(تكلم مستر يبني بقوة مؤيدا تعيينه). اطّلع بصفة خاصة علي الفقرتين 9 - 10. ولكن مسألة المناقشة مع الحاكم العام مسألة مبدأ قبل كل شي.

4- بالنسبة للسؤال (ب):

أقترح أن نقوم بالتجربة فهي تستحق التنفيذ. فأمامنا سوداني يتمتع بذكاء خاص، وإذا استطعنا تدريب هذا الذكاء وصقله ليسير في الطريقة السابقة فإنه قد يكون من النافع جدا تعيينه في أحد الوظائف التي يشغلها أجنبي.

5- وهنا يبرز سؤال:

هو ماهي الوظيفة التي يدرب فيها؟

إنى أشعر أن الجو الملائم لمثل هذه العقلية هو مصلحة المالية، وأنا أستطيع أن أؤكد أن هذه المصلحة قد تستفيد من مواهبه كثيرا.

إن عليه دون شك أن يبدأ من القاع، ليسلك طريقه نحو القمة. فليست له مؤهلات تسمح بتعيينه مباشرة في منتصف الطريق.

إن الأمر سيترك له ليشق طريقة إلى الارتفاع، وليس هنالك شك في أنه سيرتفع في نهاية الأمر إلى منصب من المناصب العديدة الكثيرة المسؤولية، التي يشغلها في الوقت الحاضر أشخاص بريطانيون أو سودانيون.

6- ينتظر أن تشغر وظيفة:

من الدرجة الثامنة في مصلحة المالية، ابتداءً من شهر يناير المقبل. وهذه هي الفرصة التي يمكننا استقلالها، فهل يرغب الحاكم العام في تعيينه؟

توقيع:

و. د.

27/ 12/ 1932م

1- إن مسألة معاوية تؤثر، في الواقع، على مسألة على جانب كبير من الأهمية. وانتهزت إدارة الأمن العام الفرصة فكتبت مذكرة للبحث في الموضوع كله عن مستقبل الطلبة السودانيين المتخرجين من جامعات مثل جامعة بيروت.

2- وقبل أن نناقش هذه الحالة الفردية، فإن المجموعتين (أ) & (ب) لا تثيران أي صعوبة.

3- إن المستر بيني يكتب عن الطائفة الثالثة (ج) من وجهة نظر سليمة، وبطريقة لا تخلو من العطف. وإنى أوافق على ما يذهب إليه. على أن هنالك أيضاً الرأى الذي يمثله ناظر كلية غردون، مستر هاملتون (انظر الملحقات (ب) و (ج) من مذكرة المستر بيني). وتراني أميل إلى هذا الرأى الأخير أيضا إلى حد كبير.

4- على أننا إذا نقلنا عمليا كل ما يقوله كل من المستر بينيى، وويليمز، وهاملتون، فإن ما يقولونه لا يحلُّ - بالرغم من ذلك - الصعوبات العملية المتمثلة في حالة معاوية، والتي يحتمل أن تنشأ حالة مثلها بالنسبة إلى من ينتمون إلى طائفته.

فإن المشكلة في صميمها هي كيف نوافق على تعيين هؤلاء السودانيين المتخرجين من جامعات أجنبية في وظائف حكومية بكيفية ترضي طموحهم المتولد عن تعليمهم في الجامعة. وذلك دون أن نسيىء إلى الآخرين الذين تدربوا في مدارسنا، والذين عينوا في مناصب صغيرة، وأخذوا يشقون طريقهم، مُصْعِدين في سلم الوظائف الحكومية.

5- ولو أننا قمنا بعقد امتحان الخدمة المدنية، (كما نرجو أن نفعل ذلك في وقت قريب)، فإنني أعتقد أنه سيكون من المحال أن نقبل في وظائف حكومية شخصا غير الذي مارس هذه الوظائف في السودان.

هذا وقد أقرَّني المستر فاس، الخبير المؤقت، الذي استشرته على وجهة نظري هذه.

على أن هذه المضاعفات الخاصة لم تنشأ بعد، ولكن الحقيقة الثابتة هي أنا قد جعلنا من امتحانات التخرج في كلية فكتوريا امتحانات دخول في خدمة الحكومة، ولذلك فإن علينا التزامات قبل من عينَّاه.

وإني لا أعتبر أن للمجموعة الثالثة الأسبقية بما يتعلق بمطالبهم أكثر من هؤلاء الذين لم يتموا دراستهم في كلية غردون.

6- فإذا بحثنا في هذه المسألة بالذات، كان معاوية على استعداد لأن يعمل في الحكومة، ابتداءً من درجة التعيين الأولي، ليشق طريقه بعد ذلك. وفي اعتقادي أنه يجب أن أمنحه عملا حكوميا، ولكن أشك في قَبول الوظيفة.

ثانيا رأيي على ما ورد في صفحات 9،23،24 26،49، (مصلحة الاستعلامات).

7- رقم السجل 30- 1305. إن قراءة هذا السجل على جانب كبير من الأهمية. ولقد أتيحت له (لمعاوية) فرص عديدة من قبل، ولكنه رفض منذ زمن وجيز وظيفة في (الحضارة)، بالرغم رغم سابق خبرته بالصحافة. ويبدو أنه يتوقع منصبا عاليا جدا ومرتبا حسنا، ولن يرضى بأقل من ذلك.

8- والنتيجة التي أحب أن أصل إليها هي: إذا كان معاوية، الذي يبلغ الآن الخامسة أو السادسة والعشرين من عمره، على استعداد لأن يتقبل منصبا متواضعا، كأن يعين في المالية مثلا، ثم يبدأ بالمرتب العادي، الذي يتقاضاه في العادة المعلمون الجدد، والمتخرجون من كلية فكتوريا، فإنه يجب أن يسمح له بذلك. وسواء تقدم أم لم يتقدم، فإن سرعة هذا التقدم، إنما تتوقف على براعته في تأدية واجبه، وعلى المدى الذي يبرهن فيه أنه أهل للترقية الخاصة، وإذا لم يكن على استعداد لقبول هذه الشروط، فإني أعتقد أنه يجب أن ننفض يدنا منه ليجد نفسه كما كان في الماضي.

9 - وفيما يتعلق بالمجموعة الثالثة، الذين قد يأتي ذكرهم فإني أعتقد (ويوافقني على ذلك المستر فاس) أنه ينبغي أن يكون لهم حق دخول امتحان الخدمة الإدارية، جنبا إلى جنب مع خريجي كلية غردون. وسيتوقف مستقبلهم في المحل الأول على نتيجة الامتحان، ومن ثم على استعداداتهم وأخلاقهم.

م. ي.

1933/1/5م

تناقشت مع السكرتير الإداري وإني أوافق على رأي: ج. ل.

33/12/11م

الفصل السادس
محاولات (الأدلجة) والتبنّي

الفصل السادس
محاولات (الأدلجة) والتبنِّي

في غضون الأعوام العشرة الأخيرة ونيّف نشط بعض أتباع الجماعات الإيدولوجية السودانية، في محاولات محمومة، تهدف إلى استقطاب الأستاذ معاوية محمد نور، ونصبه رمزا ملهما لاتجاهاتهم الفكرية الحزبية، التي تراوحت بين اتجاه الحزب الشيوعي السوداني، الذي مثله في هذا المسعى عضو لجنته المركزية، الأستاذ تاج السر عثمان بابو، واتجاه الحزب الجمهوري، الذي مثله أحد كتابه وناشطيه، الدكتور النور حمد، واتجاه حزب البعث العربي الاشتراكي (فرع العراق)، الذي مثله الأستاذ محمد بشير أحمد، الذي يتخفى وراء اسم عبد العزيز الصاوي. وسنتناول كلا منهم بكلمة موجزة، تعرض وجهة نظره ودعواه، ثم نأتي بما يرد عليها وينقضها من أساسها الرخو الذي شيدت عليه.

أولا: محاولة الأستاذ تاج السر عثمان

قد اهتم الناشط والكاتب الشيوعي الأستاذ تاج السر عثمان ببحث الجوانب النضالية في تاريخ الأستاذ معاوية محمد نور، وزعم أنه أعدَّ بحثا في هذه الجوانب، ضاع مخطوطه منه:" في أوائل الثمانينيات من القرن الماضي، في غمرة النشاط السري، حيث كنت أعمل في سكرتارية مديرية الخرطوم، في الحزب الشيوعي السوداني، ضد نظام الديكتاتور جعفر نميري" [58].

ولكنه بعد أن راجع أوراقه القديمة بعد انتفاضة مارس - إبريل 1985م، وجد:" ورقة من تلك المخطوطة فيها تعليق علي الأعمال الفلسفية لمعاوية والتي اعتبرتها من بدايات النشاط الفلسفي العلمي[59] في السودان

---

[58] تاج السر عثمان، في الذكري المئوية لمعاوية محمد نور(1909 - 1941). http://www.ahewar.org/debat/show.art.asp?aid=191105.

[59] النشاط الفلسفي لا يكون علمي الصفة والطابع، لأنه يعتمد على العقل مصدرا وحيدا للمعرفة، بينما تستمد العلوم معارفها من المصدر الحسي، وتعتمد على المنهج التجريبي في البحث، وشتان وشتان ما بين النهجين ، ولو اطلع الأستاذ تاج السر بوعي على كلام معاوية محمد نور بهذا الشأن لأدرك وجه الافتراق بين هذين اللونين من النشاط

في ثلاثينيات القرن الماضي وتم نشرها، ولابأس من إعادة نشرها مرة أخري بمناسبة الذكري المئوية لمعاوية نور "[60].

وبفهمه المضطرب للأمور الفلسفية والعلمية، وهو غير متخصص في أي منها، أراد الكاتب الشيوعي أن يقدم الناقد الأدبي معاوية محمد نور نصيرا للمذهب المادي في المعرفة ولمذهب الشك الفلسفي!

ووطأ الكاتب الشيوعي لتناوله لهذا الجانب الفلسفي المعرفي المزعوم لمعاوية بقوله:" اذا نظرنا بصورة عامة للفترة التي عاش فيها معاوية محمد نور، نجد أنها كانت تتميز بتطورات هائلة في العلوم الطبيعية، وانهيار النظريات القديمة في الفن والعلوم والفلسفة والسياسة، كما تميزت هذه الفترة بالثورات والهزات الاجتماعية مثل الثورة الاشتراكية في روسيا، ونهوض حركات التحرر الوطني في بلدان المستعمرات، كما تميزت بصعود الفاشية والنازية للحكم والأزمة الاقتصاية في أوائل الثلاثينيات "[61].

وذكر أن من بين:" أبرز التطورات التي حدثت في العلوم الطبيعية هي اكتشاف الإلكترون والبروتون وانشطار الذرة، مما أدي إلي انهيار الفرضيات القديمة حول المادة، والتي كرسّتها نظرية دالتون الذرية،

المعرفي، وبينهما وبين النشاط الأدبي. يقول معاوية في مقال له بعنوان (عالم القيم والنظريات في الآداب والفنون):" الفلسفة في أخصر تعبير وأسهله، لون من ألوان التفكير البشري، الذي يحاول أن يرى الكليات، وأن يبدع النظرة الشاملة التي تضم أشتات المظاهر والاحساسات تحت حقيقة واحدة، ترجع إليها وتتفرع منها هذه الظاهرة والأشكال المتعددة. بخلاف العلوم، التي تكتفي بالجزئيات وبالتحليل والوصف والشرح، دون التعميم والتكوين في أتم مظاهره وأعلى صوره، وبخلاف الأدب، الذي يعنى أشد ما يعنى بدرس الطبائع، ويصور الجمال في شتى حالاته وصوره". وتبعا لكلام معاوية هذا فإن النشاط الفلسفي لا يمكن أن يُدعى علميا، كما لا يمكن نعت النشاط العلمي بأنه فلسفي! راجع: معاوية محمد نور، دراسات في الأدب الحديث، مصدر سابق، ص 155.

59

[60] تاج السر عثمان، في الذكري المئوية لمعاوية محمد نور(1909 - 1941) مصدر سابق.

[61] المصدر السابق.

وانهيار المفاهيم القديمة حول المادة وتركيبها، بعد اكتشاف جسيمات أصغر من الذرة "[62].

وقال إن هذه الكشوف والتحولات المعرفية الجديدة أدت ببعض الفلاسفة المثاليين إلى الزعم بأن المادة قد تلاشت:" وترتبت علي ذلك نتائج حاول الفلاسفة المثاليون استغلالها لتوجيه ضربة قاصمة لنظرية المادية في المعرفة "[63].

وذكر أن المفكر والزعيم الشيوعي فيلاديمير لينين أرسل من طيات كتابه المعروف (المادية والمذهب النقدي التجريبي) ردا قويا على عدوان المذهب المثالي على المذهب المادي في المعرفة، وقد انصب مؤدى الرد اللينيني على التأكيد على:" أن الذي انهار ليس هو المادة، بل الفهم القديم عن المادة والمنهج المادي الميكانيكي في التفكير "، وعلى التأكيد من ثم على :"صحة المادية الديالكتيكية التي تقول بأن المادة لانهائية ولاتنفد، وانما تتغير وتتنوع أشكالها"[64]. وبهذا الجهد الفكري التجديدي حمى لينين النظرية الماركسية، وبالذات جانبها المادي الديالكتيكي، من الانهيار تحت وقع معاول المفكرين المثاليين.

هذا مع أن من المعروف أن فكرة المادية الديالكتيكية (أي الجدلية)، التي لهج بها هذا الشيوعي السوداني المعمِّر، هي أكثر فكرة تخلى عنها الماركسيون في الاتحاد السوفيتي السابق، وجمهورية الصين الشعبية، لأنها بدت لهم، بعد التجارب المريرة المتنوعة، فكرة مثالية حالمة، بل (طوبية) خيالية، وإن ادعى لها صاحبها الأصلي، كارل ماركس، وصاحبنا هذا السوداني، تاج السر عثمان بابو، أنها فكرة مادية واقعية صحيحة وخالدة.

لقد قدم كارل ماركس مفهوم المادية الجدلية، في أواسط وأوخر القرن قبل الماضي، ليفسر به تطورات الحياة البشرية من منطلق الصراع الطبقي، الذي زعم أنه الحقيقة الأولى في الحياة الإنسانية. إذ:" إن تاريخ جميع المجتمعات هو تاريخ صراع الطبقات " [65]. كما قال.

---

[62] المصدر السابق.

[63] المصدر السابق.

[64] المصدر السابق.

[65] كارل ماركس وفريدريك إنجلز، بيان الحزب الشيوعي، دار التقدم، موسكو، د. ت. ص 36 - 37.

وصراع الطبقات في نظر كارل ماركس عبارة عن صراع عنيف ضارٍ على المكاسب والامتيازات المادية، التي دفعت طبقات بعينها لاستغلال طبقات أخرى، ودعت الطبقات المظلومة إلى الثورة على ظالميها.
وفي تحليله لأسباب الصراع الطبقي ميَّز ماركس بين بنيتين اجتماعيتين أساسيتين هما: البنية التحتية والبنية الفوقية.
وأما التحتية فتشمل النواحي الاقتصادية في المجتمع، بما فيها أنماط الإنتاج وعلاقات العمل. وأما الفوقية فتشمل النواحي السياسية، والقانونية، والدينية، والعقائدية، والأدبية، والفنية، للمجتمع، والتي هي في مجملها ليست أكثر من مجرد انعكاس روحي وثقافي للبنية التحتية!
وفي تحليله للبنية التحتية جعلها قسمين هما: أنماط الإنتاج، علاقات الإنتاج. وأما أنماط الإنتاج فهي نظم الإنتاج الأساسية في المجتمع، وهي نظم تتغير بتطور الحضارة الإنسانية عبر العصور:" فالطاحونة اليدوية تعطيك مجتمعا نمط الإنتاج السائد فيه هو النمط الإقطاعي. وأما الطاحونة البخارية فإنها تعطيك مجتمعا نمط الإنتاج السائد فيه هو النمط الصناعي الرأسمالي "[66]. ومهما تبدل نمط الإنتاج فإن صفة واحدة على الأقل قد لازمت كل أنماط الإنتاج عبر التاريخ البشري وهي صفة ظلم الإنسان لأخيه الإنسان، أو بلغة أدق ظلم المُلَّاك وأصحاب رؤوس الأموال للعمال، الذين تم تهميشهم وتتبيعهم بصورة كاملة لإرادة الملاك والرأسماليين.
وأما (علاقات الإنتاج) فقد قصد بها صاحب فكرة المادية الجدلية نوع العلاقات التي تربط ما بين المخدِّم والمستخدَم، وهي علاقات تختلف باختلاف أنماط الإنتاج.
ففي نمط الإنتاج الإقطاعي مثلا، كانت علاقات الإنتاج التي تربط بين أصحاب العمل والعاملين علاقات شبه شخصية، تتضمن مسؤوليات واسعة متبادلة بين الطرفين.
وأما في نمط الإنتاج الرأسمالي فتتلخص علاقات الإنتاج في مجرد دفع الرأسماليين لمرتبات العاملين، كقيمة أو ثمن للعمل الذي يبذله هؤلاء في عمليات الانتاج من غير وجود أي روابط إنسانية أخرى.

---

[66] Marx, Karl, The Poverty of Philosophy, Charles H. & Co. Chicago, 1934, P. 73.

وهكذا شهدت كل حقبة تاريخية نمطا معينا للإنتاج، تشكلت طِبقا له شبكة مخصوصة من علاقات الإنتاج، متسقة ومتناغمة مع ذلك النمط الإنتاجي.
وتدريجيا تتالت التطورات في كل نمط إنتاجي حتى تحول إلى نمط إنتاج جديد، هذا بينما بقيت علاقات الإنتاج متجمدة على الشكل السابق.
ومن هنا انفجر التناقض والصراع بين نمط الإنتاج الجديد وعلاقات الإنتاج الموروثة من النمط السابق.
ومن التناقض بين أنماط الانتاج علاقات الانتاج، انفجرت الثورات التاريخية، التي نقلت النوع البشري عبر أنماط الإنتاج المختلفة، من نمط الشيوعية البدائية، إلى المجتمع العبودي، إلى المجتمع الاقطاعي، ثم إلى المجتمع الرأسمالي.
ولكن كل ثورة من هذه الثورات ما زادت، على حسب رأي ماركس، على أن دفعت بمقاليد القوة الاقتصادية والسياسية إلى طبقة اجتماعية جديدة، هيمنت على بقية الطبقات واضطهدتها.
وهذا ما أدى بماركس إلى أن يقرر بوضوح أن أسباب الاضطهاد والظلم الطبقي ترجع إلى قضية الملكية الخاصة لوسائل الإنتاج، فهي الآفة التي تنشأ عنها كافة الشرور والمظالم.
وادعى أنه بدون استئصال شأفة هذه الآفة، وقطع دابرها، سيظل التناقض مستمرا مهما تبدلت أنماط الانتاج وعلاقاته.
هذه هي الصورة الموجزة المعبرة تعبيرا سريعا صحيحا عن فكرة المادية الجدلية، وعن وجهة الفكر المادي الماركسي اللينيني برمته، فما علاقة معاوية محمد نور بكل ذلك، وهو الذي لم يكن ماركسيا ولا ماديا من الوجهة الفلسفية، ولا كان متعاطفا مع الماركسيين الماديين، بل كان على النقيض من ذلك تلميذا نجيبا مخلصا في مدرسة إمام الفكر عباس العقاد، الذي بعث أقوى نقد منطقي سُدِّد إلى وجه المذهب المادي الشيوعي على نطاق العالم أجمع؟!
للإجابة عن هذا السؤال يتبرع علينا الكاتب الشيوعي تاج السر برد جاء فيه:" أحسَّ معاوية نور بذلك الاضطراب في الثقافة الغربية والانهيار التام للنظريات الفلسفية البورجوازية وفي الفنون والآداب..الخ، وتوجه الفلسفة نحو الروح "[67].

---

[67] تاج السر عثمان، في الذكري المئوية لمعاوية محمد نور (1909 - 1941)، مصدر سابق.

وهذا قول صحيح من هذا الكاتب الشيوعي، إلا إنه قول مبهم، وليس فيه دلالة، من أي نوع ،على نفور معاوية من المذهب المثالي الروحي، أو تبنيه للمذهب المعرفي المادي الجدلي أو غير الجدلي.

وبمعنى آخر فليس في هذا القول ما يخدم غرض الكاتب الماركسي الذي يحاول عبثا جرجرة معاوية إلى قريب من إطاره الحزبي!

غير أن هذا الكاتب لا يكاد يقتنع بعجزه عن اقناعنا بمادية معاوية أو جدليته، حتى يرتد قائلا إن معاوية قد وضع يده علي أزمة الفلسفة البورجوازية، وقرر أن:" هذه النهضة الأخيرة التي يقوم بها أمثال لودج، وانجتون وبلكان..الخ وأضرابهم بأن عنصر الحياة غير مادي، وإنما هو قوة وروح وحركة، وهذه الحالة الفكرية التي نعيش فيها الآن قمينة أن تفتح عيوننا لتطورات الأفكار والنظريات. أصحيح كما قال ناقد أديب اننا نعيش في عصر قد تحول علماؤه الي متصوفة ورجال دين شكوكيين"[68].

إذن فهذا هو المقصود من حيث الأصل من كلام الكاتب الشيوعي السر بابو، فإن لم يكن معاوية محمد نور ماديا كالماركسيين التقليديين، الذين ينكرون الروحانيات، فليكن صاحب شك في الدين والغيبيات والما ورائيات، وغيرها من حقائق الوجود الروحي.

ولكن هل صحيح أن معاوية قال بهذا القول المتسائل، الذي نقله عن غيره، أم إن النص المقتطف أشار في أصله الصحيح إلى نقيض ذلك على وجه صريح؟!

الصحيح أن معاوية قصد إلى عكس هذا المعنى من كلامه، ولكن قام الكاتب الشيوعي، غير الأمين، بتحريف كلامه عمدا، ليقوِّله ما لم يرد أن يقوله قط!

لقد أشار معاوية، في تساؤله الذي نقله عن أديب آخر، إلى احتمال تحول رجال العلم إلى متصوفة ورجال دين (مسكونيين)، وليس (شكوكيين)، كما جاء في النقل المحرَّف لهذا الكاتب الشيوعي الذي لا أدري كيف تجرأ على تحريف نص معاصر منشور متداول بين الناس!

[68] دراسات في الأدب الحديث من آثار معاوية محمد نور، مصدر سابق، ص 156.

والفرق بين الكلمتين كبير جد كبير، فالشخص (المسكوني) في الفهم الغربي هو (الدوغمائي) الذي لا يشك في عقائده على الإطلاق، ولا يُقبل على أي تأويل يؤدي إلى الهرطقة، بعكس الفيلسوف (الشكوكي)، أو رجل الفكر (اللا أدري) الحر.

ولأصل صفة (المسكوني) بعدٌ خطير في تاريخ الديانة النصرانية، فقد عقدت المجامع المسكونية قديما بغرض التصدي للشكوك والتأويلات التي أدت إلى (الهرطقات)، أو الكفريات، كما زعموها.

وأول مجمع مسكوني هو الذي دعت إلى عقده السلطة الحاكمة في نيقية في عهد الامبراطور قسطنطين، وقد انعقد لنبذ الفكرة التي نشرها الكاهن الموحِّد آريوس الليبي، والتي كانت قريبة من عقيدة التوحيد الإسلامية، التي تقول إن السيد المسيح ليس إلها، وإنه بشر مخلوق.

ولقد قرر مجمع نيقية المسكوني بقوة السلطة الزمنية القاهرة معاقبة الكاهن آريوس، ودحض فكرته، وإعلان فكرة الأقانيم الثلاثة عقيدة مفروضة على جميع النصارى.

فهذه هي فكرة المجامع النصرانية المسكونية التي صاغت، على مر التاريخ الوسيط، العقائد النصرانية بقوة السلطة الامبراطورية، وهي أكثر من عشر مجامع وإن كان المشهور منها أربعا فقط!

وهذه المجامع لا علاقة، لها في مجموعها، بحرية الفكر، أو ممارسة الشك الفلسفي، بل كانت حربا على رجال الشك والفكر الحر!

وقد قصد معاوية محمد نور من الكلمات سالفة الذكر أن انهزام المذهب المادي، وعلوِّ المذهب الروحي في عصره، قد يحوِّل رجال العلم الطبيعي إلى رجال دين مسكونيين، أي رجال دين جامدين، يؤمنون إيمانا تقليديا بمذهب السلطة،

وهو مذهب معروف من مذاهب نظرية المعرفة.

ولم يقصد أنهم سيتحولون إلى شُكَّاك
Skeptical

كما أراد أن يقول هذا الكاتب الشيوعي!
ومجرد تأمل سياق قول معاوية والنظر بروِيَّة إلى مجراه العام لا يسمح بأن يُفهم منه معنى غير هذا المعنى.
ولا يسمح إطلاقا بأن يُفهم منه ما أرادنا أن نفهمه منه هذا الكاتب الشيوعي عن طريق التحريف والتزييف!
وجانب آخر من قلة تدقيق الكاتب الشيوعي في النقل انطوي في نسبته العبارة السالفة إلى معاوية محمد نور، وكأنه هو قائلها الأصيل.
ذلك مع أن معاوية كان قد ذكر في مستهلها قوله :" أصحيح كما قال ناقد أديب: ...".
فالقول ينقله معاوية إذن عن غيره، ثم يعلق عليه بما يراه، ولم يكن هو من قال به ابتداء!
ونقل الكاتب الشيوعي تاج السر عثمان بابو عن معاوية محمد نور أنه قال" ذلك الروح هو روح النص والشك في معظم الحقائق السابقة والقيم الماضية "[69].
ولتعضيد هذا المقولة التي اقتطعها من سياقها الصحيح من كلام معاوية، اجترأ الكاتب الشيوعي على تحريف نص آخر لمعاوية، فنقله على هذه الصورة:" والناس في الأغلب الأعم يرتاحون إلي الشك الفلسفي وما إليه من مثارات التفكير ودواعي التيقظ والحيرة "[70].
ولما رجعنا إلى النص في مصدره الأصلي، بكتاب معاوية محمد نور، ألفينا صاحبه يقول:" والناس في الأغلب الأعم لا يرتاحون إلي الشك الفلسفي وما إليه من مثارات التفكير ودواعي التيقظ والحيرة "[71].
فحذف الكاتب الشيوعي عمدا أداة النفي فنقل المعنى من النقيض إلى النقيض!
ثم وقع في إثم آخر عندما زعم مرة أن معاوية لم يستقر على مذهب الشك الفلسفي، ثم عاد في كرة تالية فزعم أنه قد استقر عليه!

---

69. معاوية محمد نور، الأعمال الأدبية الكاملة لمعاوية محمد نور، مصدر سابق، ص 88.
70. المصدر السابق، ص 154.
71. المصدر السابق، ص 154.

ففي المرة الأولى قال الكاتب الشيوعي:" هذه الثقافة والأوضاع المضطربة والمتناقضة قذفت بمعاوية نور ليتبني منهجا فلسفيا متكاملا، هو منهج الشك الفلسفي في فترة من حياته، واتخذه هاديا ومرشدا له في دراساته الأدبية والنقدية "[72].

وفي الكرة الثالية قال الكاتب الشيوعي:" وبعد أن استقر معاوية علي منهج الشك الفلسفي، حاول تطبيقه علي النقد الفني، فنجده يطبق هذا المنهج في عالم الفن في مقاله (عالم القيم والنظريات) "[73].

وفي هذا المعنى قال الكاتب الشيوعي أيضا:" ومعاوية هنا لايرضي بالقليل [74] ولايقبل بالحال كما هو، وإنما يمعن التفكير في العالم، ويبذل الفكر ويجهد عقله من أجل معرفته، ولايؤمن بقيم نهائية ثابتة، وإنما يطرح كل شئ للجدل والنقاش"[75].

وبعد أن فرغ الكاتب الشيوعي من هذا الضرب المتعسَّف من المماحكة النظرية التي لم تُجده فتيلا، رغم ما احتوته من شيْن الغش والتدليس، انثنى ليستند إلى عمل تطبيقي من أعمال معاوية الابداعية، وهو نص قصة (إيمان)، التي استنتج منها أن مؤلفها كان مؤمنا بمبدأ الشك الفلسفي المطلق، فقال:" في قصة (إيمان) يستخدم هذا المنهج عندما يصور هاشم عرفات الذي جعل جلال أفندي يشك في حياته، وهاشم عرفات شاب كثير الاطلاع، كثير الشك الفلسفي، لايؤمن بالأقاويل ولايستطيب الحزم في شئ "[76].

ولنؤجلنَّ الحديث عن قصة (إيمان) وعن مدلولاتها الحقيقية التي ابتغاها كاتبها، إلى حين نبسط الرد الشافي على مزاعم الأستاذ حسين الصاوي، لأنه تشبث أيضا بهذه القصة الرمزية وتعلل بها، وحاول بأسلوب ملتوٍ أن يستخرج منها النتيجة ذاتها التي رامها الكاتب الشيوعي.

ثانيا: محاولة الدكتور النور حمد

---

[72] تاج السر عثمان، في الذكري المئوية لمعاوية محمد نور (1909 - 1941)، مصدر سابق.

[73] المصدر السابق.

[74] هكذا في أصل كلام الكاتب الشيوعي، وهي كلمة لا معنى لها في هذا السياق، ولعل المقصود: القيل**!** .

[75] تاج السر عثمان، في الذكري المئوية لمعاوية محمد نور (1909 - 1941)، مصدر سابق.

[76] المصدر السابق.

وأما الدكتور النور حمد، وهو من غلاة كتاب الحزب الجمهوري السوداني المتعصبين، فقد اعتمد على مقياس حزبه، الذي يضيق ذرعا بكل ما يصدر عن البيئة الفكرية والأدبية المصرية، ليصوَّر الأستاذ معاوية في صورة الشخص الذي يضيق بمصر ولا يعترف لها بمعروف ولا يدين لها بجميل.

وشَنآن أتباع الحزب الجمهوري السوداني لبيئة مصر الفكرية والأدبية ونفورهم منها شَنآن مشهود معروف، شهد به بصفة خاصة الكاتب الجمهوري المتطرف الأستاذ عبد الله الفكي البشير في كتابه (محمود محمد طه والمثقفون: قراءة في المواقف وتزوير التاريخ)، وقدم عليه الكثير من الأمثلة والأدلة القاطعة.

وقد كان من أغرب ما ورد من الأمثلة في تحليلات هذا الكاتب أن عزى اختلاف الشاعر الكبير محمد محمد علي مع الأستاذ المفكر محمود محمد طه في موضوع نقدي أدبي عادي إلى أن الشاعر محمد محمد علي كان مصري الهوى!

وقد نسب الكاتب التهمة نفسها إلى كل من الشيخ على عبد الرحمن الأمين، والأستاذ محمد أبي القاسم حاج حمد، حينما قال إنهما أعرضا عن ذكر محمود محمد طه في مؤلفاتهما بسبب حبهما لمصر وعبد الناصر حبا جما.

وقد رددنا على هذا النمط الغريب من التحليل المتحامل في مقال سابق حيث قلنا:" فليكن الأستاذ الشاعر الناقد محمد محمد علي مصري الهوى، وهذا ما كان يعترف به ويفخر به، غير إنه لم يكن إيديولوجيا فيما يعلم الكافة، ولم يَرشْح شيء من الإيديولوجيا في شعره الجزل، ولا في كتاباته النقدية الرصينة الباهرة. وكونه كتب قصيدة أو قصيدتين في تمجيد عبد الناصر فإن ذلك لا يجعله ناصريا من حيث الاعتقاد أو التحزب. وقد كان على الكاتب، لو أنه كان يُعمِل فكره جيدا في التحليل والتعليل، أن يجد سببا آخر موضوعيا لانبثاق خلاف عادي غير محتدم في الرأي جرى بين شيخه والشاعر الكبير "[77].

وجريا على هذا الضرب الغريب من التعليل انطلق الدكتور النور حمد متحدثا عن الأستاذ معاوية محمد نور على صيغة المدح قائلا:" أميز ما يميز معاوية عندي، هو أنه لم يحس بالدونية تجاه أحد من العالمين. قال

---

[77] محمد وقيع الله أحمد، أبو الجهالات العظمى الدكتور حيدر إبراهيم، (الصحافة)، بتاريخ 10 ديسمبر 2013م.

عنه الروائي الكبير الطيب صالح:" وكان على حداثة سنه، كما يظهر من مقالاته واسع الاطلاع، معتدا بنفسه، ثاقب الرأي في كثير من الأمور، جريئا لا تخيفه الأسماء الكبيرة "[78].

وقد شاء الكاتب الجمهوري أن يورط الأستاذ الطيب صالح فيما يعتقد به هو شخصيا، ولا يعتقد به الطيب صالح في خويصة نفسه، فقد كان الطيب إلى قدر كبير مصري الميل والهوى، حتى كان الأستاذ الكبير الشاعر صلاح أحمد إبراهيم كثيرا ما يأخذ عليه ذلك الميل ويؤاخذه به!

وبعد أن أمّن الكاتب الجمهوري على ما نقله، مبتورا من سياقه المعنوي، من كلام الطيب صالح علق عليه قائلا:" نعم، كان معاوية كما وصفه الطيب صالح، ثاقب الرأي في كثير من الأمور. ولقد كان معتدا بنفسه بالفعل، ولكن اعتداداه بنفسه، فقد كان اعتدادا أصيلا، لا ادعاء فيه. ولا غرابة! فمعاوية من ذوي المواهب العالية، ومن أصحاب العقول الشديدة التوقد. يضاف إلى ذلك أن اطلاعه الواسع والعميق، الذي تفضل الأستاذ الراحل، الطيب صالح بالإشارة إليه، قد مكنه، في أحيان كثيرة، من أن يطل على أعلام عصره من علٍ، وهو يناقش انتاجهم الفكري والأدبي، وذلك بالرغم من صغر سنه مقارنة بأكثريتهم. وفي تقديري أن تعالي معاوية كان من جنس التعالي الذي برئ من شائبات الكِبْرِ، والرعونة، ومن سخائم الأنا التي لا تجد سبيلا إلى رؤية علوها، بغير الحط من أقدار الآخرين. كان معاوية موضوعيا يصوب عقله الوقاد على الموضوع، وليس على صاحب الموضوع. والشمم الذى يبدو على شخصية معاوية لم يكن شمما ادعاه صاحبه إدعاءً، وإنما كان حلة إلهية خلعت عليه خلعا. لم يكن تعالِي معاوية تعبيرا عن طاقة نفسية منحرفة منحصرة في مجرد إعلاء الأنا، وإنما كان جزءا من طاقته العقلية والروحية الكبيرة، التي طفحت من على حواف آنية وقته " [79].

وعلى إثر تقريره هذه النتائج (الميتافيزيقية!) المفتعلة بشأن معاوية، راح الكاتب يبحث عن عوامل عقدة الدونية التي تحكمت في الأدباء والعلماء والمفكرين السودانيين، تجاه المفكرين والأدباء غير السودانيين، فذكر أن:" ما من أمة تعرضت إلى الاحتلال بواسطة الأجنبي، وإلا تعرضت لقدر من

---

[78] السني بانقا، معاوية نور، مصدر سابق، ص 22.

[79] النور حمد، معاوية محمد نور: كبرياء البُرْءِ من عقدة الدونية، صحيفة (الأحداث)، بتاريخ 7 ديسمبر 2009م.

الاستعمار الثقافي والاستتباع. ولقد حكمت مصر التركية السودان في الفترة من عام 1821م وحتى عام 1885م، ثم عادت عقب انهيار الدولة المهدية، لتحكمه مرة أخرى في شراكة مع الإنجليز، في الفترة ما بين عام 1898م إلى عام 1956م وكان من أبرز آثار الحكم المصري في الحقبتين، هو تمكين الفقه العثماني الوافد، على حساب التصوف السناري السوداني، وفقهه الذي تشكل على أديم التربة السودانية"[80].

وخطأ الكاتب المنبعث من توجهه الحزبي الجمهوري قد اتضح جليا في إيراده لهذه الجزئية، واعتماده من ثم عليها. فالتصوف السناري الذي يزعم انتماءه إليه وتعلقه به، ويدعي له الأصالة والتعمق والتجذر في أرض بلادنا وكأنه نبت منها، إنما هو، في الكثير من نواحيه، تصوف خرافي متخلف، احتشد بصنوف البدع والشركيات المهلكة.

وهو فوق ذلك تصوف وافد وليس أصيلا، ولم يتشكل على أديم التربة السودانية، وقد اجتلب إلى بلادنا من العراق، والحجاز، ومصر، وشمال إفريقيا.

ومن شاء أن يطلع على أطراف من دفاتر اللا معقول والعبثية في هذا التراث، فما عليه إلا أن يطلع على (خُزِعبِلات ود ضيف الله)، ليرى مناقضة ذلك الضرب من التصوف الشاطح، الذي أرخ له الكتاب، لكل أبجديات العقل الراشد وبدهيات المنطق السليم.

وانسياقا مع هذا الخطأ أو الوهم التاريخي الكبير انزلق الكاتب الجمهوري ليقول:" جلبت التركية للبلاد المؤسسة الدينية الرسمية التي تم إنشاؤها أصلا لتكون ذراعا للسلطة الحاكمة. وسار الإنجليز، حين جاؤوا، على نفس ذاك النهج التركي الذي يستخدم الدين المؤسسي الرسمي كذراع للحكم. قاد ذلك الوضع، الذي عرضته هنا بصورة مبتسرة جدا، إلى نوع من الاستتباع الثقافي للسودان للمنظومة العقلية العثمانية شرق الأوسطية، التي كانت حكومتها الرسمية في الأستانة قد ذهب ريحها، إلا أن عقلها الفقهي بقي واستمر فينا إلى اليوم. ولقد تركت تلك الفترة الكثير من الآثار السلبية على الحياة الفكرية والثقافية في السودان. ولذلك فإن من الآثار الضارة للاستعمارين التركي والإنجليزي المصري، نشوء عقدة الدونية تجاه المصريين وسط المتعلمين السودانيين الأوائل وانصرافهم عن سبل إحياء ثقافتهم الوطنية "[81].

---

[80] المصدر السابق.
[81] المصدر السابق.

فها قد انتهى الكاتب إلى تقرير استنتاجه المبتغى بهذه المنهجية المعوجة، وهو الاستنتاج، ذو الحس الإقليمي الذي يزعم أن المثقفين السودانيين في عمومهم ما هم إلا أسرى خاضعون لسلطان الثقافة والأدب المصري!

وقد ضرب الكاتب الأمثال الخاطئة التي لا تدعم هذا الاستنتاج ولا تدل على صواب فيه، ومن ذلك استناد الكاتب على ما جاء في كتاب (ملامح من المجتمع السوداني) للأستاذ حسن نجيلة، نقلا عن الأستاذ عرفات محمد عبد الله، حيث قال:" والذي دعانا إلى هذا الحديث هو هذا الفيض من الشعر الذي امتلأت به أعمدة الصحف بمناسبة مقدم الشاعر المصري علي بك الجارم، فكل من استقام له الوزن ساق القريض إلى ملك القريض مادحا أو شاكيا، وفيما يبدو لنا كانوا ينتظرون منه إصدار حكمه على مبلغ شاعريتهم، بل ربما انتظر البعض منهم أن يعطيه الجارم ورقة براءة كتلك التي يوزعها القسس أيام محاكم التفتيش "[82].

وعلى ذلك القول عقَّب الكاتب الجمهوري الحانق على مصر قائلا:" واضح مما خطه قلم الأستاذ، عرفات محمد عبدالله، فيما أورده عنه الأستاذ حسن نجيلة، مبلغ تهافت أولئك المتشاعرين على الإجازة من قبل الشاعر الزائر علي بك الجارم مما حدا بعرفات على شن تلك الحملة الشعواء عليهم"[83].

ولكن السؤال المنطقي الذي ينبغي رفعه هنا هو: هل تهافت من تهافت على أعتاب الشاعر الجارم، من معاشر متشاعرينا السودانيين، بسبب أنه شخص قادم من مصر، أم لأنهم ألفوْا أنفسهم إزاء ملك خطير من أكابر ملوك دولة الشعر في هذا العصر؟

إن هذا هو السؤال المهم الذي لم يخطر على بال الكاتب الجمهوري، الذي يبدو أنه لا يدرك قدر الشاعر على الجارم، ولا يعرف مقامه في دولة الفن والشعر، وإنما ينظر إليه كشخص غريب وافد من مصر وحسب!

ولم يكن لدى الكاتب الجمهوري من التفطُّن، ولا من القدرة على إعمال الحسِّ النقدي المنطقي الموضوعي ما يدعوه إلى التملِّي جيدا في كلام من استشهد به في هذا المقام، وهو الأديب السوداني

---

[82] حسن نجيلة، ملامح من المجتمع السوداني، دار عزة للنشر والتوزيع، الخرطوم، 2005م، ص 522.

[83] النور حمد، معاوية محمد نور: كبرياء البُرْءِ من عقدة الدونية، مصدر سابق.

الرصين، الذي كاد أن يكون صنوا لمعاوية، إلا أن عصف به الردى أيضا وهو في ريعان العمر، الأستاذ عرفات محمد عبد الله.
وهو - لسوء حظ الكاتب الجمهوري! - كان مفكرا وأديبا وناقدا مصري الذوق والهوى، بل هو في الحق مصري الأصل، وقد كان جَده الأقرب من أمة الأقباط فأسلم، وحسن إسلامه، ومنه ورث عرفات ولاءه الصميمي العميق لدين لإسلام، وقد وصف الأستاذ عرفات الشاعر الفحل الجارم في غضون هذا النص بما كان خليقا أن يصفه به فقال إنه ملك القريض!
ثم استند الكاتب الجمهوري إلى ما ذكره الأستاذ حسن نجيلة عن زيارة إمام الفكر والشعر الأستاذ العقاد إلى الخرطوم، في أوائل أربعينيات القرن الماضي، وإلقائه محاضرة هناك، قائلا:" ولعل دار الثقافة منذ إنشائها لم تشهد حشدا من المثقفين وعشاق المعرفة مثل الحشد الذي تجمع ليستمع للعقاد وهو يحاضر عن الثقافة، فقد تحدث حديثا ساميا رفيعا صعب على كثير من المستمعين أن يلاحقوه فيه، ولما فتح باب النقاش عقب المحاضرة ظهر قصور آفاقنا الثقافية آنذاك عن مناقشته، أما الذين تصدوا للنقاش فسرعان ما تكشف ضعفهم فاستسلموا صاغرين "[84].
وبغير نهج علمي ولا نظر منطقي موضوعي شاء الكاتب الجمهوري المتحيز أن يغالط صاحب الرواية الأصلية، وأن يخطئ وجهة نظره التي أوردها، زاعما أن فهم العقاد ليس عسيرا إلى هذا الحد، وإن الأمر إن هو إلا خطب إحساس بالدونية ليس غير:" فالعقاد، مع سمو مكانته الأدبية وصيته الذي ملأ النصف الأول من القرن العشرين في الشرق العربي، ليس ذلك المفكر الذي يصعب فهمه أو مجاراته. وفي تقديري إن الذي أنشأ ذلك الاحساس بالانسحاق ليس قامة العقاد الفكرية الحقيقية، بقدر ما هي الهالة التي باعتها لنا آليات الثقافة المصرية المعاصرة وهي تروج نفسها، محاولةً استتباع هامشها المحيط بها، ولقد اشتريناها نحن منها ذلك الترويج الإعلامي دون فحص يُذكر "[85].
إن الذي شهد المحاضرة وسمع ما دار فيها، ثم رواه لنا، وهو صاحب أوسع رواية في الموضوع على كل حال، الأستاذ حسن نجيلة، قد حدثنا عن عجز جمهرة النخبة الثقافية عن مجاراة العقاد، وانهيار بعض الذين حاولوا

---

[84] حسن نجيلة، ملامح من المجتمع السوداني، مصدر سابق، ص 314.
[85] النور حمد، معاوية محمد نور: كبرياء البُرْءِ من عقدة الدونية، مصدر سابق.

مناوشته، بسبب حزبي صغير مقيت، أساسه خروج العقاد عن حزب الوفد آنها!

وأما الذي لم يشهد المحاضرة، ولم يقرأ عنها سوى ما رواه الراوي الأصلي، الأستاذ نجيلة، فإنه يماري في إفادتها بأسلوب (دوغمائي) غاية في التنطع، ويغالط راويها مغالطة من أشنع ما يكون، ثم لا يكون بمكنته أن يورد دليلا واحدا على أن مثقفا سودانيا ممن شهدوا تلك المحاضرة استطاع أن ينهض لمناجزة العقاد!

ثم دلف الكاتب الجمهوري من بعد ذلك ليصف معاوية الذي لم يشهد تلك المحاضرة، لأنه كان قد خرج من الدنيا قبل ذلك بسنوات قليلة، بأنه كان بريئا من عقدة الدونية تجاه المفكرين المصريين، مثله مثل زعيم الحزب الجمهوري محمود محمد طه!

وهنا قال الكاتب الجمهوري، وهذا هو بيت القصيد من كل ما قال:" غير أن هناك من بين السودانيين من برئ من مثل هذه الإحساس بالدونية برءا تاما، وعلى رأس هؤلاء النابغة معاوية محمد نور، والأستاذ محمود محمد طه. ناقش معاوية أدب العقاد، وأدب شوقي، وأدب المازني وسرقات المازني الأدبية، وأدب طه حسين، ورومانسية علي محمود طه المهندس، وغيرهم، من منصة الناقد الند. وناقش بعده كبار الكتاب المصريين، وبندية تامة، الأستاذ محمود محمد طه. فعل ذلك مع كل من طه حسين، وعباس العقاد، وأحمد لطفي السيد، ومحمد النويهي، وخالد محمد خالد، ومصطفى محمود "[86].

وقد زعم الكاتب، بلا سند يذكر، أن لو كان معاوية ممن شهدوا محاضرة العقاد بالخرطوم:" لربما تواضع العقاد بعض الشيء، ولربما استقوى المبهورون بالوافد دونما مساءلة، بما يمكن أن تجبر به كسرهم وقدة عقل معاوية، وجرأته العالمة، وعدم تهيبه للأسماء الكبيرة "[87].

بمعنى أن العقاد كان سيعدُّ محاضرته بترتيب جديد (متواضع!) بسبب من وجود معاوية في النديّ وخوفا منه!

وأن معاوية كان سينهض مع ذلك ليتصدى لنقض أقوال العقاد وتفنيد مزاعمه!

وهذه التوقعات هي من أغرب ما يكون، ومن أضلِّ ما يكون، ولا يتورط في بذل توقعات شاذة شاطحة ناطحة مثل هذه إلا كاتب حزبي شديد التعصب

---

86 المصدر السابق.

87 المصدر السابق.

والتهور، يقرر نتائجه البحثية على قدر منظوره الحزبي البسيط، ثم يجهد نفسه بعد ذلك في احتطاب الأدلة واعتسافها وتكلفها.
وإلا فما قول هذا الكاتب إذا بيَّنا له أن معاوية ما كان يتكلم إلا بغاية بعيدة من الإكبار والإجلال كلما تعرض لدرس ناحية من شتى نواحي صفات ومواهب الأستاذ العقاد؟!
ولعل أبلغ الأمثلة الدالة على ذلك ما سجله معاوية في مقاله الطويل الذي حمل عنوان (العقاد الأديب) والذي كتبه في تحيته على إثر خروجه من السجن في عام 1931م، وفيه يقول عن أسلوبه الفكري:" من غريب ما اجتمع للأستاذ العقاد وتوفر له، امتزاج الملكتين: ملكة النقد الصارم والحجة القوية، والذوق المثقف والإحساس العميق. وأنت تجد هاتين الملكتين في درجة من التكافؤ، حتى تخال إحساسه منطقيا متماشيا مع حركة الحياة، ومنطقه إحساسا لا يمكن أن يكون في غيره، والسبب في ذلك في اعتقادي يرجع إلى ملكة البداهة، "Intuition"
وصحة النظرة، وسلامة التفكير - الأشياء التي يستمد منها العقاد عناصر قوته في التفكير والاحساس معا - فهو لا يعتمد في عبقريته على ناحية خاصة من الحياة، أو التفكير، أو الشعور، أو العاطفة، أو الخيال، التفتت إليها نفسه وعُنيت بها.
ولكنك تجد كل هذه الأشياء في نسب متعادلة متشابكة، يصعب عليك فرز الواحدة من الأخرى، كما هو الأمر في الحياة.
فهنا ليس ومضة من ومضات التفكير، والتفاتات الذهن، أو عُرام الوعي، أو فلسفة الاحساس، وما ينتظم هذه المعاني من الشذوذ في الطبع والتفكير، كما هو الأمر مع بعض الكتاب والشعراء، أمثال بودلير، وروسو، وبرناردشو، وأوسكار وايلد، ونيتشة، وتولوستوي، وأضرابهم من رجالات التفكير، ممن تفردوا بناحية، والتفتوا إليها، ورأوا الأشياء من خلالها. وإنما هنا اتزان، وشمول، وبداهة، وليس هنا إغراب، أو شذوذ.
فإن العقاد ليأتي بالكلام في موضوع من الموضوعات فيخيل إليك أن ليس إلى معرفة الأشياء والأغراض أو القول عنها سوى هذا القول والكلام"[88].
وقال عن العقاد في المقال ذاته، وهو قول أقرب إلى الغلو:" هنا رجل خلق للحياة، واكتملت فيه أدواتها، فالذي يرفض العقاد إنما يرفض الفكرة المستقيمة والاحساس الهادئ.

---

[88] دراسات في الأدب الحديث من آثار معاوية محمد نور، مصدر سابق، ص 206 - 207.

والعقاد ينظر إلى الحياة نظرة فيها من السعة والشمول، ما في الحياة من سعة وشمول، ويقبل الأفكار ومنشآت الآداب والفنون على هذه الشريطة، فهو ليس بالثائر ولو أنه قوي في رفضه، يقبل كل الأشياء ويدخلها في حسابه لأن لها مكانها في الحياة.
وهو لا ينسج عالمه الأدبي إلا على غرار الحياة وطريقتها، فيقدر الأفكار وضروب التعبير من حيث الثراء والفقر، والضعف والقوة، والرخص والغناء، والإسفاف السمو، والصحة والمرض، ولا ينكر هذه ولا تلك، وإنما يقيس كلا بميزانها، ويضعها في عالم الفن والفكر حيث يجب أن توضع في مكانها من الحياة، وتقدير الحياة، وتقدير الأحياء الشاعرين "[89].
ولمعاوية أحاديث كثيرة أخرى عن أستاذه العقاد تنمُّ عن إعجابه الشديد به، وقد قدَّمه فيها وفضله على كبار أئمة الفكر والأدب الأوروبي في عصره. وقد كان معاوية من أعرف الناس وأبصرهم بتراث الفكر والأدب الغربي قديمه وحديثه، ولا سبيل للدكتور النور حمد كي ينقض هذا ولا ليماري فيه، فهو أقل شأنا بكثير من أن يتصدى لما يصدره معاوية من أحكام في هذا الموضوع!
وللأستاذ معاوية مقال دقيق جدا في تقدير شعر العقاد نشره بصحيفة (الجهاد) في عام 1933م بعنوان (القالَب في شعر العقاد) ومما جاء فيه:" إن شعر العقاد يكاد يتفرد في الشعر العربي الحديث بجمال القطع الشعري، ودقة القالَب الفني وصرامته، فما أعرف أحدا من هؤلاء الشعراء استطاع أن يعبر في وضوح وجلاء لفظي مثلما عبر العقاد في موضوعات شعرية "[90].
ومن مثل هذه المقتطفات وغيرها من كتابات معاوية النقدية التقويمية، نرى أنه كان أشد إعجابا بالأستاذ العقاد من أولئك السودانيين الذين قرأوا بعض كتاباته، وهم قارُّن بموطنهم، والتقوه لأيام معدودة بالخرطوم، وهم أولئك النفر الذين حكى الأستاذ حسن نجيلة خبرهم الذي لم يعجب الدكتور الجمهوري، الذي ظن أن معاوية لم يكن من شيمتهم، وأنه كان سينبري للزائر ويعترضه ويخالفه في أقواله في تلك المحاضرة[91]!

---

[89] المصدر السابق، ص 207.

[90] معاوية محمد نور، الأعمال الأدبية الكاملة لمعاوية محمد نور، مصدر سابق، ص 216.

وربما جاز لنا أن نستشهد في هذه الناحية التي تتصل بتقدير معاوية لأستاذه العقاد برأي الناقد السوداني المتفرد الدكتور أحمد محمد البدوي، وهو ناقد عقادي المذهب،

وفي شطح مفارق لنهج العقل الراجح، أفضى الكاتب الجمهوري بخلاصة رأيه في معاوية، فشبهه من طرف خفي، بزعيم حزبه في بدايته ونهايته، قائلا:" لقد وُلد معاوية ليكون شمسا تدور حولها الكواكب، لا كوكبا يتخذ لنفسه مدارا حول أي شمس من شموس وقته، بالغا ما بلغت. ولا غرابة إذن أن حمل معاوية صليبه وتابوته، لم يساوم، ولم يتراجع حتى اغترب بعقله لسبع سنوات غيبه بعدها الموت، وهو بعد في الثانية والثلاثين من العمر "[92]

وبالطبع فليس لموضوع الصلب والصليب، الذي ساقه الكاتب، من تأثير إيجابي في وجدان المسلمين يماثل تأثيره في قلوب النصارى!

فالصلب في الفهم الإسلامي ليس سوى عقاب حدي شرعي رادع، مخصص لاستئصال شأفة قطاع الطرق الإرهابيين، وترهيب من تحدثه نفسه بسلوك مسلكهم الوخيم، ولا يوجد من بين المسلمين من يتعاطف مع المفسدين في الأرض.

وبهذا فلا مساغ لكاتب كي يورد تعبير (الصلب) وهو يخاطب جمهرة المسلمين ويستهدف جذب تعاطفهم الودي تجاهه.

وأما إن استخدمه بشعور نصراني زائف، بدافع التقليد المحض، فإن ذلك لا ينطلي أيضا على المسلمين، ولا يتسلل إلى وجدانهم، ولا يجد تقديرا حسنا من جانبهم، لأن قرآنهم المجيد قد نفي قضية الصلب نفيا قاطعا، عندما تحدث عن نهاية سيدنا المسيح عليه السلام، وأبان أن ربه سبحانه وتعالى قد نجاه برفعه إليه من مصير الصلب!

قال الله تعالى:(فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا

ومن الذين كتبوا بتبصر واستفاضة عن أدب معاوية نور، وهو رأيه القائل إن:" من سمات النقد الذي سطره معاوية عن العقاد واتجاهه الأدبي أنه يعمد إلى الإعلاء من شأن العقاد الشاعر، وينظر بعين الانتقاص والزراية إلى نتاج أدباء للعقاد رأي سلبي في أعمالهم". من مقاله (معاوية محمد نور مع سيد قطب وريادة المدرسة العقادية) نشر بصحيفة (الصحافة)، بتاريخ 20 يوليو 2009م.
91

[92] النور حمد، معاوية محمد نور: كبرياء البُرْءِ من عقدة الدونية، مصدر سابق.

قَتَلُوهُ يَقِينًا بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا). النساء 155-158.

وقال المفسر العظيم الامام ابن كثير:" كان من خبر اليهود ... أنه لما بعث الله عيسى ابن مريم بالبينات والهدى، حسدوه على ما آتاه الله من النبوة والمعجزات الباهرات، التي كان يبرئ بها الأكمه والأبرص، ويحيي الموتى بإذن الله، ويصور من الطين طائرا ثم ينفخ فيه فيكون طائرا يشاهد طيرانه بإذن الله عز وجل، إلى غير ذلك من المعجزات التي أكرمه الله بها وأجراها على يديه، ومع هذا كذبوه وخالفوه، وسعوا في أذاه بكل ما أمكنهم، حتى جعل نبي الله عيسى، عليه السلام، لا يساكنهم في بلدة، بل يكثر السياحة هو وأمه، عليهما السلام، ثم لم يقنعهم ذلك حتى سعوا إلى ملك دمشق في ذلك الزمان، وكان رجلا مشركا من عبدة الكواكب، وكان يقال لأهل ملته اليونان، وأنهوا إليه: أن ببيت المقدس رجلا يفتن الناس ويضلهم ويفسد على الملك رعاياه. فغضب الملك من هذا، وكتب إلى نائبه بالقدس أن يحتاط على هذا المذكور، وأن يصلبه ويضع الشوك على رأسه، ويكف أذاه على الناس. فلما وصل الكتاب امتثل متولي بيت المقدس ذلك، وذهب هو وطائفة من اليهود إلى المنزل الذي فيه عيسى، عليه السلام، وهو في جماعة من أصحابه ... فحصروه هنالك . فلما أحس بهم وأنه لا محالة من دخولهم عليه، أو خروجه عليهم قال لأصحابه: أيكم يلقى عليه شبهي، وهو رفيقي في الجنة؟ فانتدب لذلك شاب منهم، فكأنه استصغره عن ذلك، فأعادها ثانية وثالثة، وكل ذلك لا ينتدب إلا ذلك الشا. فقال: أنت هو. وألقى الله عليه شبه عيسى، حتى كأنه هو، وفتحت روزنة من سقف البيت، وأخذت عيسى عليه السلام سنة من النوم، فرفع إلى السماء وهو كذلك، كما الله تعالى...

فلما رفع خرج أولئك النفر فلما رأى أولئك ذلك الشاب ظنوا أنه عيسى، فأخذوه في الليل وصلبوه، ووضعوا الشوك على رأسه، فأظهر اليهود أنهم سعوا في صلبه وتبجحوا بذلك، وسلم لهم طوائف من النصارى ذلك لجهلهم وقلة عقلهم، ما عدا من كان في البيت مع

المسيح، فإنهم شاهدوا رفعه، وأما الباقون فإنهم ظنوا كما ظن اليهود أن المصلوب هو المسيح ابن مريم "[93].

وهكذا فكأن هذا الجمهوري يتابع هؤلاء في ظنونهم و أوهامهم، ويتمادى في غرامه بقصة الصلب الصليب، رغم نفي القرآن الحكيم لها.

وغرام الكاتب الجمهوري بهذه القصة المتوهمة غرام لا ينفد ولا ينقضي، فهو يرشح وينضح من مقال ثان له خاض فيه في شأن معاوية، وهاجم فيه الأستاذ الطيب صالح قائلا:" ليس من السهل أن يختلف المرء مع الطيب صالح، فالطيب صالح عقل كبير، وقلب كبير، وروح كبير أيضا. وليس غرضي هنا محاكمته، وإنما ينحصر غرضي في الانتصاف لمعاوية محمد نور العبقري الاستثنائي، الذي لأمر ما حاول الطيب صالح أن يضع حصيلة تجربته الحياتية الملحمية الثرية المنتجة في جرة (الفشل) و(الهزيمة). فما ضرَّ الطيب صالح، مثلا، لو أنه قال إن معاوية قد خلق أصلا ليعيش تلك الحياة الملحمية القصيرة المنتجة، وإن ذلك النمط من العيش كان قدره الذي لم يكن يملك منه فكاكا، وإنه لم يكن يملك، بحكم المزاج المودع في بنيته النفسية، خيارا آخر سواه؟! الشاهد أن الكتاب الذين نذروا أنفسهم للتضحيات، من شاكلة معاوية محمد نور، والأستاذ محمود محمد طه، وغيرهم من حملة الصلبان والأكفان، قد ظلوا يزعجون الطيب صالح، ويؤرقون مضجعه"[94].

فها نحن مرة ثانية مع قضية الصلب والصليب، ومع مقارنة معاوية بالزعيم الحزبي المقدس لدى هذا الكاتب الجمهوري!

وسنعود بعد هنيهة لنبين طبيعة مواقف الصمود المنسوبة زورا إلى هذا الزعيم الحزبي، طالما أن تابعه مصرٌّ على التنويه بها في كل شاردة، ومثابر على إزعاجنا بخبرها في كل واردة!

وأما الذي حدا بالكاتب الجمهوري المتعصب للتطرق إلى ما دعاه غيرة من جانب الأستاذ الطيب صالح تجاه معاوية حتى جعل فعل

---

[93] أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي، تفسير القرآن العظيم، تحقيق سامي بن محمد سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، 1420هـ، المجلد الثاني، ص 448 - 449.

[94] النور حمد، معاوية محمد نور معاوية نور: هل غار منه الطيب صالح أم خشي على مواقفه منه؟!، صحيفة (الأحداث)، بتاريخ 14 ديسمبر 2009م.

الغيرة شاخصةا بارزا في عنوان مقاله (معاوية نور: هل غار منه الطيب صالح أم خشي على مواقفه منه؟!) فهو ما كتبه الأستاذ الطيب صالح بروح ودي متعاطف وغير عدائي على الإطلاق عن مأساة معاوية ونهايته الحزينة، التي عدها خيبة أو فشلا لسلاسل مغامراته العنيدة.

وفي الواقع فإن ما انتهى إليه الطيب صالح في تقويمه لتجربة حياة معاوية، هو نفسه ما انتهى إليه الأستاذ إدوارد عطية من تقويم، وذلك عقب أن استعرض بالتفصيل نواحي هذه المغامرات، وكتب عنها فصلا مطولا تحت عنوان (نصر وهزيمة) قال في ثناياه:" ولكن ما أسرع ما أخذ الجسد المُهان ينتقم من صاحبه شر انتقام، فقد طغى عليه الهزال، وتفشت آثار سوء التغذية في جسده. لم يعد مردود معاوية المادي، من نشر مقالاته الفتانة المعجبة كافيا للصرف على غذائه، ولو كان من الخبز والجبن، ولم يبق ثمة رجاء أو أمل في تحسن الحال، فقد بات من المحال أن يكسب المرء رزقه في مصر من الكتابة للصحف والمجلات. ولم تتأخر العلة كثيرا، إذ هبطت على الفتى، وهو مقيم في حجرته العلوية، ولم يجد ما يكافحها به من غذاء أو دواء، ولم يجد رعاية من أحد. وما عتَّم الاكتئاب أن هاجمه، وناء عليه بكلكله الثقيل، وتبدد في خاطره، تباعا، كل ما كان يراوده من أمجاد الأدب والفن "[95].

وقال عن رجعته الأخيرة من مصر إلى السودان في ختام المغامرة:" لكنها كانت رجعة حزينة باعثة على الشجى لتلك الروح المخاطرة التي كانت تجوب الآفاق. كانت رجعة مجللة بالفشل والعطب والرعب من مهمة استكشاف عقلي بالغ الاجتراء " [96].

فلا تثريب على الطيب صالح إذن إن كتب كلاما رقيقا رفيقا مماثلا لهذا الكلام، ولا يجوز تفسير ما قاله على أنه نوع انتقام دافعه الغيرة من معاوية، بسبب ميل معاوية إلى الاقتحام والمناجزة، وميل الطيب صالح إلى التصالح مع ظروف الزمان!

---

[95] **Edward Atiyah, An Arab Tells His Story, Ibid, P. 178.**
[96] **Ibid, P. 180.**

إن لكل شخص طبعه الذاتي وطريقته الخاصة في التعامل مع ما يُحْدِق بحياته ويكتنفها من صروف التحدي، ولا يطلب من فلان أن يكون مثل علان، ولا من علان أن يكون مثل فلان، وإلا كنا كمن يتحكم في الناس ويوجههم كيف يشاء، وهذا محال!

ولربما اصطنع الكاتب الجمهوري المغرض هذا التخرص العجيب بدافع الإساءة إلى الطيب صالح، الذي آثر ألا يعرض نفسه إلى غضب النميري أيام محاكمة محمود محمد طه وصدور الحكم بقتله، ولذا لم يشهر اعتراضا علنيا على حكم القتل كما فعل الكثيرون في ذلك الحين، هذا ما لم يغفره له الجمهوريون!

وقد انتهز الكاتب الفرصة كذلك لكي يردد الإشادة المكررة دوما بصمود مدَّعىً منسوب إلى زعيم حزبه المدعو محمود محمد طه.

ودعوى هذا الصمود المزعوم إنما دعوى احتفائية دعائية، تساق بلا عضد، ولا يسندها برهان، كيف وقد كان هذا الشخص الغوي نصيرا لقوى الاحتلال الصهيوني، ومؤيدا لدولة إسرائيل منذ يومها الأول، وداعيا إلى التصالح معها، وغاضًّا بصره وحاجبا بصيرته عن اغتصابها لوطن الفلسطينيين، وبطشها وتنكيلها بجموعهم.

وقد ظل نصيرا ومؤيدا لقوى المارونيين طوال فترة الحرب الأهلية اللبنانية، التي دامت خمس عشرة سنة حسوما، حصدت فيها آلة البغي الماروني الصليبي الانعزالي الفدائيين الفلسطينيين وتكتلات القوى الوطنية اللبنانية.

ومحليا ظل محمود محمد طه متعاطفا ومتحالفا ومؤيدا لحكومة النميري، ومنافحا عنها، ومحرضا لها ضد خصومه وخصومها، لمدة أربع عشرة سنة من عمر النظام المايوي.

ولو طلب منا دليل حاسم على ذلك فهو هذا الدليل الذي انتزعناه من الموقع الإلكتروني للحزب الجمهوري، وقد سها المشرفون عليه سهوة كبرى فسجلوا على أنفسهم هذه الإدانة الدامغة.

وذلك ما جاء في الحوار الصحفي الذي أداره الأستاذ عبد الله جلاب مع زعيم الحزب الجمهوري، الذي لم يتردد في إعلان تأييد حزبه لنظام النميري بقوله:" إن هذا العهد قد قوض نظام الأحزاب الفاسدة، وهو قد ضرب الطائفية ضربة كسرت شوكتها، ولكنها لم تقتلع جذورها، ولاتزال الطائفية قائمة في

عقول بعض الناس وفي قلوبهم. ويمكن لهذا النظام أن يجد تبرير استمراره في كونه حائلا بين الشعب وبين عودة النظام الطائفي الفاسد إلي الحكم "[97].
وفي هذا اللقاء أيد محمود محمد طه ضرب تنظيم حزب الأمة بقوة السلاح:"إن النظام الحاضر يجد تبريره الكافي في أنه منذ البداية سار في اتجاه تصفية الطائفية بصورة لم يسبق لها مثيل في العهود السابقة، ولا يمكن لهذا الشعب أن يدخل عهد كرامته ومن ثم ديمقراطيته إلا إذا تخلص من النفوذ الطائفي، وليست الطائفية تنظيما فحسب وإنما عقيدة. ولا تحارب العقيدة بالسلاح، وإن حورب التنظيم بالسلاح"[98].
فأين الصمود وأين شرف الخصومة والشرف الفكري والسياسي من زعيم ظل يساند نظام الحكم المايوي، الذي جاء بانقلاب عسكري، قوَّض به الحكم الديمقراطي، وعطل الحريات، وسجن الأحرار من أبناء الشعب، وصادر ممتلكات الناس وأموالهم، وقتل الآلاف معارضيه قصفا بالطائرات والدبابات؟!
وهذه الأسئلة وشبيهات لها إنما هي أسئلة إجبارية سنظل نوجهها إلى أسماع الجمهوريين كلما حدثونا عن صمود مزعوم لزعيمهم.
ثالثا: محاولة الأستاذ عبد العزيز الصاوي
وأما الكاتب البعثي الأستاذ عبد العزيز حسين الصاوي، فقد تجرأ على نسبة المفكر والأديب الحر، والمتسامي فوق الأحزاب جميعا، الأستاذ معاوية إلى نمط قريب من فكر حزبه اليساري القومي، ذي المزاعم الليبرالية المتغربة.
وقال في مقال له بعنوان (معاويه محمد نور: علم التنوير السوداني والمصري أيضا):" تكتمل قطع الموازييك لصورة معاوية محمد نور، عَلم الاستنارة وأحد رواد الإرهاص الليبرالي العلماني العربي، إذا علمنا بانتمائه إلى (جماعة الأدب القومي) التي أسسها الكاتب والروائي المصري محمد حسين هيكل (1888- 1956) كما نُشرت معظم مقالاته في جريدة (السياسة) التي تولي هيكل رئاسة تحريرها لفترة. هذه الشخصية المصرية كانت من قيادات الفكر والممارسة الليبرالية والتنويرية المصرية، ووثيقة الصلة بأحمد لطفي السيد أبرز مؤسسي هذا التوجه "[99].

---

[97] عبد الله جلاب، صحيفة (الأيام)، بتاريخ 11 ديسمبر 1972م.
[98] عبد الله جلاب، صحيفة (الأيام)، بتاريخ 11 ديسمبر 1972م.
[99] عبد العزيز حسين الصاوي، معاويه محمد نور: علم التنوير السوداني والمصري أيضا، صحيفة (التغيير)، بتاريخ 28 يوليو 2015م.

والأخطاء الكبار التي يحتوي عليها هذا النص القصير واضحة لكل من له بصر حقيقي بتاريخ الدكتور محمد حسن هيكل، والأستاذ أحمد لطفي السيد، إذ لم يكن أيا منهما قوميا بالمعنى الذي اتخذه حزب البعث أو الحركات القومية الإيديولوجية اليسارية الأخرى في العالم العربي.
فقد كان الدكتور هيكل إقليميا متغربا، وإن كان أقل تغربا بكثير من وضع الأستاذ الصاوي، ثم انتهى كاتبا إسلاميا مجيدا، حيث اعتبرت كتاباته الأخيرة، خصوصا (حياة محمد) و(الصديق أبو بكر) و(الفاروق عمر) و(عثمان بن عفان) فتوحا مبكرة في الفكر الإسلامي، وابتدارا لنقد حركة الاستشراق، التي كان قد انجرف في تيارها العارم حينا من الدهر، عرفها فيه بعُجرها وبُجرها فأصبح خير ناقد بصير بها.
أما الأستاذ لطفي السيد فقد قضى عمره حتى نهايته علمانيا ينعق بالتعبير عن المشاعر الإقليمية، ودعاوى النسب إلى أمة الفراعنة، والتنادي بالانقطاع التام عن النسب العربي، حتى إنه رفض صراحة مبدأ إعانة الشعب المصري لأي شعب عربي آخر، ولو كان في حالة حرب ومجاعة، كما حدث للمجاهدين الليبيين في نضالهم البطولي الباسل، بقيادة عمر المختار، ضد الغزو الإيطالي في عشرينيات القرن المنصرم.
فالمثالان اللذان جاء بهما الأستاذ الصاوي لا يخدمان غرضه، بل ينقضانه أشد النقض.
جاء المثال الأول عن رجل أقلع عن خط التغريب، وانتمى بقوة وحمية إلى خط الأصالة الإسلامية، في وقت حرج من تاريخ الإسلام الحديث، كان من يدافعون فيه عن الأصالة الإسلامية، ويذودون عنها، قلائل جد قلائل.
وأما المثال الثاني، فهو لرجل بقي طوال دهره علمانيا، ومع ذلك لم يك ذا صلة من أي نوع بالمشاعر والمفاهيم القومية العربية، بل ظل خصيما مبينا لها، وتاريخه المشين ذو النزعات الإقليمية الفظة شاهد بكل ذاك!

وهكذا خانت الأستاذ الصاوي حتى الأمثلة التي انتقاها، وما ذلك إلا لأنه كاتب يهتبل الأمثلة، ويعتسف الأدلة اعتباطا بلا تبين ولا تبصر، إذ هو شخص عاطفي موتور، لا قضية له إلا حرب الإسلام، والدعوة إلى التغريب، والتخفي وراء الشعارات القومية!
وأما جماعة (الأدب القومي) التي شارك فيها معاوية، ونعتقد أنه هو الذي صاغ بيانها التأسيسي، فهي أبعد ما تكون عن المفاهيم الإيديولوجية القومية العربية، خصوصا مفاهيم حزب البعث العربي الاشتراكي، الذي ينتمي إليه الأستاذ الصاوي، وكان من مؤسسي خلاياه الأولى في السودان في أوائل ستينيات القرن المنصرم.
إن ما قصده الأستاذ معاوية في بيان أغراض تلك الجماعة الأدبية، التي لم تلبث طويلا، هو إنهاء دور الترجمة المباشرة، وإيقاف محاولات (تمصير) القصص والروايات الأجنبية، والعمل على خلق أدب مصري خالص، يصدر عن الذائقة المصرية لا عن أذواق الغربيين.
ففي منتصف عام 1930م نشر معاوية مقالا بعنوان (دعوة إلى خلق أدب قومي) مهَّد فيه لتلك الدعوة بقوله:" لا ريب أن النهضة التي تناولت جوانب الحياة في مصر والشرق العربي بأجمعه، تناولت أيضا ألوان الأدب وفنونه، غير أن طابعها، وهو طابع التقليد والنقل، كما أصاب نواحي الحياة جميعا، أصاب ناحية الأدب والفنون أيضا. بل لعله في هذا الناحية أظهر منه في غيرها.
ولعلنا حين ندعو إلى أدب الخلق والاستقلال بنهضتنا نعني أكثر ما نعني ناحية الأدب والفنون، فهي الناحية التي كنا فيها حتى الآن عالة على الغرب، نعيش على آدابه القديمة، تفيض مجلاتنا وصحفنا بالترجمة عنه، ولا تبدو للأدب المحلي بادرة أو جهود في سبيل خلقه. بل لقد يعمد بعض كتابنا، وهذا ما يؤسف له، إلى تغيير بسيط في الأسماء، وتحوير في المعنى والموضوع أبسط، ويبرز للجمهور بالقطعة الأدبية أو القصة أو الفكاهة يدعيها لنفسه، مع أنك إذا رددت الأشياء إلى أصولها ألفيت هذه القطعة أو القصة أو الفكاهة ليست إلا

أثرا آخر من آثار الغرب، تقدم إلى الجمهور ملفوفة في أثواب مهلهلة ممزقة يبدو منها الجثمان الأول "[100].

وإذا كانت دعوة معاوية إلى قومية الأدب قد انبعثت على نحو معمم إلى أدباء وادي النيل قاطبة، إلا إنها صوبت بنحو مخصص إلى الأدباء المصريين، للفت أنظارهم إلى أن الأدب إنما هو:" صورة من صور الحياة، ومن العيب أن نضيق بحياتنا، فنلتمس تصويرها بأقلام غير أقلامنا، وأفهام غير أفهامنا، فنبدو في آدابنا، كما نبدو في صور من صور حياتنا، مرآة لا تفعل أكثر من أن تعكس الصور الباهرة الجميلة، لتشوهها بالادعاء والمسخ، غاضِّين أبصارنا عن كل ما يحيط بنا من بهر ونور، وعما وهبتنا الطبيعة ووهبنا التاريخ من جلال وروعة "[101].

وقد استرسل معاوية في شرح المقصود من دعوته إلى قومية الأدب، بسبب ما شابها من غموض وما لابسها من سوء تلقٍّ، فذكر أن ليس من المقصود من هذا المفهوم:" أن نتحدث في موضوعات قومية، وإن كان هذا يدخل فيه، وليس لزاما على الأديب القومي أن يتحدث عن الحياة في الريف أو في المدن، أو في وادي النيل كله. وإنما جوهر الأدب القومي هو (الإحساس القومي)، ورُبَّ قطعة توحيها (وستمنستر أبي) لأديب مصري ذي إحساس قومي صميم، هي من الأدب القومي أعلى من عشرين قطعة عن الحياة في الريف المصري، فليس كل قطعة منتزعة من الحياة المصرية هي أدبا مصريا.

وليس كل قطعة تقال عن أمور خارج مصر ليست بالأدب المصري، وإنما عبرة كل ذلك الاحساس الذي يتمثَّله الفنان، ويودعه القرطاس، كأشد ما يكون بريقا وصحة يشدُّه للإحساس المصري الصميم.

فالقطعة الريفية من مصر ربما يكتبها الإنجليزي، فهي ولا شك أدب إنجليزي، وليست من الأدب الصمري شيئا. وربما يكتبها المصري ممن لم تتمثَّل فيه خصائص جنسه، وإحساس أمته، وفهمها، وترجمتها عاطفة وفكرا وشعورا، فلا تكون من الأدب المصري شيئا أيضا " [102].

---

[100] دراسات في الأدب الحديث من آثار معاوية محمد نور، مصدر سابق، ص 27 - 28.

[101] المصدر السابق، ص 119 - 120.

[102] المصدر السابق، ص 146.

وكان كاتب مصري يدَّعي فهم الأدب، يُدعى يوسف حنا، قد شرح فكرة الأدب القومي شرحا مغلوطا، مدعيا أن الروح القومية لا توجد إلا في أهل الريف وحدهم، ولا يُعثر عليها لدى أهل الحواضر. وهذا ما حفز معاوية ليعيد شرح مفهومه المتقدم بهذا النهج القويم، وهو الشرح الذي يحتاج أن يرجع إليه الأستاذ عبد العزيز الصاوي، ليفهم مغزى دعوة الأدب القومي، كما نادى بها معاوية في ذلك الزمن البعيد.

وعليه بعد أن يفهم معنى الدعوة كما شرحها صاحبها، ويدرك مغزاها جيدا، أن يكف عن استثمارها واستغلالها في غير ما صدرت من أجله من غرض أدبي، هو أسمى بكثير من الأغراض الإيديولوجية السياسية الحزبية الميتة، التي يسعى الصاوي لنفخ الروح فيما بقي لها من أنقاض وأوصال وأشلاء.

وقد لازم التعثر الأستاذ الصاوي أيضا عندما رام أن يصم معاوية بأنه كان رمزا من رموز الحداثة والتغريب، وداعية من دعاة الشك الفلسفي الديكارتي، الذي اشتهر به الدكتور طه حسين في العالم العربي حينما زعم أنه درس على نهجه قضية (الشعر الجاهلي) والمصادر الإسلامي قاطبة وعلى رأسها القرآن الكريم.

والواقع أن معاوية الذي شهد معركة (الشعر الجاهلي) لم يكن من أنصار طه حسين في تلك المعركة، بل اتهمه علانية بأنه لم يمارس الشك الديكارتي في بحثه، وأنه لم يبدع شيئا جديدا فيه، وإنما اكتفى بالسطو بنحو مباشر على دراسات المستشرقين الذين تولوا كِبْر تلك الدعوى[103].

في سياق بحث له بعنوان (الأدب المصري الحديث والكتاب الناثرون) أشار معاوية إلى قلة أصالة طه حسين في دراسته الشهيرة (في الشعر الجاهلي) التي زعم أنه طبق فيها مفهوم الشك الديكارتي. وقد جاء في حديث معاوية:" ثم ما الذي عمله الدكتور طه حسين إلى الآن؟ أعترف بأنه حينما يحلل القصص الفرنسية وينقدها يلذُّ القارئ كثيرا ويدلُّ على قوة نقدية رائعة، ولكن هل هذا هو كل ما نطلبه من زعيم نهضة؟ وقد يقول القارئ: إن الدكتور طه مؤرخ آداب وناقد وليس بأديب، فمالك تطلب منه ذلك؟ فأقول: أين هي مقاييسه النقدية المبتكرة في نقد الآداب وكتابة تاريخها؟ فإننا نعلم أن كبار مؤرخي الآداب لهم فلسفة خاصة بهم كتين، وسانت بيف، وهالام، فأين الدكتور من هؤلاء؟ وأين هي تآليفه؟ (حديث الأربعاء) ما هو إلا حديث عن الشعراء، ليس فيه فكرة أساسية، (الشعر الجاهلي) نعم فيه فكرة أساسية، ولكنها منقولة عن المستشرقين أمثال نولدكه الألماني، ونيكلسون الانجليزي". وقد نشر مقال معاوية هذا بصحيفة (البلاغ)

ولا ريب أن معاوية كان أقرب إلى رأي أستاذه العقاد في ذلك الحين، وهو الرأي القائل إن الشك الاعتباطي المطلق، أو الشك المصنوع، من شأنه أن يهدم جميع المعلومات التاريخية التي تعتمد على الرواية الشفهية أو المكتوبة، وبذلك لا يكاد يبقي من التاريخ الإنساني على شئ جدير بالذكر[104]

وقد حلا للأستاذ الصاوي أن يستشهد بقصة قصيرة نسجها معاوية بعنوان (إيمان) ليتخذ منها دليلا على شك معاوية في موضوع الأديان، قائلا:" غير أن معاوية يحاول أيضا في هذه القصة إيصال مبدأ الشك المنهجي الديكارتي المعروف (أنا أفكر إذن فأنا موجود) أحد أهم أركان فكر عصر النهضة الأوروبي خلال القرن السابع عشر، التي استقرت في تكوينه الفكري"[105].

وقصة (إيمان) قصة رمزية طريفة نشرها معاوية في عام 1930م بصحيفة (السياسة الأسبوعية) المصرية، سخر فيها بطريقة شديدة الوقع واللذع من السلوك المتحذلق لبعض عوام المتعلمين، وأنصاف المثقفين السطحيين في عصره، وقد جعل موضوعها بعض أشخاص السُّودان من طلائع المتعلمين بالمدارس الحكومية الحديثة، وقد طفق بعضهم يؤمن عبثا بصحة كل شئ يقال، بينا شك بعضهم عبثا في كل شئ ثابت في الوجود.

والنوعان من طلائع المتعلمين كان بادي السذاجة، منخرطا في الاتباع والتقليد الأعمى، وليس لأي منهما نسب بالأصالة الفكرية، أو صلة حقيقية بروح العلم أو الفلسفة، وحسبك أن ترى أحدهما وهو المدعو جلال أفندي، وهو:" يستمع بشغف لأحاديث المتكلمين حوله في المكتب والترام والمنتديات العامة، ثم يأخذ بعض هذه الآراء التي تروق عنده، وهو أكثر مايكون تأثرا إذا كان صاحب الحديث شديد العارضة قوي الحجة، قوي

بتاريخ 6 مارس 1929م، أي بعد أقل من ثلاث سنوات من صدور كتاب (في الشعر الجاهلي)، وحينها كان طه حسين ما يزال يكابر ويتبجح بدعوى أصالته الفكرية وزعم ريادته في تطبيق منهج الشك الديكاتي في بحث موضوع الشعر الجاهلي
.[103]

104 راجع مجمل رأي العقاد في هذه القضية في كتابه (مطلع النور أو طوالع البعثة المحمدية)، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، 2012م، ص41 - 62.

105 عبد العزيز حسين الصاوي، معاويه محمد نور: علم التنوير السوداني والمصري أيضا، مصدر سابق.

الشخصية يتكلم بكل حزم وتأكيد، يأخذ هذه الآراء فيعيدها على صحبه وكأنما هي له والحديث من بنات أفكاره لشدة ما يتعصب لها ويذود عنها "[106].
وحسبك أن تراه وهو قادم من حفلة رقص بلدي:" مسلوب العقل والوجدان معا، ويقرر لك بكل حزم أن (فلانة) هذه أرقص بنت في السودان، وأن تلك البنت أجمل بنات العالم طرا "[107]. ثم ما يلبث أن يأتيك بعد أسبوع من هذا التاريخ :" بأسماء أخرى هي أجمل البنات وأرقصهن "[108]، وأن تراه محكوما بـ (المودة) وبما يقرره صحبه ورفاقه:" فهو قلَّ أن يكوِّن لنفسه رأيا حتى في الطعام والملبس، يأكل ما يقول بعض إخوانه إنه أجود الأطعمة ويلبس ما يلبس زيد وعمرو"[109].
وقد بقي على هذا الحال من اليقين الثابت المطلق إلى أن التقى بالمدعو هاشم عرفات، وهو الرجل الذي يشك في كل شئ، فأخذ يشككه في ما يردد من الأقاويل الاعتباطية بسؤاله: إن كان متأكدا حقا مما يزعم، ثم يعدو على مزاعمه البسيطة فينسفها نسفا.
وبدافع من تقليد النهج الفكري للشخصية الجديدة، سرعان ما انقلب صاحب النهج اليقيني الثابت الذي لا يتزحزح، إلى رجل يشك شكا عميقا في كل أمر، حتى لو كان من أمور التجارب الكيميائية المتكررة، أو تنبؤآت رجال الفلك والأرصاد الجوية اليومية، وغير ذلك من اليقينيات العلمية والبدهية، ثم ما عتَّم أن ساوره الشكك في شهادة الإسلام حينما لقنها له أهله وهو يلفظ آخر الأنفاس.
ومن السطور الأولى في هذه القصة الطريفة لم يفت على الأستاذ الحصيف معاوية أن يذكر أن هذا الشخص، جلال أفندي، كان قد أصيب بطائف من الجنون قبيل موته، ليدلَّ بذلك على أن شكه كان من قبيل الوسوسة المرضية، ولم يكن شكت فلسفيا ديكارتيا، كما رأى الصاوي الذي لم يقرأ القصة جيدا!
فمرمى القصة لم يكن إذن:" إيصال مبدأ الشك المنهجي الديكارتي المعروف "[110]، كما زعم الأستاذ الصاوي، وإنما هي قصة من الأدب الرمزي،

---

[106] معاوية محمد نور، إيمان، صحيفة (السياسة الأسبوعية)، بتاريخ 13 سبتمبر 1930م.
[107] المصدر السابق.
[108] المصدر السابق.
[109] المصدر السابق.
[110] عبد العزيز حسين الصاوي، معاويه محمد نور: علم التنوير السوداني والمصري أيضا، مصدر سابق.

موضوعة من أجل السخرية من سلوك بعض أوائل المتعلمين السودانيين الذين لم يتعمقوا العلم والفلسفة، وراحوا يهرُفون بما لا يعرفون.
وأشد سماجة من هذا الفهم السقيم الذي انتهى إليه الأستاذ الصاوي ذلك العوج النفسي الذي سوَّغ له أن يستنتج من تركيب اسم داعية الشك، المدعو هاشم عرفات، أنه شخص ذو نسب قديم متقادم في دنيا الإيمان الإسلامي: فهو شخص قرشي، هاشمي، ومن عرفات!
وقد أراد الصاوي بخبث بالغ والغ في سجيته أن يرسي هذا المعنى المستبشع في خاطر القارئ المسلم عندما حثَّه على تأمل تكوين الإسم قائلا:" لاحظ الاسم "[111]!
وقد ألحقنا قصة (إيمان) بكاملها بنهاية هذا الكتاب، ليتأملها القارئ المحترم بنفسه، فيدرك زيف مزاعم هذا الصاوي، الشانئ لدين الإسلام، وشديد الحساسية تجاه كل ما يتصل به، ويصدر عنه.

خاتمة

إن معاوية محمد نور مفكر وأديب كبير فذ، وأعجوبة من أعاجيب العصر الحديث بحق، ومقامه في عالم الفكر هو أعلى بكثير من مقامات الإيديولوجيات الصغيرة التي تدعى بالشيوعية، والبعثية، والجمهورية، وقد كان تجرده في كفاحه في سبيل المبادئ أعظم بكثير من بلاء كافة زعماء هذه الإيديولوجيات ومن بلاء أتباعهما الناعقين.
وقد اتسم فكر معاوية بأنه فكر إنساني حر عالمي الطابع، ولم ينتم صاحبه إلى أي حزب، فقد نشأ معاوية ومات قبل أن تنشأ الأحزاب السودانية الوبيلة، وقبل أن تنشأ أكثر الأحزاب السياسية العربية، ولم يعرف لمعاوية انتماء حزبي في مصر التي بلغها بعد خروج أستاذه العقاد على حزب الوفد، وبهذا اختلف عن حال أكثر أفراد النخبة السودانية في ذلك الحين، حيث شاع في أوساطهم، لسبب ما، التحيز المفرط لحزب الوفد.
فمعاوية الذي لم يتلوث بلوثة من الهوى السياسي الضار، لم يأبه في كثير ولا قليل بحدود التفكير الحزبي القاصر، وظل يسبح في سماوات الفكر والفن والأدب العالمي، ولذا فإن من المقت المستهجن أن يرنو بعض الكتاب المعاصرين إلى (أدلجة) هذا المفكر الأديب الحر، وإلى

---

[111] المصدر السابق.

تفسير أفكاره وتأويلها بحيث يتم نصبه في النهاية رمزا لوجهة إيديولوجية حزبية بعينها.

وهذه عادة راسخة عند الحزبيين الشموليين الذين يحاولون (تجيير) المواهب المرموقة لصالح أحزابهم، مع التباهي بها، وتسخيرها للدعاية للعمل الحزبي، وإخضاعها في النهاية لشروط العمل الحزبي وخططه وبرامجه!

وما أشد ما أضرت عمليات (الأدلجة) والاستحواذ هذه بثمار العمل الأدبي اليانعة وأفسدتها، وقد أساءت في الماضي القريب إلى كثير من المدارس والاتجاهات الأدبية الكبرى، وأرهقتها من أمرها عسرا شديدا كاد أن يخنق منها الأنفاس.

ولننظر جميعا بعين العبرة البالغة إلى هذا المثال الساطع من حالة الأدب الروسي، وهو في أوج ازدهاره، وهو الأدب الذي وصفه معاوية في بعض كتاباته بأنه:" قصص جمع إلى بساطة التعبير وعدم الزخرفة اللفظية جمال الفن الرفيع، وإلى صدق اللهجة سحر العرض، يُعنى بمسائل الحياة ومسائل المجتمع الإنساني، فيه عطف واسع، وشدة في العاطفة، وتصوير لمآسي الحياة من غير ما تحيُّز ولا تعمُّل. فأنت تقرأ هذه القصيدة فتجد فيها من الفكاهة المحزنة ما يتصل بشغاف قلبك، وتنتقل منها إلى هذه فتجد في جوها شيئا من السحر والابتكار لم تألفه من قبل في جميع ما قرأت من قصص. فهذه الفردية التي يتسم بها الأدب الروسي وهذا الاختراع وهذه البساطة الجليلة هو ما يعطي القصص الروسي مكانه من الأدب العالي، ويحله ذروة من الخلود عالية"[112].

فلننظر إلى هذا الأدب الزاهي، ولنسأل أنفسنا كيف انطوى تفرده الذي تميز به، وكيف انكمش وذوى واضمحل، وكيف ذهب أثرا بعد عين؟!

ولنسأل كيف انطفأت تلكم القرائح العبقرية الوهاجة واحدة تلو الأخرى، بعدما أطبق عليها البلاشفة بشعاراتهم الإيديولوجية، وشرعوا في دمج نتاجاتها في إطارات خطط التنمية الاقتصادية والاجتماعية الخمسية؟!

---

[112] معاوية محمد نور، دراسات في الأدب والنقد، مصدر سابق، ص، 80 - 81.

فاعتبارا بمثل هذه العاقبة التي لا تسر مخلصا من أرباب الأدب وخلصائه، ينبغي أن يكف مثقفونا السودانيون عن محاولة تقييد النشاطات الفنية الإنسانية الراقية بقيود التحزب الأعمى.
وقد كان معاوية كما تبدي بعض آثاره شديد الاستهجان لأساليب (الأدلجة) والحشد الحركي التي تستخدم لترويج الأدب، وتلميع الأدباء الحزبيين، عن طريق النقاد المحسوبين، الذين لا يألون جهدا إعلاميا بائسا في سبيل تحسين كتابات كوادر الحزب الأدبية، ومحاولة فرضها عن طريق تكرار الطرق عليها على أذواق القراء!
وقد استملحنا قطعة نقدية ساخرة من بعض كتابات معاوية الحسان، انتقد فيها الدكتور أحمد زكي أبي شادي، صاحب جماعة (أبولو) الأدبية، وقال في مستهلها:" للدكتور أحمد زكي أبي شادي أكبر (كمية) من الأنصار، يذيعون شعره، ويتحدثون عن فنه، ويعلنون عن دواوينه بشدة وحرارة، وبأساليب مختلفة، وطرق متعددة، فحُقَّ لنا أن نتساءل عن هذا الشاعر الذي يدعي التجديد والعصرية في الشعر، وعن نصيب هذه الدعوى من الصدق والحق"[113].
وقد بذل معاوية جهدا كبيرا في مقاله سبر به أغوار أبي شادي باستعراض تحليلي نقدي طريف نافذ لديوانه (الشفق الباكي) خلص منه إلى أن أكثر شعره تقليدي، وأن حظه من الشاعرية الحقة جد قليل، وأنه لذلك السبب وحده يستقوي بأساليب الحشد والاستنفار الحركي لفرض شعره الباهت على الخلق.
وبعيدا عن مثل هذه الأساليب ينبغي أن نقرأ أدب معاوية محمد نور، وأن نتأمله ونتملَّاه بحيدة وموضوعية، وأن نراه كما هو في حقيقته، أي كما أظهرته آثاره النقدية والابداعية، وفي أضواء الظروف الزمانية التي عاشها.
وهذا مما يستلزم أن يقلع المثقفون الإيديولوجيون المتطرفون في بلادنا عن النظر إلى أدب معاوية كما يشتهون، وأن يمتنع الحزبيون الملتزمون عن رؤيته وفق مناظيرهم الصغيرة قصيرة المدى.

---

[113] معاوية محمد نور، دراسات في الأدب والنقد، مصدر سابق، ص، 12.

وكفى ظلما بليغا ذلك الظلم الذي حاق بمعاوية في غضون حياته القصيرة العامرة ذات الشجى.

وعسى أن نجنبه بمثل هذا الوعظ، وإن قسا، ظلما أشد، يسعى البعض لإلحاقه به بعد الممات.

الفصل السابع
ملاحق

الملحق الأول

AN ARAB TELLS HIS STORY
A STUDY IN LOYALTIES

By EDWARDS ATTIYAH

John Murray

ALBERMALE STREET
LONDON W.r
First Edition
1946

CHAPTER XXIX
NASTER AND PUPILS

In my work I found a great and compensating interest. I

liked my pupils and felt that they liked me. They were mostly friendly, smiling boys, tidy and pleasant to look at in their white gallabiyas and turbans. Sons of cultivators and government officials and artizans and tribal chiefs, they came mostly from backward homes but were tremendously keen and very anxious to learn.

Their backwardness in English and general knowledge was more than counterbalanced by their freshness and spontaneity, their enthusiasm and earnestness.

These boys, whose fathers and grandfathers had till thirty years before lived their own traditional lives completely unaffected by foreign ideas, using the sailing boats and water-wheels of Pharaonic times, were now receiving a quasi-English education and rapidly coming under the influence of Western thought and the example of other and more advanced Eastern countries.

Apart from books and teachers there was the Egyptian Press, coming in twice a week, daily political papers, and illustrated weekly magazines-news from all parts of the world, especially Eastern countries, the latest developments of the political situation in Egypt; Gandhi imprisoned or release; Mustapha Kemal doing this and Ibn Saoud that; fiery patriotic articles, denunciations of Western greed and predatory imperialist designs; chronicles of sport events, biographical notes on film stars; a story from Guy de Maupassant, a critique of Nietzsche, a commentary on Bernard Shaw; descriptions of the latest mechanical wonders and reports of the latest speed records; articles on democracy and socialism, the League of Nations and disarmament-and running through all this, one main theme-the awakening of the East, the unfolding nationalist aspirations of Egypt, Turkey, Syria, Palestine, Arabia, India, China.

The Sudan had already had its first unfortunate experience of nationalist eruption. Under the impetus of the Egyptian movement in its first revolutionary stage, a number of Sudanese of the first educated generation organized an agitation aiming at independence in union with Egypt.

The agitation, which was confined to a section of the nascent intelligentsia, itself a very small minority, led to an outbreak of disorder in some of the towns and a mutiny in some units of the army.

The Government struck swiftly and decisively. The organization was broken up, the leaders severely punished, and Egyptian influence removed from the Sudan for several years. The whole thing had been an immature and misguided ebullition.

This had happened in 1924, and when I arrived in 1926 the country was quiet, and the educated class somewhat subdued. In the minds of my pupils, however, the ferment of budding thoughts and new emotions was going on. The narrow walls of their traditional prison- house had been perforated with a few holes sufficiently wide to let them see the outside world, and hear its mighty rumblings. The more imaginative of them responded vigorously to the stimulus. Their reaction was a complex of conflicting emotions. Wonder and an awed admiration of this outside world with its immense wealth and power, knowledge and skill and speed; thrills of excitement at coming into contact with it, though ever so slightly, at beginning to form a part, though as yet a remote and passive one, of this living, progressing colossus; contempt and pity for themselves and their country for being so backward and poor and ignorant; a collective feeling of smallness and inferiority, provoking

in many cases a strongly assertive individual attitude and an inordinate self-conceit derived from the acquisition of Western education.

Among these various elements one was dominant: mortification that this modem world into the outskirts of which they were being admitted, should be entirely dominated by the West, and that one of the principal manifestations of Western power should be the subjection of the East. But the East was beginning to stir, and they were a part of the East.

Emphasizing their Arab descent, and excluding from their consciousness their association with Africa and its Negroes, they found great consolation in these facts. They were sharing in the renascence of the Arab East, but as this renascence had not much to show yet, they sought comfort and encouragement in the past greatness of the Arabs. What if the Christian Europeans were now the masters of the world? Had there not been a time when the warlike Arabs, fired by the spirit of their Prophet and the zeal of their new faith, swept victoriously through Christendom, carrying the Crescent beyond the Pyrenees and as far as the Bosphorous? Had not the Arabs been the masters and teachers of the world when the now mighty Europeans were steeped in mediaeval night? Had they not translated Aristotle into Arabic and transmitted to the European barbarians the first gleams of the light of Greece?

But the greatest consolation of all, the one beyond doubt and dispute, the safe and sure anchorage of their being was the knowledge that in their Book and Prophet they possessed the Ultimate Truth.

In this serene knowledge they felt superior to all outsiders even if god for some inscrutable reason had given some

of these material powers of a somewhat remarkable kind. Truly that knowledge was a rock of comfort, and as long as it was not undermined by the burrowings of the imps of doubt they could lean on it and face the world. But in some cases the imps were already at work.

It did riot take me long to see that the reactions of my pupils were very analogous to that psychological attitude I had known so intimately in Syria as a child.

The exaggerated glorification of the Arabs by the Sudanese was the exact counterpart of the Syrian Christians' hero-worship of the West while they were under Turkish suzerainty. The consolation which they derived from the feeling of kinship, through community of religion, with the European nations, the Mohammedan Sudanese, governed by Western Christians, sought and found in their relationship with the Arabs of the past.

A true son of Victoria College and a faithful disciple of Mr. Reed, I had come to the Gordon College determined to have intimate personal relations with my pupils, to practice all the ideals of teaching and human intercourse which I had acquired during my own education, and the state of things I found there added fresh incentive to my resolve. The military atmosphere sharpened my determination to be human; the aloofness of the British masters made me want to be nearer to the Sudanese. For by treating my Sudanese pupils as I believed pupils should be treated I was conscious of a moral superiority which buttressed my self-respect. I liked to think that by getting nearer to the minds of my pupils, by gaining their confidence and affection, by making them feel that I was their friend as well as their teacher, I could exercise over them an influence far deeper and subtler in

its ultimate results than the authority of the British tutors for all its outward power. It was my compensation for the official inferiority of the position in which I had been placed.

The most promising of my pupils, the one whose subsequent career was to be the most remarkable, as it turned out to be the most ghastly in its final failure and tragedy, was a slight, pleasant-looking boy of eighteen in the final year, called Moawiya Nur.

He attracted my attention from the first day by quoting from Shaw and Anatole France. I thought he was trying to show off a little superficial knowledge, but to my surprise I found when I probed him that the knowledge was deep and that behind it lay a shrewd and critical understanding. Moawiya came of an old and noted Arab family. His grandfather had achieved distinction under the Mahdi's rule, and one of his uncles was a judge under the Sudan Government. Being one of the most promising boys of his generation at the College, Moawiya had been selected by the College authorities for a medical career and given a scholarship to the recently established Kitchener School of Medicine for which the best talent was being recruited. Moawiya's own inclinations were strongly literary, and although a medical career offered him the best prospects a Sudanese could look forward to in Government service, he had no wish to become a doctor. Almost alone among the boys of his generation he did not regard education as the door to government employment. He desired education for its own sake; and he wished to study literature. But there was no university in The Sudan, and no literary course which he could take after leaving the Gordon College.

The choice before him was to become a clerk on leaving the College or to accept the scholarship offered him and study medicine. He might have become a teacher, but the College authorities did not think he would make a good schoolmaster. So it had to be medicine.

His people naturally thought him mad to demur to the splendid chance offered him of free medical training and a secure and lucrative government career. Such a phenomenon had never been known in the Sudan before.

It was something in the nature of a biological mutation. But the mutation had occurred in an unfavorable environment, and much against his will Moawiya consented at least to try the school of medicine.

But already Moawiya's heart was elsewhere. The literature that had cast its spell over his mind was English literature, and his heart had gone to the West.

Moawiya was the first Sudanese to make real contact with the spirit of the West. In English literature, this North African Arab boy, who had never crossed the frontiers of the Sudan, who lived in a household where the women could not read or write even Arabic; found his spiritual home.

His case was similar to my own but more unusual, more extreme. The differences between his spiritual home and his native soil, between the country, family and tradition to which he belonged and the remote and invisible world to which he was reaching out with all the eagerness and intimacy of a new passion, were far sharper and deeper than they had been in my case. He was a Moslem boy, a black boy. He was not only an Arab, but also an African, and his country had never known any culture but a narrow and stunted form of Islamic tradition. To have a picture of the contrast, to visualize

the gulf he was stepping across, imagine him in the bosom of his family at Omdurman, surrounded by his mother and aunts, sisters and cousins, segregated women who had never looked on a stranger, illiterate women whose minds encompassed nothing beyond the elementary facts of biological and domestic life-birth, circumcision, marriage, pregnancy, divorces, death, mourning, cooking, personal adornment- imagine him in this setting reading Jane Austen or Aldous Huxley, moving about in polished I8th century English drawing-rooms, breathing the atmosphere of 20th century Bloomsbury.

I felt a deep sympathy for him which he sensed and repaid with the trust and admiration of a young enthusiast eager and grateful for guidance. He and I had met in this great country of English literature, to which we had come separately, travelling from different parts of the earth. I had been there for some time, but he was a raw newcomer, and the climate was utterly different from that of his native land. I had been able to acclimatize myself. I could go on living here indefinitely in great comfort and happiness, and if I had to go back to my homeland I could live there too, though perhaps at a little lower level of vitality. But this complete stranger, inhaling this new air so passionately, how would he get on?

A few months after he had joined the School of Medicine Moawiya came to see me one day. In the course of our talk he asked several questions about universities abroad, what qualifications one had to have to be admitted to them, what the fees were like and so on.

A week later I heard that he had left the School of Medicine and absconded to Egypt. His family were profoundly

shocked and also alarmed. Egypt in those days was politically taboo in the eyes of the Sudan Government. A student running away to it in quest of higher education might be easily mistaken for a political renegade. Moreover, by leaving the School of Medicine and seeking education abroad Moawiya would forfeit his claim on the Government for subsequent employment.
His uncle therefore appeared before the Director of Education, denounced his nephew's ungrateful madness and undertook to proceed immediately to Egypt and bring back the young fool by force if necessary.
The Director promised to keep Moawiya's place for him at the School of Medicine until the uncle came back, and the latter left for Egypt.
In Cairo he appealed to the Ministry of the Interior. He explained that he had come to reclaim a runaway nephew who was under age. The Government lent its support. The necessary orders were issued and Moawiya was arrested, kept at a police station for the night and handed over the next day to his uncle, who pushed him into the return train and brought him back to Khartoum. But Moawiya had made up his mind and bluntly declared that he would neither go back to the Medical School nor become a Government clerk.
He wanted to go to a university and study English literature. His uncle, who was a friend of mine and knew that I took a special interest in the boy and had some influence over him, decided that I should arbitrate on the matter.
Uncle and nephew came along and a solemn conference was held in my room to decide Moawiya's fate. Moawiya said that he wished to go to the American University of Beyrouth, and that his family had the means to send him

there.
The uncle admitted the means but objected that by going to Beyrouth Moawiya would lose his career and all guarantee of government employment. Moawiya said he did not want any guarantees and would be able to earn his living somehow or other when he had taken his degree.
The uncle turned to me for judgment. I felt that I was reliving my own experience of four years before in the person of Moawiya. I knew what he was feeling for I had felt that yearning and known that strife myself. I could see the dream in his eyes, the look fixed on the distant horizon. The uncle, a decent fellow, neither hard-hearted nor narrow-minded, but merely practical, merely sensible, thought in relative values, balanced one advantage against another, considered consequences, employment, career, livelihood.
But for Moawiya, passion-possessed, there was nothing to be considered, there was only one absolute value, one end which must be sought for its own sake regardless of all consequences-the education of his mind, the development of his personality along the lines of its choice. He wanted to realize himself before worrying how he was going to feed and clothe and house that self. I pronounced in his favour and a few weeks later he left for Beyrouth.

CHAPTER XXXV
A DEFEAT AND TRIUMPH

Although we now had many British friends and felt completely at home with them, we did not belong to the British community, and indeed had no desire to belong to it. We did not wish to belong to any community, and shut ourselves up in a narrow and monotonous national circle.

We wished to be able to make friends everywhere and live a cosmopolitan life. And this we now did. We had many Syrian friends without belonging to the Syrian community, and we also had Egyptian, Greek and Armenian friends.

Above all, we had a large circle of Sudanese friends, some of them elderly people who had been my father's friends, but most of them young men whom I had taught at the Gordon College or got to know subsequently through my work.

They were all genial and hospitable and ready to return friendship with a warm and open heart. Jean took to them easily, and having mastered Sudanese Arabic and social customs and developed a taste for the national dish, Kisra and Mulah, became very popular with them. Their women did not sit with us when we went to their houses, but after dinner while I and the men sat in the male quarter, she used to go in and visit them in the Harem and converse with them fluently on children and

housekeeping and sewing and all other feminine matters.
It was a social life of great variety and sharp contrasts, and we enjoyed it immensely. It was our own creation. We had not found it in Khartoum, but had carved it out for ourselves, and we were very happy in it. There were no more any tensions in my life arising out of the clash of race or nationality.

My greatest friend among the Sudanese was still my old pupil Moawiya Nur. I had kept in close touch with him during his three years at the American University of Beyrouth, where he took his degree in English literature. We used to meet every summer either in Syria or in the Sudan, and I had followed with delight the fulfillment of his dream and the development of his powers from year to year.

On graduating from Beyrouth he had gone to Egypt with the ambition of earning his living there as a free-lance literary journalist. fired with the young intellectual's enthusiasm for the literary life in a great city, of which he had dreamed with so much longing in his home in Omdurman and as a medical student, against his will, in Khartoum, he had won through to his dream, he had smashed all the shackles that had threatened to chain him down-family opposition, Caesar's fiat, the insidious lure of government service, and now, at 21, a B.A. in literature from Beyrouth, the young Sudanese boy from Omdurman was free to live the life of his choice in the great city of Cairo.

The Bohemia of his imagination was waiting for him, with its attics and cafes, its Quartiers Latins peopled by Zolas and Johnsons and Dostoevskys, its glories of the mind and contempt for matter.

The fragile young Sudanese, very dark in complexion, with

inspiration in his flashing eyes and mirth in his flashing teeth, his fierce idealism and burning literary passion, his prodigious reading and over- flowing mind, was something new in Cairo literary circles, He attracted the attention of the distinguished Egyptian writer Abbas E1 Aqqad and was welcomed into his set.

He became known and popular. His literary articles, applying European canons of criticisms to Arabic literature, rapidly gained him a name, and well-known writers came to value his opinions. For some time he was intensely happy; happy in his spiritual triumphs, and happy in the ascetic rigors of his material life.

He lived in a small room on a roof in Heliopolis, amid little furniture but stacks of books and papers in the disorder proper to the artistic temperament. His meals were few and spare. Most days he lived on bread and cheese in his garret, and when sometimes he went to bed hungry, he got a thrill out of it. Had not Zola felt the pangs of hunger?

He was living in the authentic tradition. The mind triumphed in the discomforts of the body. But before long the flouted body began to take its revenge. His health suffered from lack Of nourishment.

The money he earned with his articles was not enough to feed him, and there were no prospects of improvement, since it was impossible in Egypt to earn a, living in literary journalism alone, he was ill several times and on these occasions he spent lonely days confined to his attic on little nourishment and with nobody to care for him. Depression assailed him. Bohemia, seen from the windows of a lonely sickroom, lost its charm.

He struggled on for a few more months, borrowing money from friends and extracting a little from his family, but in

the end he yielded to the exhortations of his uncle to return to the Sudan and seek a job in government service. His objection to government service, now that he had achieved his ambition of completing his literary education, had lost much of its force. As a university man with a trained mind he might hope for an educational or administrative post in which he would have an opportunity of pursuing, if not his purely literary, at least his cultural and human interests, while the security and ample leisure of a government career would leave him enough time for writing.

With these hopes Moawiya returned to the Sudan and spent some months trying to get a government post. I saw a good deal of him during this period, and I was greatly impressed by the maturity and objectivity of his thought. He was a nationalist, but a new kind of nationalist in the Sudan, and very rare indeed in the whole of the near East. He was a self-critical nationalist, a rational and constructive nationalist who repudiated not only the blind emotional upsurge of hostility to the West, but also the abstract purposeless craving for independence as an end in itself. He believed, with all the intensity of his earnest nature, that the only justification for nationalism was the possession by a people of something worth expressing in itself and as a contribution to world civilization.

He believed that independence was only the means to an end, and that if a worthy end did not exist in a healthy and creative nationalism, independence was not deserved, and if secured would be valueless.

He wanted nationalism to start by being a movement of internal creation, of economic development, cultural progress and social reform, before it became a revolt

against external control.

For the British he had no hatred. For their good qualities and the good work they were doing in the Sudan, which he could see with an eye unclouded by passion, he had a great admiration, coupled with an objective and tolerant criticism of their faults.

He was convinced that in her thought, culture and institutions, England had something valuable to impart to the East, and he was very anxious that the Sudan should acquire it.

Sitting in my office, where he visited me frequently in the mornings, he would discourse interminably on these matters, analyzing Imperialism and Nationalism, quoting Lugard and Julian Huxley, and also laughing and flashing his teeth a good deal.

For his earnestness and zeal were balanced by a great sense of humour, which never failed to reveal to him the ludicrous even in himself, and often, in the middle of a fervent exposition he would suddenly see his subject or himself in a comic aspect and burst out laughing.

He failed to get the kind of job he wanted. The Government found him alarming, and the Education Department turned him down as being unsuitable for a teaching career.

His interview with the high official who passed the final sentence on him was somewhat unfortunate. Moawiya went to the interview wearing a loud yellow tie, which had a devastating effect on the staid bureaucrat.

They talked about English literature and somehow got on to Johnson, about whom Moawiya knew a good deal and the distinguished civil servant apparently very little. Feeling called upon to say something, the high official thought he would play for safety and hide behind a cliché

which he deemed to be non-committal. So he advanced the opinion that Johnson was born before his time.

This statement shocked Moawiya as much as his yellow tie had shocked the high official, and the interview ended negatively. Later Moawiya was offered a small post in the Finance Department which neither agreed with his inclinations nor took account of his university qualifications.

He refused it and returned once more to Egypt, disappointed and harboring a grievance against the Sudan Government for having denied him the chance to live and earn a living in his country in a post that suited his bent and attainments.

Out of pique rather than conviction, and in order to earn the money which he needed desperately and which some Cairo news- papers were willing to pay for political anti-British copy, and not for literary matter, he wrote a number of articles satirizing the white man toiling under his burden on the pleasant lawns of Khartoum, with ice tinkling in his sundown refreshment.

Moawiys's return to Egypt was not only due to his failure to find a government job. A deeper reason was that he had become to a large extent a stranger in his own country, a lonely soul among his people and in his family. He, if not Johnson, was certainly born before his time. The gulf between his mental life and his native environment had become immense. He no longer had an anchorage in Sudanese life, and his tragedy was that he had failed to find a new anchorage elsewhere.

Egyptian Bohemia was largely a pose and a phase. It offered him intellectual satisfaction and superficial excitement. But it had no soil into which he could strike new roots. In all the intimate things of life he felt a stranger in

Egypt. He was a wanderer with no real home except in the imaginary world of Western literature. Only among the characters of Dostoevsky, Thomas Hardy, D. H. Lawrence and Aldous Huxley could he live intimately and intensely. There may, of course, have been other psychological processes of a more insidious nature at work in Moawiya's mind, but there is little doubt that this spiritual homelessness had much to do with his tragic end.

One day, a few months after he had gone back to Egypt, I heard that he had had a nervous breakdown and was in the Cairo mental hospital.

A few weeks later, having rallied slightly from the first shock of his disorder, he came back to the Sudan, for the last time, to live with his family in Omdurman and be looked after by those who in spite of intellectual disparities cared for him as nobody in Egypt could.

It was the pathetic homecoming of an adventurous soul, returning in failure from a daring quest, maimed and frightened. For some time he was able to go about and superficially looked normal. He came to see me at my office as was his custom, and at first I could see no difference in his behavior. I noticed, however, that he had a bulky book in his pocket and asked him what it was. His answer surprised me. The book was the Koran, and Moawiya explained that he was deriving great comfort from it and discovering in it meanings he had not understood before.

He spoke with mysterious innuendoes as one to who something of deep import was being revealed. This gave me a shock. I had had some previous experience of religious symptoms in cases of nervous breakdown, and immediately recognized the significance of Moawiya's speech and the way he said it.

But a greater shock came a few moments later. The year was 1935, and Mussolini was rumbling at the British Empire. Moawiya, with a meaning look in his eyes asked me whether the British in the Sudan were not afraid, and to my amazement went on to suggest, by means of the same mysterious innuendoes, that there was some secret connection between him, the Koran, Mussolini and the approaching doom of the British Empire.

He threw out hints of occult powers, giving me to understand that there was more in the international crisis than met the eye, at least my eye, and that Mussolini was the instrument of a high purpose which somehow was associated with Moawiya's private desires.

I looked speechless at the fragile pathetic figure sitting opposite me, marveling at the fantastic resourcefulness of the human mind when defeated by reality.

Moawiya's delusion was his answer to the might of the British Empire, his revenge on the British for their dominion over the Sudan, his retaliation against the Sudan Government for having denied him a job.

I did not see him for some time after this first meeting. He did not come again, and I heard that he was spending all his time at home and did not wish to see anyone. Then one day I had a message from him asking me to go and see him. I went and was staggered by the change that had come over him. He was in a comparatively lucid state when I saw him and this indeed added poignancy to what I saw and heard.

He knew that there was something wrong with his mind, and he was seeking a cure. He had put himself in the hands of a Fiki, a primitive, ignorant, half-religious and half-medical quack, who was treating him by means of charms and mysterious potions. Moawiya

believed that this man could do him good. He believed in his powers, in his superstitions.

He had reverted to his native dress and his change in his appearance, which at a normal time, would have made no impression on me, and now seemed the symbol of a deeper reversion. For behind those clothes a whole culture and a whole personality had disintegrated.

Piece by piece, like Emperor Jones in the panic of his forest night, Moawiya's disordered mind had cast away all its cherished Western garments and fallen back to its primitive trembling nakedness.

The Fiki did not cure him. He became completely insane and later died.

الملحق الثاني
نماذج من السرقات في الأدب السوداني المعاصر

[مقال للدكتور حيدر أبي التُّقى في التعقيب على مقال للأستاذ صلاح حسن بعنوان (الرشيد عثمان لم يسرق أقوال إدوارد عطية)، وقد نشر مقال الدكتور حيدر بصحيفة (الرأي العام)، بتاريخ 16 سبتمبر 2004م]

قرأت بصحيفة (الصحافة) ردا حول كتاب إدوارد عطية An Arab tells his story ، وتعليق وترجمة الدكتور محمد وقيع الله للجزء الخاص بالأديب السوداني الفذ معاوية محمد نور.

وإنه لشرف لنا أن نبحث ونستقفي خطى أديبنا العظيم نور، ونستلهم آثاره وذكراه أنى وجدت، كما هو مهم أن نعيد شخصية مثل إدوارد عطية للدراسة والبحث الجاد، من أجل التعرف على الأدوار المثيرة التي كان يقوم بها، متشحا بثوب ودادٍ المثقفين في الظاهر، مقلبا لهم ظهر المجن في الباطن، كيف لا والرجل يحدد في مذكراته، شكل العلاقة التي كانت تربطه بجمهور المثقفين، في استقرائهم وتفسيرهم، على ضُوء هوى حكومة الاستعمار في الخرطوم.

وقد عملت جاهدا للحصول على نص كتابة الدكتور وقيع الله، لما يتضمنه من علامات بارزة في فكر معاوية نور، وقد شدَّني مقال الأستاذ حسن صلاح الدين، الذي تربطه صلة قرابة مع الرشيد عثمان، والذي جاء بعنوان (الرشيد عثمان لم يسرق أقول إدوارد عطية)، والرشيد هذا يعد جامعا ومقدما للسِّفر المهم الذي يعد مرجعا في تاريخ معاوية نور، وأرجو أن أدلي بدلوي في هذا السجال، لأن مرجعا في هذه الأهمية، سوف نخسره إن نزهناه عن أعمال الجرح (نقدا) والتعديل (تصويبا). وذلك لسببين:

أولا: لأن كائنا من كان من البشر لا تعصمه عاصمة عن النقد.

وثانيا: لأن ما وقع فيه جامع آثار معاوية نور، فيه إخلال بمناهج التأليف، يستحق التمحيص وسبْرالغوْر من قبل الباحثين والمحبين لأدب نور.

ولنطرح أولا عينة من الاتهامات الأدبية، التي عددها الدكتور وقيع الله لكاتب

مقدمة آثار نور، لنطلق على أساسها الأحكام النقدية:
أولا: إن رشيد قد نقل كلام إدوارد عطية واصطنعه لنفسه.

وقد ساق وقيع الله دليله قوياعلى ذلك بعدة أسطر نقلها الرشيد حرفيا من حديث ادوارد عطية، مثل العبارة التي تحدث فيها الأستاذ رشيد بضمير القائل:" ولعلنا لا نركن إلى المغالاة إذا ذهبنا إلى القول بأن معاوية كان أول سوداني يتصل اتصالا حقيقيا بروح الغرب وأدب الغرب".

وأصل العبارة كما جاء في إدوارد عطية:

"Moawiya was the first Sudanese to make real contact with the spirit of the West."

وبهذا التعامل مع النص فقد ارتكب الرجل نوعين من الأخطاء:
أولهما: خطأ نقلي، مخالف لأبسط قواعد الملكية الفكرية وأسس الإحالة والتهميش.
وثانيهما: خطأ حُكمي، بأن تبنى أحكام الغير لنفسه. حيث إن مثل هذه الأحكام القاطعة لا يطلقها العوام من الناس. ولا شك أن كاتب المقدمة كان يدرك ذلك، مثلما يدرك جميع المهتمين بالأدب أن إطلاق حكم بهذه الجدية لا يتأتى إلا لمن أنس في نفسه ما يدعوه ليكون أهلا لإصدار مثل هذه الأحكام نحو أستاذ، أو مراقب لصيق، أو ذي غرض كإدوارد عطية، بحكم مكنته الاستخبارية، لا الرشيد عثمان، الذي كوَّن رأيه في معاوية عن طريق الرواية الشفهية، من خال أديبنا معاوية نور وجَدِّ الرشيد (والرواية الشفهية ليست بثقة في هذا الحكم بالذات، ويؤخذ منها ما هو متعلق بنسب معاوية، وتاريخه الاجتماعي بعد الفترة، والنقد الأوَّلي). فهل كان (الجَدُّ) المنقول عنه يتمتع بالإلمام بمجاميع المفردات، وأدوات المقارنة في عصر معاوية نور، حتى يصدر هذا الحكم المقارن لصالح ابن أخته معاوية؟!

إذن فمن أين أتى الحكم الذي انتقى معاوية كأول سوداني يتصل بروح الغرب؟!

إن هناك سرقة أدبية، يجب أن نقرَّ بمصدرها، ولا داعي أن يوقع الأستاذ حسن صلاح الدين نفسه في التناقض، ويدعي أن كاتب المقدمة لم يكن أديبا:" لنسأله عن ترصيع مقدمته ببديع الكلام "، ولا باحثا:" لنجره إلى محاكم النقد الأدبية "، ثم يبذل في الوقت نفسه، جهدا موازيا، لدفع السرقة الأدبية عن الرشيد، كاتب المقدمة.

إن الترجل عن صهوة العواطف هو أول عُدد الباحث العلمي، وخلع بزة الهوى هي حلة صاحب الفتوى. ولعلنا نعجب هنا من استشهاد الأستاذ حسن صلاح الدين بقول الدكتور مجاهد علي، الذي حرر رسالة ماجستير بعنوان (معاوية محمد نور وآثاره النقدية)، والذي قال لصاحبنا - والعهدة له – مندهشا عندما سأله إذا ما كان الرشيد عثمان خالد قد انتحل حديث إدوارد ونسبه إلى نفسه:" هذا كلام غريب، فالرشيد عثمان خالد لم يكن يكتب بحثا علميا، ومن الطبيعي أن يكون قد مرَّ على جميع الذين كتبوا عن معاوية، سواء أكان إدوارد عطية، أو غيره ، فهو إنما يكتب مقدمة لمقالات جمعها، وليس من مسؤوليته أن يرشد الباحثين إلى المصادر التي تحدثت عن معاوية محمد نور ".

إنه لفهم غريب**!** بل ويدعو إلى الشفقة، وإن شئت فهو مثير لاشمئزاز الباحثين. لأن فيما يقوله الدكتور المجاهد دعوة لاستباحة بنات أفكار الغير**!**

فهل يا ترى أن الدكتور يؤمن حقا برفع المسؤولية الأخلاقية عن الذي يخفي المراجع التي استفاد منها بإنكار صفته البحثية تارة، وخبرته الأدبية تارة أخرى**؟!**

لطالما كانت طريقة التهميش والإحالة العلمية لا تحتاج لناقد أو لأديب، فهي مما يُتعلم في باكر مراحل التعليم الجامعي، وفي أولى دروس مناهج البحث، التي تدرس في كليات الاقتصاد، مثلما تدرس في كليات الآداب.

إن استشهاد حسن صلاح بالدكتور مجاهد هو من شاكلة استشهاده بموظف المكتبة على أن كتاب إدوارد عطية ليس نادرا ولا عزيزا. حيث قال له بالحرف:" الكتاب دا سمح جدا، وفيه كلام مفيد عن السودان، لكن إدوارد عطية ما اتكلم كثير من معاوية "**!**

وأرجو أن أُسامح لأشير الى نقطتين:

أولا: مثير للسخرية حقا الاستشهاد بموظف المكتبة، الذي ليس من اختصاصه أن يفتي بندرة الكتب أو كثرتها. وكان من المأمول أن يتجه الأخ الرشيد للأدباء والمثقفين، ليسألهم من منهم وقعت عينه على هذا الكتاب.

ثانيا: فقد كذبك موظف المكتبة، في قوله بالحرف:" ما اتكلم كثير عن معاوية ". فكيف يستقيم ذلك وإدوارد عطية قد أفرد فصلين كاملين للحديث عن معاوية في كتاب لم يخصص في الأصل لتناول ظاهرة معاوية نور.

لمن الفضل؟

إن السرقات الأدبية داء قديم، وقد ذكر ابن شرف القيرواني في (رسائل الانتقاد) تصنيفات لسوء التعامل مع نصوص الآخرين، وأحصى من أجناسها سرقة الألفاظ، وسرقة المعاني؛ وقال إن سرقة المعاني أكثر، لأنها أخفى من الألفاظ.
ومنها سرقة المعنى كله، ومنها سرقة البعض، ومنها مسروق باختصار في اللفظ، وزيادة في المعنى، وهو أحسن المسروقات. ومنها مسروق بزيادة ألفاظ، وقصور عن المعنى، وهو أقبحها. ومنها سرقة محضة بلا زيادة ولا نقص. والفضل في ذلك للمسروق منه، ولا شيء للسارق.(الكتاب ص 256).

هذا وقد اتهم وقيع الله الرشيد بأنه:
1- درج على إدماج كلام إدوارد عطية في كلامه بدون أن يشير، أدنى إشارة، إلى المصدر الذي أخذ عنه. واتخذ ذلك ديدنا في النقل .
2- قام في بعض الأحيان باجتزاء عبارات إدوارد عطية، ثم بنى عليها تفصيلات أكثر.
3- أخذ كلام عطية كما هو من دون تبديل قليل ولا كثير، ثم نسبه إلى نفسه، وكأنه قائله الأصيل.!
ومما يشهد على صدق دعاوى وقيع الله هذه الفقرة وترجمتها المرفقة:

" ولنتصور هذا الفتى الذي يفيض تطلعا وطموحا، يعيش في أم درمان وحوله أمه وعماته وخالاته وكلهن محجبات، عقولهن لا تعي من الحياة إلا مفاهيمها الأولية، والتي كانت لا تخرج عن نطاق العائلة وتقاليدها ونواميسها، مثل الزواج، والطلاق، والحمل، والموت، والحزن، والتزين.. ويقضين بقية ساعاتهن في اجترار الأساطير والخرافات.. لنتصوره وسط بيئة كهذه، وقد علقت بروحه واستبدت بوجدانه أفكار (جين أوستن) و(توماس هكسلي) وغيرهما من مفكري القرن الثامن عشر.. في ذات الوقت الذي كانت تهب فيه عليه رياح القرن العشرين، من إنجلترا، تحمل آداب وأفكار كتابها.. أي تباين.. وأي بون شاسع ".

إن هذا التصوير ليس إلا ترجمة لوصف إدوارد لمعاوية، في الأصل الإنجليزي، الذي أرفق بكتاب (تلميذي معاوية نور - إدوارد عطية) الذي أعده الدكتور محمد وقيع الله، والتي نضطر أن نوردها للقراء كما هي، إثباتا لفعل النهب الأدبي، وتعضيدا لحق المدعي في الاتهام :

“ Imagine him in the bosom of his family at Omdurman, surrounded by his mother and aunts, sisters and cousins, segregated women who had never looked on stranger, illiterate women whose minds encompassed nothing beyond elementary facts of biological and domestic life-birth, circumcision, marriage, pregnancy, divorces, death, mourning, cooking, personal adornment-imagine him in this setting reading Jane Osten or Aldous Huxley, moving about in polished 18th century Englishlish drawing-rooms, breathing the atmosphere of the 20th century Bloomisbury”.

يقول الاستاذ حسن صلاح:" لما لاحظ الأستاذ محمد وقيع الله التشابه بين حديث إدوارد عطية والمقدمة التي كتبها الأستاذ الرشيد عثمان خالد، رحمه الله، ابن أخت الأديب السوداني معاوية محمد نور في افتتاحية الكتاب الذي صدر عن دار جامعة الخرطوم للنشر عام 1970م، والذي حوى مجموعة من مقالات معاوية محمد نور جمعها الأستاذ الرشيد من شتات الصحف المصرية، أطلق حكما قاطعا علي الأستاذ الرشيد عثمان خالد، رحمه الله، بتعمده انتحال عبارات إدوارد عطية واجتزائها وترجمتها ترجمة أدبية رشيقة ونسبتها إلى نفسه، واصفا ذلك بالفعل المشين، والصنيع الشنيع، وبأنه تعمد إخفاء كتاب إدوارد عطية ظنا منه بأن هذا الكتاب لن يقع في يد أحد من المعجبين بشخص معاوية، ثم ختم مقاله محملا الأستاذ الرشيد عثمان خالد، رحمه الله، مسئولية تأخير ترجمة الكتاب إلى العربية وإخفائه عن الباحثين والمهتمين بشان الأديب السوداني معاوية محمد نور".

وقد دافع الأستاذ صلاح عن رشيد قائلا:" فليس هناك غرابة إذن في أن تتشابه عبارات الرشيد وإدوارد عطية في كثير من المواضع، إذ كان المصدر واحدا، وفي هذه الحالة تُقدَّم الحقائق التاريخية التي أوردها الأستاذ الرشيد عثمان خالد، من حيث قيمتها التوثيقية، على تلك التي أوردها إدوارد عطية، بحكم صلة القرابة بين الرشيد وخالد ومعاوية محمد نور ".

وأرجو أن أعلق في نقطتين على هذا الدفع الأدبي:

أولا: إن ما يثار الآن ليس هو تشابه واتكاءعلى اشتراكية المصادر، بل

يتعلق الأمر بقضية انتهاب أفكار الغير بقوالبها اللغوية.

ثانيا: إن الغلبة دائما للمصادر الموثقة والموضوعية، كما في مناهج البحث، ولا ركون لمصدر شفهي أهلي في فتوى حكمية.

فهل يريد منا الأستاذ حسن صلاح أن نقتنع معه بأن جَدَّه هو الذي أصدر الحكم بأن الحفيد معاوية كان أول سوداني يتصل بروح الغرب، ثم جاء إدوارد عطية ليحشر هذا الإسباغ في أحشاء كتابه؟**!**

ويسترسل الاستاذ حسن صلاح الدين فيقول:" نلاحظ استخدام إدوارد عطية في بعض حديثه عن معاوية لكلمة (I heard) (سمعت)، ثم يذكر أخبارا عن معاوية، مما يوحي بأن هذه الأخبار تلقاها عن صديقه خالد ".

وفي الحقيقة فقد كنا نأمل من الأستاذ حسن صلاح أن يكون أكثر موضوعية ودقة في دفعه. وكم هو محزن حقا أن يواجه دعوى تستند إلى المنهج، بمنطق الرجم بالغيب والتأويلات الساذجة.

إن عطية رجل استخبارات في المقام الأول، فله أن يسمع من خالد، وله أن يعدِّد من مصادره، إلا أنه لم يقل إنه سمع ذلك من خالد**!**

ونرجو أن نرفق بالمرحوم خالد، وألا نحمله أوزار إدوارد عطية، الذي يقال إن من مآثره على الثقافة السودانية كتابة تقرير أمني قبيح في حق أديبنا نور.

سلَخَ أم مسخَ أم نسَخَ؟

وبهذا فإنها لحجة تستدعي القلق أن يفكر صاحبنا بطريقة تغليب المصادر الشفهية، في قضية ثقافية معقدة الفحوى، ومحددة المعالم كهذه.

إن ما لاحظه الدكتور وقيع الله لم يكن مجرد تشابه، وإنما بذل جهدا لم يسبقه إليه سابق، في إثبات عملية (تناصٍّ حقيقي) أو إغارة أدبية، يترفع عن مثيلها أدب العرب الأصيل، الذي يغار على عفاف النصوص، كما تصورذلك مقامات الحريري، في تراشق رشيق:" وهلْ عيب أفحش منْ عيبِكَ؟ وقدِ ادَّعيتَ سِحْري واستَلْحَقتَهُ. وانتحَلْتَ شِعْري واستَرَقتَهُ؟ واستِراقُ الشّعرِ عندَ الشّعراء أفظَعُ منْ سرِقَةِ البَيْضاء والصّفْراء. وغَيرَتُهُمْ على بنات الأفكار كغيرَتِهِمْ على البَناتِ الأبكارِ. فقالَ الوالي للشّيخِ: وهلْ حينَ سرَقَ سلَخَ أم مسخَ أم نسَخَ؟ فقال: والذي جعلَ الشّعْرَ ديوانَ

العرَبِ، وتَرْجُمانَ الأدَبِ، ما أحْدَثَ سوى أن بتَرَ شمْلَ شرْحِهِ، وأغارَ على ثُلُثَيْ سَرْحِهِ ". ص175.

فتوى التحريم

إن قضية السرقات الأدبية موضوع قديم متجدد، ولأهمية الحفاظ على حقوق الغير نشأت منظمة الأمم المتحدة للملكية الفكرية، كما تنشط لجان الملكية الفكرية في كل مكان، لتقنين مثل هذه الحقوق الأدبية وصونها. ومن الطريف أن بعضهم يقترح عقوبات تصل الى حدِّ السجن في حال المخالفات الصريحة.

ولا ننسى أن نذكر بالفتوى الأزهرية بخصوص الحقوق الفكرية ، لدى سؤال عن (التناصِّ). ونصها يقول:" تفيد اللجنة بأن الاقتباس بكل أنواعه، من كتاب، أو مجلة، أو مرج ، جائز شرعا، ولا شيء فيه، بشرط أن ينسب إلى مصدره وصاحبه عند الكتابة والتسجيل، ورده إلى مصدره الأصلي.

أما النقل من كتاب، أو مصدر، أو مجلة، عند التأليف، ونسبة ما كتبه الكاتب، وما نقله عن غيره إلى نفسه، فهذا أمر حرمه الشرع والقانون. وهو نوع من السرقة. أما النقل للأفكار، وكتابتها، وتطويرها، وتزويدها بأفكار أخرى، وتحديثها، فليس في ذلك شيء. وذلك ينطبق على سرقة الأفكار، والآراء العلمية، والدينية. بشرط أنه عند هذا تنسب الفكرة إلى مخترعها ومبدعها. وذلك لا يشبه في حكمه شرعا، حكم سرقة الأموال والمتاع، من قطع اليد وإقامة الحدِّ. وإن كان يجوز في ذلك التعذير، إذا كان الحال كما جاء بالسؤال، والله تعالى أعلم ".

بتوقيع رئيس اللجنة

30 يناير 2003-م

(الموسوعة الإسلامية - بلاغ دوت كوم)

التحذير المجلجل

لقد عرف الأدب العربي في سيرورته الطويلة وعبر عصوره المتلاحقة الكثير من عمليات الانتحال الأدبي، والعلمي، والفني. وقامت معارك مشهودة في ذلك، واتهم أدباء كبار بانتحال أفكار غيرهم، سواء عن طريق الترجمة، أو عن طريق

التصرف غير الكريم مع نصوص الآخرين، ولا ننسى أن نشير إلى ما أشار إليه العلامة عبد الله الطيب في سرقة الموناليزا من تصوير بيت شعر عربي.

وذلك في واقع الأمر ما كان يخشاه المسعودي، الذي كان في طليعة المفكرين، الذين وضعوا للسرقة الأدبية أيما اعتبار. وقد ساءته سرقة الآخرين لجهود غيرهم، فآثر أن يقدم كتابه القيم (مروج الذهب) بتحذير مجلجل، ينفطر له قلب كل من تسول له نفسه انتهاب مكنوناته الفكرية، قائلا:" من حرَّف شيئا من معناه ، أو أزال ركنا من مبناه، أو طمس واضحةً من معالمهِ، أو لّبس شاهدةً من تراجمه، أو غيَّره أو بدَّله، أو انتخبه، أو اختصره، أو نسبه إلى غيرنا، أو أضافه إلى سوانا، فوافاه من غضب الله، وسرعة نقمته، وفوادح بلاياه، ما يعجز عن صبره، ويحار له فكره، وجعله مثلةً للعالمين، وعبرة للمعتبرين، وآية للمتوسِّمين، وسلبه الله ما أعطاه، وحال بينه وبين ما أنعم به عليه من قوة ونعمة مبدع السموات والأرض، من أي الملل كان والآراء، إنه على كل شيء قدير، وقد جعلت هذا التخويف في أول كتابي هذا وآخره".

النظارة السوداء

إن ما قام به الرشيد من عمل يتعلق بجمع مقالات نور من باطن الصحف المتفرقة، عمل يستحق الإشادة والتقدير، بلا أدنى شك، إلا أن منهج تقديمه لهذا التراث الأدبي قد شوش شخصية معاوية نور وأدبه، لاعتماده الترجمة من عطية ، فأدى ذلك الى أن يكون حظ المثقف السوداني أن ينظر إلى معاوية نور المبدع، عبر نظارة إدوارد عطية المخبر.

قلت في نفسي يا ليت العقاد أنجز مقدمة أشتات معاوية محمد نور الصحفية هذه، فربما كان اتجاه الدراسات حوله قد سلك طريقا غير التي سلك.

وفي واقع الأمر فإننا لا نريد أن يظلم معاوية نور مرة أخرى بانتزاعه من رحابة الأدب إلى ربقة الأرحام والأهلية، خاصة وأن أديبنا العظيم قد ترك لنا دنيانا الفانية، وفي فمه مرارة، ولم يترك ابنا أو حفيدا ليرفع ذكره، ولم يورث متاعا إلا آثاره الخالدة، التي أصبحت مددا في عمره.

إن الرَّجْعَ إلى الحق فضيلة، وليس هناك من هو أكبر من أن يخطىء، وليس هناك من هو صغيرعلى أن يعرف الحق، حيث اقتضت حكمة البارىء أن يذهب الزَّبد جفاء، وأن يمكث في الأرض ما ينفع خلقه.

الملحق الثالث

مساجلات مفيدة ومطلوبة

[مقال بقلم البروفسور عبد الله حمدنا الله، في التعقيب على مقال الدكتور حيدر أبي التقى. وقد نشر بصحيفة (الصحافة)، بتاريخ 29 سبتمبر 2004م]

حين قرأت ما كتبه الأستاذ أبوالتُّقى في صحيفة (الرأي العام) بادرت بالاتصال بأخينا كمال الجزولي، مستفسرا عن هذا الكاتب المتمكن من أدواته، العارف بالثقافة العربية، في مظانها الأولى وبالثقافة الحديثة في ثقة واقتدار.
وجدته لا يعرفه، ولكنه قرأ موضوعه.

قلت له اليوم ظهر كاتب، نرجو أن نرى فيه عبد القدوس الخاتم، أو عبد الهادي الصديق، وألا يكون مُقلا ، مكتفيا بالمداخلات على الآخرين، بل يبادر الى كتابة أفكاره ابتداءً دون انتظار الآخرين.
والذي أعجبني فيما كتب لا يعود إلى الاتفاق أو الاختلاف معه، ولكنه يعود إلى تماسك الفكرة، ووضوح العبارة، والدقة، والتقصي قدر ما تسمح به مساحة صحيفة ذات اهتمامات متعددة.
والموضوع الذي خطه الكاتب، تعقيبٌ على موضوع آخر، كتبه حسن صلاح حسن، مبرراً فيه ورود بعض العبارات، في مقدمة الرشيد عثمان خالد لآثار معاوية محمد نور، التي وردت في كتاب إدوارد عطية، الذي كتبه في الأربعينات، وتقوم (الصحافة) بترجمته، نافيا في الوقت ذاته، تهمة السرقة الأدبية عن الرشيد عثمان

خالد.

وكان محمد وقيع الله أول من فتق القضية، حين أشار إلى ورود بعض العبارات، في مقدمة مجموعة مقالات معاوية محمد نور، وردت في كتاب إدوارد عطية، الأمر الذي دفع حسن صلاح حسن إلى التعقيب، الذي دفع الأستاذ أبو التقى إلى التعقيب أيضا.

أقول لادباء السودان ومثقفيه انتبهوا، فإن هناك مساجلات أدبية ثرية ومفيدة، في الصحف السودانية، تتجاوز الأشخاص إلى الأفكار، وتتجاوز أيضا النقد الانطباعي، إلى النقد الصحفي المنهجي، وتتجاوز ثالثا الفجور في الخصومة، إلى أدب العبارة، وهدوء النبرة، ومحاولة بيان الصواب، دون إسفاف أو إساءة.

ولست في حاجة إلى القول بأن مثل هذه المساجلات المفيدة طال عهدنا عن مثلها، فمنذ زمن لم نعد نقرأ ما يقدح الذهن، أو يثير الرغبة في المتابعة، مما جعل الأبواب مشرعة للأفكار الميتة، واللغة السقيمة، والرغبة في هزيمة الآخر، بدلاً عن الرغبة في الوصول إلى الصواب، الأمر الذي جعل الحياة الفكرية والأدبية أشبه بحلقة ملاكمة، لابد فيها من منتصر ومنهزم، بل وبالفوز بالضربة القاضية.

لكن تأتي مثل هذه الكتابات لتعيد إلى نفوسنا الثقة، وأن حياتنا الفكرية معافاة وفاعلة، وأن النقد الأدبي لا يزال يفترع قضاياه الجديدة، دون تقليد أو اتباع، مما يجعلنا نحتفي بهذه الأفكار، التي لابد أن تثري حياتنا الأدبية.

وموضوع السرقات الأدبية نفسه موضوع قديم متجدد، وكان الأوائل من النقاد في العصور الأولى لا يميلون الى إطلاقها، بل كانوا يميليون إلى استعمال لفظ الأخذ والاحتذاء، ثم جاءت كلمة السطو، ثم السرقة، التي راجت بعد ذلك ، فاستعملها الآمدى في (الموازنة)، والجرجاني في (الوساطة)، ثم فصَّل فيها ابن الأثير، وقسمها أقساما، قبل بعضها ورفض بعضها الآخر.

واليوم تتجدد قضية السرقات، مع بروز حق الملكية الفكرية، وعدم التعدي على حقوق الآخرين، وصيانة تلك الحقوق من الاستباحة والشيوع، خاصة وقد وصل التعدي على حق الآخرين مرحلة مرعبة، تجاوز انتحال القصيدة، أو الفكرة، الى الادعاء من قبل بعض الشعراء بنظم كامل الشعر لشعراء آخرين، عرفوا بتلك الأشعار واشتهروا بها. وكل ذلك الادعاء منشور، متداول في الصحف، الأمر الذي يستدعي يقظة النقاد، وأهمية قيامهم بفضح انتحال حق الآخرين دون حق.

بل أخشى أن يكون الاعتداء على الملكية الفكرية قد تجاوز ما يكتب في الصحف إلى أبحاثنا العلمية الجادة في جامعاتنا ومعاهدنا الأكاديمية، وأن يكون ذلك السطو عن عمد وسبق الإصرار، مما يضعف من قيمة الأبحاث ، ويؤدي إلى فقد

الثقة فيها، وذلك أخطر ما تصاب به أمة، حين تفقد الثقة في صحة نتائج أبحاث عقولها المبدعة، بل وفي صحة مقدماتها أيضا.

نعود فنرحب بتلك المساجلات الحية المفيدة، ولعلنا نقرأ حولها مزيدا من آخرين، بل لعلها تفتح الباب لدراسة موضوعية، حول آثار معاوية محمد نور، تتجاوز الإعجاب العاطفي، إلى النظر العقلي الفاحص، والدراسة المنهجية الموضوعية، لتضعه في التاريخ الأدبي والفكري، بما أثار من قضايا، وما خاض من معارك، بين كبار قادة الحركة الفكرية المصرية في ثقة ودون تهيب.

الناقد الذي لا أعرف عنه شيئا، سوى موضوعه الذي أشرت اليه، كسبٌ للحركة النقدية في السودان، وأرجو أن تصل إليه صحيفة (الرأي العام)، وتشجعه على الكتابة النقدية الراتبة، فهو كسبٌ لها مثل ما هو إضافة للحركة النقدية.

الملحق الرابع

تسويغ الانتحال والسطو

[مقال بقلم محمد وقيع الله في الرد على الأستاذ صلاح حسن]

تمثل قضية السرقة الأدبية إحدى أشد القضايا حرجا في الأوساط الأكاديمية. ويحاسب مرتكبوها من الأساتذ - قَبْل الطلاب - حسابا عسيرا صارما. ولهذا يتحاشى الأكاديميون تلك الجريرة، وينكرونها أشد النُّكر، ولا يتسامحون مع من يضبط في حال التلبس بها، مهما أتى بالاعتذارات المبذولة.

ولذا أدهشني أشد الدهش، أن يتصدى أحد الأكاديميين الأذكياء الواعدين، وهو الأستاذ حسن صلاح الدين حسن، عضو هيئة التدريس بقسم اللغة العربية، بكلية الآداب بجامعة الخرطوم، لتسويغ عملية الانتحال الأدبي التي أشرت إليها في الصفحات الماضية، فيما اتصل بصنيع الأستاذ رشيد عثمان خالد، بأفكار وعبارات الأستاذ إدوارد عطية.

أشار الأستاذ صلاح، في معرض رده لدعوى الانتحال، إلى أن الأمر ربما التبس عليَّ فقال:" ولما لاحظ الأستاذ محمد وقيع الله التشابه بين حديث إدوارد عطية والمقدمة التي كتبها الأستاذ الرشيد خالد في افتتاحية الكتاب، الذي صدر عن دار جامعة الخرطوم للنشر، عام 1970م، والذي حوى مجموعة من مقالات معاوية محمد نور، جمعها الأستاذ الرشيد عثمان خالد، رحمه الله، من شتات الصحف المصرية، أطلق حكما (قاطعا)علي الأستاذ رشيد عثمان، رحمه الله، بتعمده انتحال عبارات إدوارد عطية واجتزائها، وترجمتها ترجمة أدبية رشيقة ونسبتها إلى نفسه ".

وردا على ذلك أقول إن الأمر لم يلتبس علي بحال، وإنه هو لأمر واضح بيِّن بيانا ذاتيا، ومن شدة اتضاحه ما أظنه يلتبس على أي قاريء منصف، يقوم بمقارنة النصوص المنسوبة إلى رشيد عثمان، مع النصوص الأصلية لإدوارد عطية. فليس ثمة تشابه فقط بين النصوص، وإنما تطابق كامل. فكيف يسري الالتباس إذن إلى ذهن يلاحظ نصوصا متطابقة صدرت في زمانين متعاقبين عن شخصين متابينين؟!

لا بد أن يستنتج المرء عندئذٍ بطريق القطع التام أن النصوص الأحدث قد أخذت عن النصوص الأقدم. حيث لا يوجد تفسير مقبول للظاهرة غير ذلك.

ولإحساس الأستاذ حسن ببدهية هذا المنطق وحتميته، سارع إلى أن يتمحَل تبريرا احتياطيا.

فزعم أن المصدر الذي استقى منه عطية ورشيد مصدر واحد، هو الأستاذ خالد محمد عثمان، رحمه الله، وهو خال الأستاذ معاوية نور، رحمه الله، وقال:" خالد هذا، وهو بلا شك من المصادر الرئيسية التي اعتمد عليها إدوارد عطية أيضا في معرفة بعض أخبار معاوية. ويكشف لنا إدوارد عطية نفسه عن صداقته وصلته بخالد، ويوضح مدى احترامه وتقديره لشخصية هذا الرجل، ونلاحظ استخدام إدوارد عطية في بعض حديثه عن معاوية لكلمة " I Heard " "سمعت" . ثم يذكر أخبارا عن معاوية، مما يوحي بأن هذه الأخبار تلقاها من صديقه خالد، فليس هناك غرابة إذن في أن تتشابه عبارات رشيد، وإدوارد عطية، في كثير من المواضع، إذ كان المصدر واحدا. فمن اطلع على كتاب "An ArabTells his story" يدرك أن ما نقله إدوارد عطية عن الشيخ خالد، رحمه الله، لن يتعدى أمرين اثنين، هما استشارة الأسرة لإدوارد عطية، بشأن سفر معاوية قسرا إلى بيروت، ثم حديث إدوارد عن قيام الشيخ خالد بإحضار معاوية قسرا، عن طريق البوليس المصري من القاهرة، ولا شيء غير ذلك. وهذان الأمران ليسا من ضمن الأمور التي تضمنتها النصوص التي نسخها الأستاذ رشيد خالد عن إدوارد عطية ".

وفي الواقع فإن النصوص التي أخذها رشيد عن عطية، تتركز في أمور ليس الشيخ خالد راويها، ولا طرفا فيها. فقد انبثقت تلك النصوص للتعبير عن معرفة عطية الشخصية العميقة بتلميذه معاوية في كلية غردون، ومن بعد في بيروت، وعقب ذلك عند ذهابه إلى مصر وعمله بالصحف.

وفي تلك النصوص وصف عطية ألمعية معاوية ونجابته وجدِّه، وتعمقه دروس الفكر والأدب الغربي، ونحو ذلك من الملاحظات والاستنتاجات عن الجانب العقلي في سلوك التلميذ الذي خبره من هذا الجانب بأفضل مما خبره خاله أو أى شخص آخر من معاصريه في سودان تلك الحقبة.

وبهذا نستبعد الفرض الذي صاغه الأستاذ حسن بأن تلك الآراء كوَّنها الخال عن ابن أخته، ثم أخبر بها الأستاذ عطية الذي قام بنشرها في تلك النصوص.

وأبعد من هذا التصرف عن الرشد لجوء الأستاذ الأديب حسن إلى مسلك غير حميد، بخس فيه الأستاذ رشيد حقه، وسلبه قدرته الأدبية المشهود له بها، وذلك عندما ذكر عنه أنه متخصص اقتصادي عاش:" بعيدا عن عالم الأدب والأدباء "، وهذا وصف غير صحيح، وغير منصف للأستاذ رشيد، فكتابته لتلك المقدمة الشيقة، كشفت عن اقتداره الأدبي الرائع، وقلة نادرة بين أدباء اليوم، من يتملكون ناصية البيان مثله، فكيف يقال بعد ذلك إنه عاش بعيدا عن الأدب والأدباء؟!

إن الأستاذ رشيد أديب متمكن بلاشك، ولكنه مثله مثل أدباء سودانيين في جيله، لم يكتبوا كثيرا لأسباب معروفة عن المثقفين السودانيين الكبار[114].

وليس أعجب مما مضى ، سوى إيحاء الأستاذ حسن بأن من يكتب مقدمة للكتاب يجوز له أن ينتهب آراء الآخرين، ويدسها في تضاعيف كلامه، وعذره الجاهز هوأنه:" ليس باحثا علميا منهجيا، إنما يكتب مقدمة وليس بحثا منهجيا"!

فمن يستطيع أن ينتحل ويتعلل ويذيع عذرا فظيعا مرعبا مثل هذا غير الأستاذ حسن، وذلك الذي الشخص استعان به - على طريقة المثقفين التقدميين في الحشد والاستنفار والحملات التضامنية - ليقول له عن كلامي:" هذا كلام غريب فالرشيد عثمان خالد لم يكتب بحثا علميا، ومن الطبيعي أن يكون قد مرَّ على جميع الذين كتبوا عن معاوية، سواء أكان إدوارد عطية أو غيره، فهوا إنما يكتب مقدمة لمقالات جمعها، وليس من مسؤوليته أن يرشد الباحثين إلى المصادر، التي تحدثت عن معاوية محمد نور ".

وقد استغربت كثيرا واستبعدت أن يصدر مثل هذا التعليق عن أستاذ جامعي، مثل الدكتور مجاهد على، وانتظرت برهة كافية، عسى أن يقوم الدكتور بنفي ما قيل على لسانه، ولكنه سكت واستمرأ السكوت، فلا جَرَم حينئذ أن نرد عليه، وعلى

---

[114] كتبنا هذا قديما قبل أن نتبين صحة كلام الأستاذ حسن في هذه الناحية، وقد ترجح لنا بعد ذلك أن كاتب المقدمة ليس الأستاذ رشيد عثمان خالد، رحمه الله، وإنما الدكتور (م. خ.) وهو شخص معروف في الوسط الثقافي والسياسي، وليس له اعتبار كبير للقيم الأخلاقية في ممارساته الفكرية والسياسية، وهو من صنف من لا يتحرجون من ممارسة السطو، ثم عزو ما ينهبونه إلى الآخرين، فاعتدى بصنيعه هذا على الأستاذ إدوار عطية أولا باختلاس أقواله، ثم اعتدى على الأستاذ رشيد خالد بتمليكه المسروقات!

الأستاذ صلاح، بالتأكيد على أن السرقة الأدبية لا تحلُّ لأحد من الناس، بسبب نوعية العمل العلمي، أو الفكري، أو الأدبي، أو الفني الذي يضطلع به.

وأبسط مثال لذلك يتبدَّى فيما لو أن شاعرا انتهب بيت قريض من شاعر آخر، ودمجه في قصيدته على ما كان عليه في المصدر الأصلي، أو أحدث عليه تعديلا يسيرا، فإنه يعد سارقا بلا أدنى ريب.

وقد كان معاوية من أشد مقاومي السرقات الأدبية، كما اتضح في فصوله في نقد الآثار الشعرية والروائية للأستاذ المازني. وقد نهض الشاعر والناقد الكبير عبدالرحمن شكري ليكتب فصوله في كشف سرقات الشاعر المازني واستنكارها قائلا إنه لو قابل عفريتا في طريقه في رائعة النهار لما كان أشد دهشا من اكتشافه سرقات المازني المتعددة من الشاعر الألمانى هيني وسواه.

حينها لم تمنع شكري صداقته وزمالته الوطيدة للمازني، ولا عملهما معا في نطاق مدرسة (الديوان) مع الأستاذ الكبير العقاد من نقد ممارسة المازني الذميمة للسرقة، فضحىَّ بعلاقته الشخصية من أجل نصب موازين الأدب الصحيح.

وقد نشر المازني على إثر ذلك فصلا، في مقدمة ديوانه، أقرَّ فيه بتسلل شعر الآخرين إليه، وقال إنه سيفتح باب ديوانه لتخرج منه تلك القصائد والمنظومات وتذهب إلى أصحابها الأُوَل.

وقد نهض أخيرا الباحث العراقي الجرئ المقتدر، الدكتور جهاد كاظم، لكشف سرقات علي أحمد سعيد (أدونيس) المتكاثرة في كتابه الموسوم (أدونيس منتحلا).

فهذه هي الموازين القسط، التي كنا نظن أن أستاذيْ الأدب العربي، بجامعة الخرطوم - حسن ومجاهد - ممن يقومون بتدريسها لأبنائنا الطلاب، ويلزمونهم بمراعاة مقتضياتها، فإذا بهما يحيدان عنها ويزيغان!

الملحق الخامس
إيمان

[قصة رمزية قصيرة من تأليف معاوية محمد نور تهزأ من نهج الشك الاعتباطي المطلق، وقد نشرها بصحيفة (السياسة الأسبوعية)، المصرية بتاريخ 13 سبتمبر 1930م]

نعم أعرفه، أليس هو ذلك الشاب الكث الشعر، النحيل الجسم، الطويل الأنف، الذي يُعنى بهندامه ويضع طربوشه قريبا من حاجبيه، وهو جالس دائما في تلك الزاوية، ينظر بإمعان للاعبي الطاولة فاتحا فاه طيلة الوقت يلتهم حديث المتكلمين والمتحدثين التهاما من غير مضغ؟

لقد مات يا سيدي بعد أن اعتراه مسٌّ من الجنون لم يطل أمده لأنه ترك الأكل إلا لماما، وصار هائما على وجهه في الشوارع والطرقات العامة، لا يثنيه حر ولا برد من ذلك.

وأي سبب أدى به إلى الجنون فالموت، فلقد شاهدته منذ زمن ليس بالبعيد يلعب الطاولة وبدا مبتهجا وهو على خير ما يكون إنسان.

لقد كان جلال أفندي عبد الكريم أيها الأخ، شابا سمح الخلق طيب الخاطر، كله نعومة واطمئنان وطيبة قلب، يستمع بشغف لأحاديث المتكلمين حوله في المكتب والترام والمنتديات العامة، ثم يأخذ بعض هذه الآراء التي تروق عنده، وهو أكثر مايكون تاثرا إذا كان صاحب الحديث شديد العارضة قوي الحجة، قوي الشخصية يتكلم بكل حزم وتاكيد، يأخذ هذه الآراء فيعيدها على صحبه وكأنما هي له والحديث من بنات أفكاره لشدة ما يتعصب لها ويذود عنها. وأذكر أنه كان في وقت من الأوقات كثير التلفظ بهذه الجملة وقد سمعها من جلال الدين أفندي:" إن الرأسماليين عندنا هم رأس كل بلية في هذا الضعف الاقتصادي، وهم الدود الذي ينخر في عظام هذه الأمة"!

كما أنني أذكر أنه قد ترك هذه الجملة في وقت من الأوقات ومسك أخرى سمعت أنه سمعها من نور الدين أفندي عن أغانينا القومية:" إنني لا أنكر على أغانينا بعض الحلاوة المخنثة والميلودية الباكية الشاكية، ولكنها طنبورة هزيلة وأغان مملة لا تضرب على أوتار النفس الشاعرة، وإنما وترها واحد هزيل لا يحثُّ على الجد ولا يدعو إلى النشاط والحياة الهنيئة ". وأنت تراه وتسمعه يقول هذا الكلام بكل كبرياء ذهني واقتناع وعظمة!

وجلس في يوم من الأيام مع جماعة من بينهم حسين أفندي حسني الذي كان يطلب العلم في القاهرة، فأراد صاحبنا أن يظهر علمه ولوذعيته، فأدار الحديث لذلك

الغرض خاصة حتى إذا ما جاء الحديث عن الأغاني السودانية قال قولته هذه في شي من الاقتناع والفهم المصطنع، وراح يدخن سيجارته بعد أن أتم حديثه وينظر في الفضاء بكل ادعاء في التفكير والتأمل كما يفعل خير الله الماوردي بالضبط.

وأخيرا نطق حسين أفندي حسني وقال بعد أن تكلم عن عبقرية الأمم والأغاني القومية المختلفة:" وإن الذين يقلدون الإفرنج في كل شيء ويحاولون أن يلبسونا ثوبا لم يخط لأجسامنا ليشطون ويهرفون بما لا يعرفون، فكيف يريدوننا على أن نستبدل شعورنا الشرقي البسيط بالشعور الغربي، والأغاني شعور وهي شعورنا. زد على ذلك أن من يعلم حالة هذا الشعب وتاريخه يعرف تمام المعرفة لم كانت أغانينا على هذه الوتيرة الباكية، وأن السايكولوجي الاجتماعي ليقرر صحة ما أذهب اليه. وخير لنا أن نحاول تحسين أغانينا على هذا النسق من أن ننقد روحها وعنصرها فإن روحها لهو روحنا، وعنصرها لهو عنصرنا، وعبث محاولة تغيير الروح والعنصر"!

فأعجبت هذه الجملة صاحبنا جلال أفندي وحفظها لساعتها بعد أن اقتنع بصحتها، وترك قولته القديمة في الأغاني، وهذه ولا شك تظهر له أكثر عمقا وعلما ولوذعية من الأولى.

ولقد كان قوي الذاكرة، ويكفيه أن يسمع مثل هذه الجملة مرة واحدة فيلتهمها التهاما ويحفظها عن ظهر قلب، ولو أنه في بعض الأحيان ينسى كلمة أو كلمتين فيتغير المعنى المطلوب تماما.

وصار منذ ذلك اليوم يردد هذه الجملة في المكتب والبيت يزعجهم بمثل هذه الكلمات بمناسبة وغير مناسبة. وأذكر أنه كان يستعمل هذه الكلمات وقد التقطها حديثا

Tremendous, extraordinary, absolutely

ولقد كان يرتاد بيوت الرقص الوطني بين حين واخر فيأتي مسلوب العقل والوجدان معا، ويقرر لك بكل حزم أن (فلانة) هذه أرقص بنت في السودان، وأن تلك البنت أجمل بنات العالم طرا.

ولا يمر أسبوع من هذا التاريخ إلا ويأتيك بأسماء أخرى هي أجمل البنات وأرقصهن، وهو في كل ذلك محكوم بـ (المودة) وما يقوله صحبه ورفقاؤه فهو قل أن يكون لنفسه رأيا حتى في الطعام والملبس، يأكل ما يقول بعض إخوانه إنه أجود الأطعمة ويلبس ما يلبس زيد وعمرو.

وحصل يوما أن اجتمع بهاشم عرفات في المنتدى الذي يجلس فيه عصر كل يوم هو وصحبه، وكان هاشم عرفات هذا شابا كثير الاطلاع، كثير الشك الفلسفي، لايؤمن

بالأقاويل، ولا يستطيب الجزم في شيء، وهنا ابتدأت صفحة جديدة من تاريخ بطلنا جلال أفندي عبد الكريم، إذ كل ما أتى بجملة من جمله المحفوظة، سأله هاشم عن صحة ما يقول وعن أدلته وبراهينه، وينتهي بأن يشككه في قوله، ويسخف له هذا الراي ويفند ذلك.

وصار كل ما قال رأيا سأله هاشم: هل انت متاكد؟ حتى جعله يرتج في أجوبته ويشك كثيرا، أو صار لا يقتنع بالقول الذي يقوله الصحاب، ولكن لا بد أن يراه عمليا حتى يصدقه!

وقبل أن يتفرقوا قال له هاشم: يا سي جلال أفندي ابق من فضلك ما تصدقش كل حاجة، إن هذا العالم كله رياء وكذب وتدجيل. فتركت هذه الكلمات أثرها في ذهن والمنتدى، وهكذا كان صاحبنا، رحمه الله، شديد التأثر يصدق كل ما يقال أمامه بحزم وصوت مرتفع. وكان في حفظه كعدسة (الفوتوغرافيا) يلتقط الأفكار لأول وهلة ويرددها كأنها من بنات أفكاره من غير أن يشعر بأقل غضاضة أو فقر ذهني.

ومع كل هذا فقد كانت الناس تحبه وتستظرفه لما فطر عليه من مراحة الطبع والدعابة والخفة. وهو إذا ذهب إلى مكتبه وكلم بعض إخوانه في المكتب عن المسائل العامة فلم يأبهوا له، بادرهم بهذه الجملة التي سمعها من الباشكاتب على افندي رحمه الله:" إن حياة الموظف عندنا لهي حياة سخيفة، وما أشبهكم بالآلات الميكانيكية تؤدي واجبها الآلي ثم يشيع فيها الصدأ فتبلى وتتحطم "!

كما أنه كان كثير التقليد لرؤسائه يقلدهم في نبرات أصواتهم وفي مشيتهم ويلتقط الكلمات الانجليزية من رئيسه الانجليزي. والويل في ذلك اليوم لراكبي الترام، فإنه جلال أفندي وهو يودع صحبه في تلك الليلة!

وحصل أن كان يوما جالسا مع بعض الصحاب وفيهم من كان يدرس الكيمياء فقال له هذا الكيميائي: اتدرون أن الماء من الهواء؟

- لا، لا أصدق.

- يا عجبا: إنه امتزاج الهيدروجين بالأكسوجين في نسب معلومة.

- كلام فارغ، برزت من جلال وتبعها منه أيضا: هل أنت متاكد؟

- تأكدي من وجودك هنا.

واشترط الصحاب أن يذهبوا إلى أقرب معمل في الخرطوم ليروا هذه العملية، ولكنه لسوء الحظ أو لحسنه، مهما حاول صاحبنا الكيميائي في التحضير فقد فشلت كل مجهوداته، وأخيرا صاح به جلال أفندي: ألم أقل لك كلام فارغ؟!

- وأي كلام فارغ تعني؟ إن المواد لسوء الحظ ليست جيدة، وهذا كل ما في الأمر. وقد عملت أنا هذه العملية مئات المرات، وهي حقيقة ثابتة كوجودي ووجودك.

وأطلعه على عدة كتب فيها هذه الحقيقة، فكان جواب جلال أفندي: اتظنني مغفلا لهذه الدرجة؟ إن هذا العالم كله رياء وكذب وتدجيل، وقفل راجعا
وجلس يوما مع بعض صحبه وكان بينهم جاد الله العربي، وهو فتي مرموق الجانب، معروف بسعة الاطلاع والفهم فقال لهم: هل تدرون أنه سوف يحصل كسوف جزئي للشمس في الغد؟
-هل أنت متاكد ؟ قالها صاحبنا الذي كان يؤمن قبلٌ بكل شيء.
- أأنت عبيط؟! أقول لك إن في الغد سوف يحصل كسوف جزئي للشمس فتسألني هل أنت متأكد، إن هذه الأشياء يقررها العلم، والعلم صادق لا يداجي ولا يكذب، ويمكننا أن نعرف الدقيقة والثانية التي سوف يحصل فيها الكسوف. ووافقه الجميع على هذا الكلام ونظروا شزرا إلى جلال افندي. وراح صاحبنا يلعن هذا الرأي وقد نسى شكه: إن في الغد سوف يحصل كسوف جزئي للشمس!".
وظهرت الشمس غدا أشد ما تكون لمعانا وضياءً فلا كسوف ولاخسوف، وكلما تقدم النهار ولم تنكسف الشمس ازداد شك صاحبنا وقلقه وصار يقول لنفسه: أقول لهم هل أنتم متأكدون فيقولون يا للعبيط! أيُنا الآن العبيط أنا أم هم؟
وبعد هذه الحادثة رجع فقابل هاشم عرفات، الرجل الذي جعله أول مرة يشك في حياته وقص عليه قصة الكسوف المزعوم، وكيف أنه شك في حديثهم فما كان منهم إلا أن ضحكوا منه، فقال له هاشم أفندي: اسمع يا أخي إن الأشياء لا تحصل حسب قوانين معلومة، ولكنها تحصل كل يوم في حالات كثيرة متعددة، وأساس هذا العالم إنما هو التغير والتحول، فعبثا نحاول استنتاج القوانين العامة التي تحكم الأشياء، وقد يظهر لنا في كثير من الأحيان أننا قد نجحنا في ضبط القوانين ومعرفة الأشياء، ولكن هذا وهم خادع، فالحياة لا يحدها قانون أو سابقة، وهي دائمة التحول والتجديد، وهي مستبدة وقاهرة، وربما تحصل بعض الأشياء عدة مرات، ولكن ليس معنى هذا أنها سوف تحصل دائما. فأي قوانين وأحكام ثابتة يمكن أن يصدرها الإنسان والحال كما وصفنا؟ فالتهم صاحبنا هذا الحديث وتأثر منه وأعجب به كثيرا، وزادت نزعته الشكية من ذلك الحين كثيرا.
وكان صالح أفندي عثمان، المشهور بنكاته وألاعيبه في الأندية والمجتمعات في ليلة من الليالي يقوم ببعض الألعاب، فجاء إلى مسألة كوب الماء الذي إذا ما ملئت وأقفل فمها بورقة قوية أو خشبة مستديرة أو ما إليها ثم جعل سافلها عاليها لم يندفق الماء للضغط الذي داخلها. فقاطعه جلال أفندي عبد الكريم وأنكر عليه حديثه وقال له دونك التجربة، فجربها صالح أفندي عثمان بوضعه لكوب الماء وهو مقلوب فوق رأسه فلم يصبه أذى، ولكن جلال أفندي لم يقتنع إذا لم يجرب العملية بنفسه، فقام

وملأ الكوب ماء ووضع الغطاء وأدارها فوق رأسه، ولكنها سالت فوق رأسه وابتل هندامه، وضحك الجمع ساخرين هازئين.

فما كان منه إلا أن تناول طربوشه وقفل راجعا إلى بيته لا يلوي على شئ وهو حانق مغضب أكثر ما يكون شكا وحنقا على الحياة وما يقبله الناس كأنه حق لا يأتيه الباطل من خلفه أو أمامه.

ومن ذلك الحين اضطرب كيانه العصبي، وصار يهيم على وجهه، ويرد على كل من يسأله أو يكلمه بجملة: هل أنت متأكد؟ ولا يأكل ولا يشرب إلا نادرا، فزاد جسمه نحولا، وأخيرا لزم فراشه لمدة أسبوع فارق بعدها هذا العالم، وقد كان يوم موته يوما عاصفا ماطرا، تقلع سحبه ويتجمع غمامه، ويصبح الجو أدكن غابرا لمدة ساعة، ثم تشرق الشمس ويشع الضياء، وفجاة تتجمع السحب مرة أخرى ويغبر الجو، كأنما يريد أن يهطل المطر ثم لا يهطل.

وقد بلغني أن آخر ما نطق به وهو على فراش الموت بعد أن سأله أهله أن يتشهد مرات ويقول: لا إله إلا الله أشهد أن محمدا رسول الله، أن فتح عينه وقال لهم: هل أنتم متأكدون؟ ثم أغمض عينيه وراح في سبات عميق، وهكذا مات جلال أفندي شاكا في كل شي بعد أن كان مؤمنا بكل شيء!

الملحق السادس

ساعة مع أندريا موروا

[زار الروائي العالمي الكبير أندريا موروا مصر، واستغل معاوية فرصة مروره بالقاهرة، وأجرى معه هذا الحوار الراقي، الذي دل على مدى شمول ثقافة معاوية، وقدرته على توجيه الأسئلة النقدية بطريقة في غاية الذكاء والألمعية. وقد كان مما اهتم معاوية بالسؤال عنه تبيان السبيل لمن أراد من الكتاب الذين يكتبون بالعربية

إنتاج أدب يقرأ في الخارج، فكأنه كان يعني نفسه بهذا الشأن. وقد نشر الحوار بمجلة (الهلال)، بتاريخ 1 مايو 1932م]

أندرية موروا كاتب ملحوظ المكانة، عالي الشهرة، كثير التفنن في ضروب الأدب وألوان الكتابة.

فهو يعد ثالث ثلاثة في كتابة التراجم الفنية الحديثة، هم أشهر من عرف هذا الباب، وبزَّ في هذا المضمار. فموروا وستراتشي الانجليزي الذي توفي أخيرا، وإيميل لودفيج الألماني، ثالوث يذكر كلما ذكرت كتب التاريخ، وجاء ذكر السير والعظماء. وهو إلى هذا مؤلف قصصي بارع الفن، دقيق التصوير، يمزج في فنه بين حقائق الحياة الواقعية وسبحات التخيل الجامح، ولعب التصورات الفكهة، فتخرج قصصه حلوة الخيال والذوق، فكهة المنحى والأسلوب.

وهو إلى جانب كتابة القصص والتراجم، ملم بحركة الآداب العالمية، خبير بالأدب الانجليزي والأمريكي، وله دراسات في هذا الصدد معروفة مقروءة. كما أنه صحفي يكتب للصحف في الشؤون الاجتماعية والنفسانية، وينقد لها الكتب الأدبية المهمة، في أمريكا وانجلترا وفرنسا، نقد عالم جبير.

انتهزت فرصة زيارته لمصر في شهر مارس الماضي، وطلبت منه أن أتحدث إليه في شئون الأدب والفن، فأجابني إلى طلبي في أريحية وظرف كبير. وجدته في غرفته ف فندق (شبرد) وأمامه على المنضدة عدد وافر من الكتب التي تتناول شؤون مصر، بعضها بالانجليزي وبعضها بالفرنسي. وكنت أعرف من قبل أنه يجيد الإنجليزية ويقرأ بها ويتحدثها بلباقة ومقدرة. فحييته وأعربت له عن إعجابي بكتبه التي قرأت، وأطلعته على بضعة أعداد من مجلة (الهلال)، وكان من بين مقالاتها مقال عنه، فتصفحها شاكرا، وابتسم حينما وجد بعض أسماء كتبه بين الحروف العربية، وأعرب عن أسفه أنه لايستطيع أن يقرأ العربية. ثم لمح صورة غاندي في أحد الأعداد فعرفه وتحدث عنه، وابتدأت أسأله قائلا:

الكتابة عن الأمم

هل فكرة ضع كتاب عن مصر هي التي حدت بكم لزيارة هذه البلاد؟

فأجاب: كلا! إني لا أفكر الآن في وضع كتاب عن مصر، وإنما أتيت إلى هذه البلاد بدعوة خاصة من الكلية الفرنسية في الاسكندرية، لألقي عددا من المحاضرات في الأدب، وانتهزت هذه الفرصة لأزور القاهرة.

وأنا لا أستطيع أن أضع كتابا عن بلد من البلدان مالم أبق بها ردحا من الزمن، وأتعلم لغته، وأتحدث عدد وافر من أهله. وعلى هذا الاعتبار أستطيع أن أكتب عن الأمريكان.

فإذا استولى عل خاطري الكتابة عن مصر مثلان فإن أول شيء أعمله هو أن أتعلم اللغة العربية، وأن أقيم هنا بضعة أشهر على الأقل.

وربما استطعت تحقيق ذلك في المستقبل، أما الآن فربما أكتب من المقالات للصحافة عن مشاهداتي الخاصة في مصر.

ولست أؤمن بهذا الضرب من التأليف، الذي يعمم في الأحكام، ويستنتج النظريات الكبيرة من الحوادث الصغيرة.

ولا أمن كثيرا بـ (السايكولوجيا) الوطنية، وإنما أؤمن بـ (السايكولوجيا) الفردية، فأنا إذا ما كتبت عن مصر مثلا كتبت عنك أنت، أو عن صدقي باشا، أو عن أي شخص آخر قابلته وتحدثت إليه.

وأنت ولا شك تعرف مّثَل أرسطو القائل: إنني أعرف هذا الجواد ولا أعرف صفة الجوادية!

وعندي أن خير وصف لشعب من الشعوب، هو أن تعطي صورة أمينة لما عرفت واخترت بنفسك. وهذا ما لم يتيسر لي على وجه طيب أثناء إقامتي القصيرة هنا.

مقارنة بين الخلق الإنجليزي والخلق الأمريكي

فقلت: يسرني بهذه المناسبة أن أعلن إليكم مزيد إعجابي وتقديري لسعة النظر التي اتصفتم بها، وحسن الانصاف الذي أملى عليكم ما كتبتموه عن الأمريكان والإنجليز. فهذه ميزة بارزة بين الكتاب الأجانب الذين يزورون بلادهم. فهم يطلقون عادة لخيالهم العنان في الكتابة عن أخلاق أمة من الأمم، ويسمحون لأفكارهم السابقة

بالتحكم في أفكارهم وملاحظاتهم. فهل لك أن تحدثني عن الفرق - بوجه عام - بين الشخصيتين الإنجليزية والأمريكية التي عرفتها حديثا ودرستها عن كثب؟

فقال: ليس الفرق بين الخلق الإنجليزي والأمريكي بالواسع المدى. والصفات المشتركة بينهما أكثر وأهم من وجوه الاختلاف ونواحي الفروق، ذلك لأن معظم الأمريكان من أصل انجليزي كما تعلم. وإن كانت الأجناس الأوروبية الأخرى قد خففت من أثر الدم الانجليزي بينهم، وغيرت بعض الشيء من الخلق الانجليزي الأصيل.

ويمكنني أن أقول إجمالا إن الأمريكان لأنهم شعب حديث شغوفون بالحياة يستولى عليهم القلق والتطلع، بينما ترى الإنجليزي هاديء الأعصاب متئد الخطى، يستقبل الحياة استقبال الواثق المطمئن، ولأن الأمريكان أحدث من الانجليز في التاريخ فخلقهم لم يتمركز ويتبلور بعد.

وأمام الأمة الأمريكية فيما أعتقد مستقبل مجيد ليس أمام أي أمة أخرى، وأدبهم آخذ في النماء والنضوج. وأظن أنه بعد مضي فترة من الزمان سيصبح أدبهم من أعظم آداب الأمم. وأسرع فأقول إنه ليس معنى ذلك أن ليس للإنجليز أدب رائع، فهم ولاشك لهم ذلك الأدب المجيد.

فقلت: كنت أقرأ هذه الايام كتابا لمؤلف دنماركي عاش في انجلترا ووضع كتابا مشهورا عنهم اسمه (الإنجليز هل هم إنسانيون؟) وفي مقدمة ذلك الكتاب يشير المؤلف الى صمت الإنجليزي وعدم مقدرته على الإفصاح والإبانة.

قال: إنما هم كذلك لأنهم شعب متأدب محتشم لا يحب الثرثرة والمباهاة.

فقلت: أذكر أنني قرأت لكم في أحد أعداد مجلة (الأتلانتيك) الأمريكية خطابا لصديق فرنسي يرغب في زيارة إنجلترا، تنصحون له وتحدثونه عن الخلق الإنجليزي. وقد قلتم لذلك الصديق في مقالكم المذكور في فكاهه ظاهرة:" إن الإنجليزي يدعوك لأن تزوره في كوخه الصغير في القرية الفلانية، فإذا ذهبت تجد ذلك الكوخ قصرا كبيرا! وإنك سوف تحب الكتب الإنجليزية أكثر من كل شيء آخر، ولكن إياك أن تتحدث عن حبك لها.. إلى آخر ما قلت لذلك الصديق من هذا القبيل، فهل ترون في ذلك احتشاما وتواضعا أو هو نفاق وكبرياء؟

فابتسم وقال: إنني أذكر ذلك المقال جيدا، والاحتشام

“Modesty “

ربما جاء من فرط الضعف أو فرط القوة والطمأنينة، ومصدر احتشام الإنجليزي وعدم تحدثه عن ممتلكاته ومعارفه بتأكيد وإلحاح هو أنه شاعر بقوته، واثق من نفسه. وأغلب ما يكون الرجل الكثير الكلام الكثير التأكيد ضعيفا غير واثق مما يقول. فيلجأ الى الحديث ليوهم نفسه بوجود ماليس له وجود. وعليه فأنا لا أرى في هذه الصفة أي نفاق أو كبرياء، وأنما أرى فيها احتشاما وأدبا وقوة خلق.

اتجاه الأدب الحديث في الغرب

قلت: هل لي أن أعرف رأيكم في الاتجاهات الحديثة في أدب أوربا وأمريكا؟

قال : هي واحدة. ومصدر ذلك أن أدب أي جيل من الأجيال لابد أن تؤثر فيه المكتشفات والبحوث العلمية لذلك العصر. ويجب أن أسرع فأقرر أنني لا أؤمن بالمدارس والحركات الأدبية، وأنما أؤمن بالكتاب أفرادا لا جماعات أو مدارس خاصة.

فإذا عرفنا هذا أمكننا أن نرجع بأسباب الحركة الأدبية الحديثة في أوروبا الحديثة في أوربا وأمريكا الى عاملين إثنين:

أولهما: بحوث فرويد وأدلر وأضرابهما من أفذاذ علما السيكلوجيا الحديثة، فقد شجعت هذه المباحث النفسانية جماعة من الأدباء وحفزت قواهم، وأمدتهم بالقوة اللازمة لأن يصرحوا بما يعتقدون، ويكتبوا ما يفكرون من غير خشية ولا خوف من لوم.

ثانيهما: نظرية النسبية المعروفة للعلامة إنشتاين، فالحقائق والنظريات لم تعد مطلقة، وأي شيء لم يعد هو نفسه الشيء، ولكل رأي، فالأشياء تخلف بإختلاف الأفراد، وقد يختلف الشيء الواحد لدى الفرد الواحد باختلاف المكان والزمان.

وأول من استفاد من بحوث إنشتاين في النسبية هو إمام القصة في العصر الحديث بلا مراء أعني مارسيل بروست، فهذا القصصي لم يصف الحوادث كما هي بالطريقة الزمانية المألوفة، وإنما حاول أن يدون تيارات التصور والخيالات في وعي أشخاص قصصه. وهو على هذا الاعتبار قصصي في عالم الأحلام والرؤى!

قلت : غير أن بروست فيما يتضح لي من مطالعته، التي لم أقو عليها طويلا، عالم يقتل دنيا أحلامه التي يصورها بكثرة التحليل والإسهاب في الوصف والتوضيح العقلي. وإنني أجد كتاب إنجلترا المحدثين أمثال فرجينيا ولف وكاترين مانسفيلد أسهل على الفهم وأخف في القراءة لأنهم يستعملون الإيحاء بدلا من التحليل الممل.

فأجاب: كل هؤلاء ولا شك يقتفون أثر بروست ويأتمنون به فبروست هو إمام العصر الحديث في القصة كما كان بلزاك إماما للقصة في عصره، وكما كان فولبير زعيم القصة في أواخر القرن التاسع عشر.

متى تصبح الترجمة عملا فنيا؟

ثم سألت: ماهي الخواص التي تجعل الترجمة عملا فنيا وتميزها عن بقية التراجم وكتابة السير العادية ؟

فقال يجب أن تعرف العمل الفني أولا. فأنت تذكر كلمة باكون القائل:" إن الفن هو الإنسان مضافا إليه الطبيعة". ومعنى ذلك أن الفن هو الطبيعة كما تتضح لذهن فرد من الأفراد.

والترجمة على هذا الاعتبار تصبح عملا فنيا حينما تتعدى أن تكون جملة من الحقائق والأفكار، وهي عمل فني حينما يرتب المؤلف حقائق كتابه ويعرضها، من غير أن يشوهها، في نظام خاص، يبرز به عوامل الشعر في حياة من يترجم لهم، ويشير من طرف خفي إلى موضوعات الحياة الرئيسية، فأنت تذكر (عنصر الماء) وأهميته في ترجمتي لحياة شلي، وأن يكون المؤلف قد أحس بمثل إحساس بطله، وأن يعطف عليه، وأن يحاول أن يرى وجه نظره كاملة تامة.

قلت: أذكر أنكم عقدتم فصلا خاصا في كتابكم (نواحي الترجمة) عنوانه (الترجمة كتعبير ذاتي) ومؤدى ذلك الفصل أن المؤلف يجب أن يأخذ حياة بطله إلى نفسه، وأن يعبر عنه بعد أن يرى رأيه، ويدير هواجسه في وجدانه وأفكاره في مطارح فكرة. أفلا ترون أن ذلك النهج حري بأن ينأي بالمؤلف عن محجة الصواب والوقائع، فيضع أشياء وأفكارا وعواطف لا أصل لها في حياة البطل أو هي لم توجد بذلك القدر وعلى ذلك الوجه؟

قال: ذلك صحيح ولكنني لا أعني التعبير عن النفس حرفيا، ولا أقول بوضع أشياء لا وجود لها فعلا في حياة البطل، وإنما أقول بضرورة العطف وتفهم وجه نظر من نترجم له.

ثم استأنف حديثه قائلا وقد بدت عليه علائم التفكير واستجماع الذهن:

ولكي تصبح الترجمة عملا فنيا يجب على المترجم أن يلاحظ عنصر التناسب في تخطيط كتابه، وأن يجعله من هذه الناحية مفهوما واضحا من غير أن يظهر أثر الذهن الذي يوضح ويقوم بعملية التخطيط والتوزيع.

وكان كلما انتهى من الرد على سؤال ابتسم ابتسامة الطفل ثم قال:

Next

مقلدا المدرسين الإنجليز الذين يستعجلون الطلبة!

مستقبل القصة

فقلت: ما رأيكم في مستقبل القصة، وهل ترون أنها آيلة إلى ...

فلم يدعني أتمم جملتي وقال: تريد أن تسأل هل القصة آيلة إلى الانقراض كما يعتقد بعض صحفيي فرنسا؟ لا! وعندي أن هؤلاء الذين يقولون ذلك لا يعرفون الطبيعة البشرية، ويمكنني شخصيا أن أرسل إليهم تلغرافا كما فعل أحد أدباء فرنسا في أخريات القرن التاسع عشر حينما شاع أن المذهب الطبيعي في الوصف القصصي قد مات. فقد أرسل ذلك الأديب يومئذ هذا التلغراف النزعة الطبيعية (ناتيورلازم)

“Naturalism “

لم تمت.. الإيضاح بالبريد!

وعلى هذه الطريقة يمكنني أن أرسل هذا التلغراف: القصة لم تمت. الإيضاح بالبريد!

ثم قال: إن رواية القصص، ووضع الروايات من أهم خصائص الطبيعة البشرية، وإذا أمكن الإنسان أن يستغنى عن الخبز الذي يأكله أمكنه بعد ذلك أن يستغنى عن القصة التي يقرأها، وأنا شخصيا لو خيرت بين الخبز والقصة لاخترت القصة. فبها تشبع عاطفة إنسانية لا سبيل إلى إروائها من غير ذلك السبيل. زد على ذلك أن

القصة قد تطورت في شكلها المعاصر، حتى أصبحت تشمل كل شيء يمكن أن يفكر فيه أو يشعر به الإنسان، وهي ولا شك أصح الأدوات الفنية في وقتنا الحاضر.

كيف يؤلف الكتاب

ثم سألته عن سر الخلق الفني، وقلت:" إنني أظن أن معظم القصصيين وكتاب المسرح في أوروبا قلَّ أن يتركوا مكتباتهم، وهم بعد ذلك يكتبون عن الطبيعة البشرية واختلاف وجوهها، وألوان الشخصيات، وتعدد المذاهب الخلقية، والأفراد والأماكن المتباعدة، فكيف يتيسر لهم ذلك؟ وهل هم يستوحون نفوسهم في ذلك ويترجمون لعواطفهم وميولهم الخاصة بهم؟

فأجاب: كلا. ويمكنني أن أقول لك إن كل الكتاب يعرفون الحياة أولا قبل البدء بالكتابة الخالقة. وأنا لم أبدأ أكتب إلا بعد الثلاثين من عمري، وقد عشت ولا شك أثناء ذلك وعرفت ألوانا من الحياة وصنوفا من الناس والشخصيات المختلفة.

ومن جهة أخرى فأنت قل أن تجد كاتبا يجلس الى مكتبه طيلة الوقت، فالكتاب يعيشون مثل كل الناس وإن لم نرهم في الطرقات والشوارع.

نصيحة إلى أدباء مصر

وكان آخر سؤال وجهته له: ماهي نصيحتك لمن يحترفون الكتابة إذا أرادوا أن ينتجوا أدبا يقرأ في الخارج؟

فأجاب: إن هذا البلد (مصر) مليء بالمواد الكتابية البكر، خاصة في ميدان الأدب القصصي، وليس على الأدباء إلا أن يخرجوا صورة أمينة لمختلف الأهواء والميول، وتفاعلها مع بعض في هذا البلد الذي ضم خليطا من الأجناس والعادات والأمزجة، فذلك خير موضوع يصلح للكتابة القصصية.

وقد قرأت بعض مقطوعات شعرية لشاعر مصري وأعجبت بها كثيرا. كما قابلت عددا من الشبان الأذكياء، وميدان الخلق الأدبي في مصر واضح، وكل ما يطلب منكم هو التصوير الصادق لهذه الحياة التي تعيشون.

ومن حسن الحظ أنها مازالت بكرا لم تتناولها الأيدي بعد بالكتابة والشرح. وإنني أود لو كنت كاتبا قصصيا في هذه البلاد، إذن لكانت المادة لدي متيسرة وفرص الإتقان والإجادة ليست بالبعيدة النائية.

الملحق السابع
رِثاء الشهيد معاوية
عباس محمود العقاد

[وردت هذه القصيدة القوية المؤثرة في رِثاء معاوية في ديوان الأستاذ العقاد (أعاصير مغرب) وقد صدرها الشاعر بقوله:"... احتفل أدباء السودان بتأبين الأديب السوداني النابغ، معاوية محمد نور، وقد لقي نصبا من سقامه وعوجل، رحمه الله ، في ريعان صباه، بعد أن بشر العالم العربي بأمل كبير لم تنجزه المقادير". وقد أرسل الأستاذ العقاد هذه القصيدة لتلقى في يوم تأبين الفقيد.

ويلاحظ القارئ أن الأستاذ الشاعر ضمَّن هذه القصيدة ذلك المعنى الذي أرسله نثرا، وهو قوله:" لو عاش معاوية لكان نجما مفردا في عالم الفكر العربي"].

أَجلْ هذه ذكرى الشهيد معاوية فيالكِ من ذكرى على النَّفسِ باقية
أجلْ هذه ذكراه لا يومِ عُرسه ولايومِ تكريمٍ ودنياه باقية
فما أقصرِ الدُّنيا التي طوَّل الضَّنى أصائلَه فيها وأشقى لياليه
وما أضيعِ الآمالِ آمال من رأوا مطالعِه في مَشرقِ النُّورعالية
ومن أيقنوا أنَّ الهلال الذي بدا على الأفق أحرَى أن يَعمَّ نواحيه
بكائي عليه من فؤادٍ مُفجَّعٍ ومن مُقلةٍ ما شُوهدت قطُّ باكية
بكائي على ذاك الشَّبابِ الذيَ ذوَى وأغصانُه تختالُ في الرَّوض نامية
بكائي على ما أثمرتْ وهي غضَّةٌ وماوعدَتنا وهي في الغيب ماضية
فضائلَ منها نخبةٌ أزهرت لنا لَماماً وأخرى لم تزل فيه خافية
تبينتُ فيه الخلدَ يوم رأيتُه وما بانَ لي أن المنية آتية
وما بانَ لي أنى أطالعُ سيرةً خواتيمُها من بدئها جَدُّ دانية
وأنَّ اسمُه الموعودُ في كل مِقْوِلٍ سيسمعُه الناعون من فمِ ناعية
أجلْ هذه ذكراه يانفسُ فاذكري فجيعتَنا فيه وما أنتِ ناسية
أجلْ هذه ذكراه ياعينُ فاذرِفي عليه شآبيبَ المدامعِ دامية
إذا قَصُرتْ أيامُ من نرتجيهمُ فيا طولَ حُزنِ النفسِ والنفسُ راجية
وياطولَ حزنِ النفسِ وهي مُنيبةٌ إلى اليأسِ من عجزٍ بها وهي آبية
فيا يومَ ذكراه سنلقاكَ كلمَّا رَجعتَ إلينا والضَّمائرُ صاغية
وياعارفيه لاتَضنُّوا بذكره ففي الذِّكرِ رُجعى من يدِ الموتِ ناجية
أَعيروه بالتَّذكارِ ما ضنَّ دهرُه به عيشةً في مُقبل العمر راضية
وزيدوا النَّفيسَ النَّزرَ من ثمراته بتكرارها في القلبِ أولى وثانية
فإن لم تكن في العَدِّ كُثراً فباركوا معانيه حبَّاً ووفُّوا معانيه
عليه سلامٌ لايزالُ يُعيدُه ويُبديه شادٍ في الدِّيار وشادية!

الملحق الثامن
بكاء القلوب
محمد أحمد محجوب

[رثى الأستاذ المفكر الكبير الشاعر، ورئيس وزراء السودان الأسبق، السيد محمد أحمد محجوب، صديقه وصفيه معاوية محمد نور، في قصيدة صاغ فيها من المعاني ما أورده كل من عرف معاوية بنبوغه الفريد، وقد خصَّ الشاعر من هذه المعاني مواهب معاوية في التواصل الخطابي الشفهي، التي وازت مواهبه الكتابية، وكانت

خليقة بأن تصنع منه رجلا ذا أثر كبير في تاريخ الفكر والنقد والإصلاح في البلاد. وقد وردت هذه القصيدة في ديوان الشاعر (قلب وتجارب)].

يا رفيقَ الشَّبابِ زَيْنَ الرِّفاق   أين دمعُ العيونِ يومَ الفِراق
جزِع الصَّحبُ للفجيعةِ حتى   جمدَ الدَّمعُ حائراً في المآقي
يتراءى للنَّاظرين سَحاباً   إنَّ دمعَ القلوبِ غيرُ مُراق
فهو نارٌ كم يصطلِي بلظاها   كلُ قلبٍ معذَّبٍ خفَّاق
وبكاءُ القلوبِ أبلغُ عندي   من بكاءِ الجفونِ والأحداق
ذكرياتٌ ولوعةٌ وجنون   لفِراق ما إنْ له من تَلاق

****

يا رفيقَ الشَّباب كنت الشَّبابا   باسمَ الثَّغر دائمَ الإشراق
ذا حديثٍ كأنَّه السِّحرُ يَسرِي   في نفوسِ الأنامِ كالتِّرياق
فهو كالهمسِ في الفؤادِ وآناً   مثلُ داوي الرُّعود في الآفاق
يبهرُ السَّمع جرْسُه ويُناجي   خافقاتِ القلوبِ بالأشواق
ويثيرُ النُّفوسَ معنى وحِسَّاً   لفظُهُ السَّهلُ ذو المعاني الدِّقاق
كم صرفتَ الأنام عن آيِ (شوقي)   وهواه بغادةٍ في العراق
لطريف (العقَّاد) يشدو ويشدو   كهديلِ الحمَام ذي الأطواق
وعشِقتَ الجديدَ في كلِ فنٍّ   وعشقتَ القديمَ غير نفاق
وحذِقتَ البليغَ من كل لونٍ   يا مثالَ النُّبوغِ والأخلاق

****

زرت مصراً فكنت نجمَ سُعود   وبلبنانَ حُزت أعلى المراقي
شهد الأَرْزُ من نبوغك نوراً   وكسبتَ السِّباقَ إثر السِّباق
وتنـزَّلت في الكنانة غيثاً   مُستهِلَّ الإرعادِ والإبراق
طرب الناسُ للنبوغِ وراحوا   يرقُبون الهلالَ قبل المحاق
يتمنون من سنَاكَ ضياءً   كضياءِ الصَّباح بعد انفلاق
دهمَ الليلُ دامساً فتوارى   فلكُ النُّور ساطعَ الإشراق
وتولَّى الذُّهولُ عقلاً سليماً   فبكاكَ العِداةُ قبل الرِّفاق

يتمنون للغروبِ شروقاً   لتجوزَ النِّطاقَ بعد النِّطاق

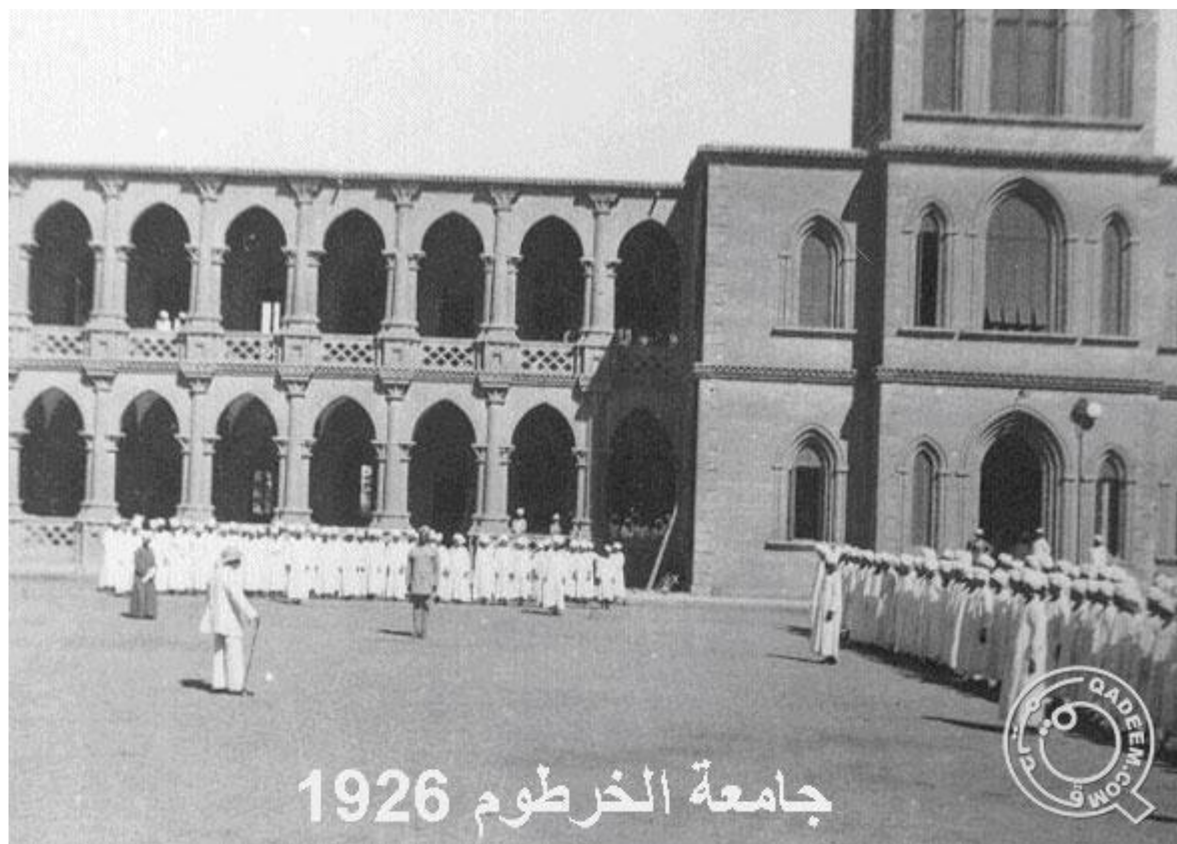
****

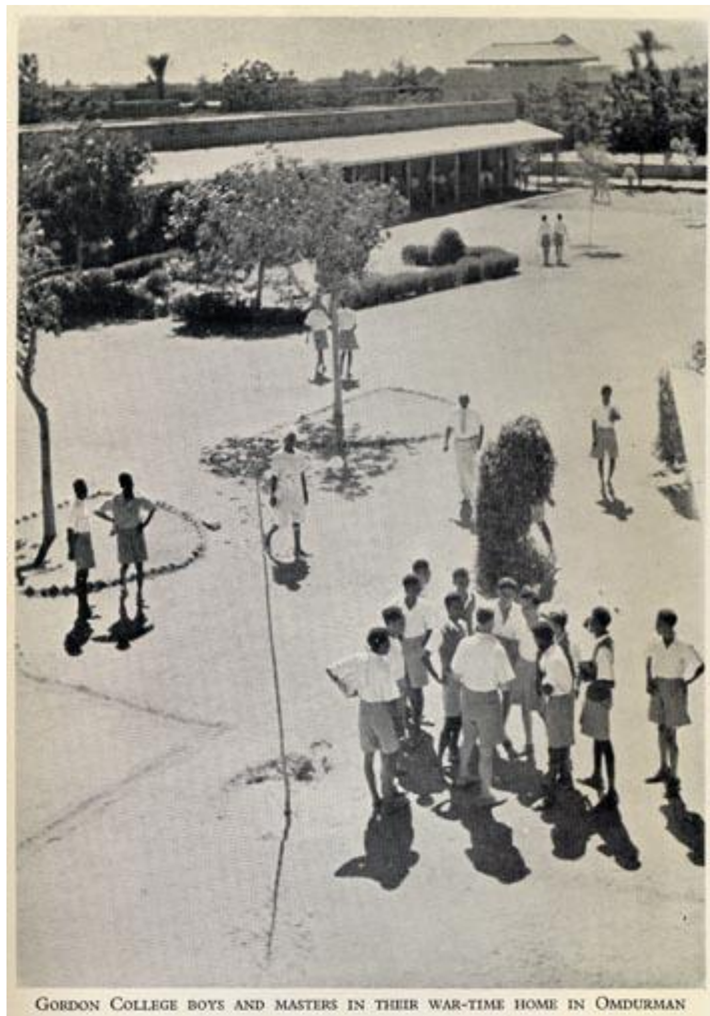
كم ليالٍ قطعتُها أترجَّى   وشفعتُ الرَّجاء بالإشفاق
غير أن الحِمَامَ خفَّت خطاه   وطريقُ الفناء غيرُ مُطاق
جزع الصَّحبُ للفجيعةِ حتَّى   جَمدَ الدَّمعُ حائراً في المآقي
يتراءى للنَّاظرين سَحاباً   إنَّ دمعَ القلوب غيرُ مُراق
فهو نارٌ كم يصطلِي بلظاها   كلُ قلبٍ معذَّبٍ خفاق
وبكاءُ القلوبِ أبلغُ عندي   من بكاءِ الجُفونِ والأحداق
ذكرياتٌ ولوعةٌ وجنونٌ   لفِراقٍ ما إنْ لهُ مِن تلَاقِ!

الملحق التاسع
صور




إدوارد عطية


جامعة الخرطوم 1926
QADEEM.COM



Gordon College boys and masters in their war-time home in Omdurman





STUDENTS AT THE KITCHENER SCHOOL OF MEDICINE, KHARTOUM

GORDON COLLEGE GEOGRAPHY STAFF IN CONFERENCE

مصادر الدراسة

المصادر الأعجمية

Edward Atiyah, An Arab Tells His Story, John Murry, London, 1946.

Edward Atiyah, Black Vanguard: Peter Davies: London, UK, 1952.

Edward Atiyah, The Arabs: the Origins, Present Conditions, and Prospects *of the Arab World*, 1955.

Marx, Karl, The Poverty of Philosophy, Charles H. & Co. Chicago, 1934.

المصادر العربية

أحمد محمد البدوي، تجليات ناقد الحداثة معاوية محمد نور، دار كيمبردج للنشر، 2012م.

السني بانقا، معاوية نور ، مركز عبد الكريم ميرغني الثقافي ، أم درمان ، 2006م.

إسماعيل بن عمر بن كثير، تفسير القرآن العظيم، تحقيق سامي بن محمد سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، 1420هـ.

لويس شيخو اليسوعي، تاريخ الآداب العربية في الربع الأول من القرن العشرين، مطبعة الآباء اليسوعيين، بيروت ، 1926م.

حسن نجيلة، ملامح من المجتمع السوداني المجلد الثاني، دار الخرطوم للطباعة والنشر، 1994م.

كارل ماركس وفريدريك إنجلز، بيان الحزب الشيوعي، دار التقدم، موسكو، د. ت.

عبد الله الطيب، المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها، المجلد الثاني، مطبعة مصطفي البابي الحلبي، القاهرة ،1958م.
عبد الله الشيخ البشير، فيض الذاكرة، عزة للتوزيع، الخرطوم، 2002م.
غالى شكري، ثقافتنا بين نعم ولا، دار الطليعة بيروت، 1972م.
مالك بن نبي، شروط النهضة ، دار الفكر ، دمش ق، 1403هـ.
مالك بن نبي، مشكلة الثقافة، ترجمة عبد الصبور شاهين، دار الفكر، دمشق، 1420هـ.
معن زيادة، معالم على طريق تحديث العقل العربي، عالم المعرفة، الكويت، 1987م.
محمد جلال كشك، الماركسية والغزو الفكري، مكتبة الأمل، الكويت، 1969م.
محمد عمر بشير، تاريخ الحركة الوطنية في السودان: 1990 – 1969، ترجمة هنري رياض وآخرين، المطبوعات العربية، الخرطوم، 1987م.
معاوية محمد نور، دراسات في الأدب الحديث، جمع وإعداد الطاهر محمد علي البشير، الدار السودانية، الخرطوم، 1970م.
معاوية محمد نور، الأعمال الأدبية الكاملة، جمعها وأعدها للنشر: رشيد عثمان خالد، دار الخرطوم للطباعة والنشر، الخرطوم، 1994 م.
مجموعة من المؤلفين، مقالات ودراسات مهداة إلى الدكتور صلاح الدين المنجد، مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، لندن، 2002م.
يحي محمد عبد القادر،على هامش الأحداث في السودان،الدارالسودانية للكتب، الخرطوم، د.ت.
أعداد مختلفة من مجلات (المنار) و(الهلال) و(الرسالة).
أعداد مختلفة من صحف (البلاغ) و(الصحافة) و(الأحداث) و(الرأي العام) و(التغيير) و(الحياة).

كتب للمؤلف

1- الشعر والمجتمع
2- قمم وسفوح: فصول في النقد الأدبي الإسلامي
3- شرح قصيدتي شكوى وجواب شكوى لمحمد إقبال
4- سجالات فكرية في زمن العولمة
5- مدخل إلى الفلسفة السياسية: رؤية إسلامية
6- مدخل إلى أساسيات الثقافة الإسلامية
7- أخلاقيات الحرب في الإسلام
8- إسهام الإسلام في تحقيق السلام العالمي
9- المناهج الإسلامية في الغرب
10- الشورى ومعاودة إخراج الأمة
11- خمسون كتابا في كتاب
12- أربعة مؤثرات سودانية في فكر مالكولم إكس
13- الوجود الإسلامي في أمريكا: الواقع والأمل (بالاشتراك مع د. عثمان أبو زيد).

هذا الكتاب

تضمن هذا الكتاب نصين متناقضين، كتبهما شخص واحد، حمل صفتين متعارضتين، إحداهما صفة الأستاذ المعلم بكلية غردون التذكارية، وثانيهما صفة الضابط بقلم الاستخبارات البريطانية بالسودان.

وقد كتب هذين النصين المدعو إدوارد عطية عن تلميذه الأديب النابغة المتألق معاوية محمد نور.

في النص الأول، الذي كتبه بصفته أستاذا، أفاض الأستاذ عطية في الإشادة بمواهب تلميذه المبرِّز، وفي النص الثاني الذي كتبه بصفته رئيسا لقلم الاستخبارات البربطانية بالخرطوم، حرَّض حكومة الإحتلال على تلميذه، ودعاها لعرقلة محاولته للاستقراره ببلاده، وتحطيم طموحه لنيل وظيفة تتناسب مع مؤهلاته الأكاديمية ومواهبه الفكرية.

وقد ضم الكتاب نصوصا أخرى، وفصلا نقديا في نقض محاولات معاصرة لإلحاق الظلم بمعاوية باستقطابه من الناحية الإيديولوجية.

ويهذا يضم الكتاب وثائق مهمة من وثائق تاريخ الأدب والفكر والنقد والإصلاح في وطن محتل.